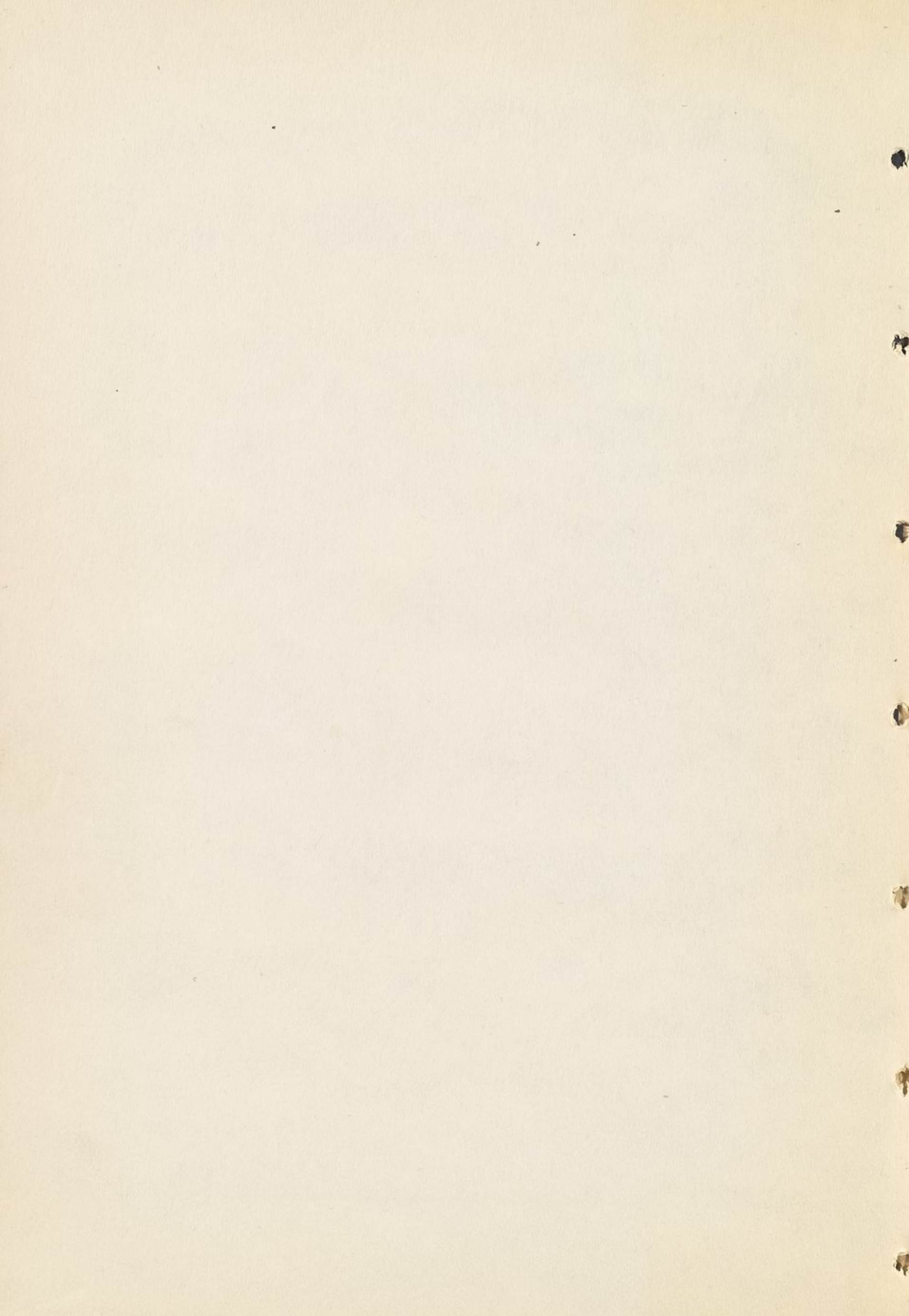




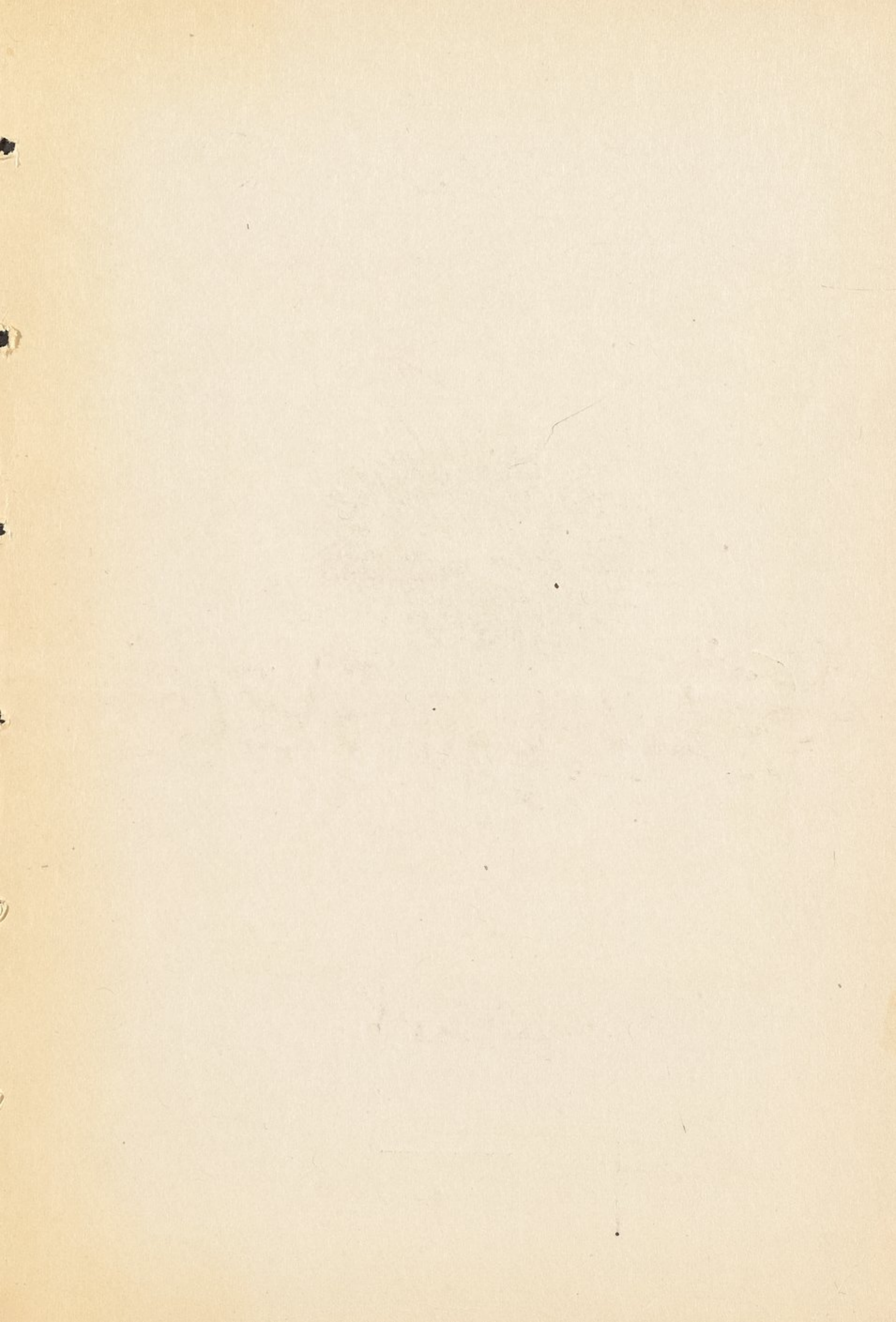
تراجم الأعلام



بقلم

أنور الجندي

١٩٥٥



تراجم الأعلام



أضواء على حياة الأدباء المعاصرين

بقلم

أنور الجندي

١٩٥٥

دار
الأعلام للطبع والنشر
٨٩ شارع السلطان حسين
بالقاهرة

تصدير

بسم الله أقدم هذه الدراسة لطائفة من الأدباء والكتاب الذين تقدموا موكب الأدب العربى الحديث منـــذ أول القرن العشرين وهم الذين لمعت أسمائهم وتصدروا زعامة الأدب بعد الحرب العالمية الأولى ، ولقد حرصت على أن ارسم لهؤلاء الأدباء صورة نفسية مستمدة من حياتهم وبيئتهم والعوامل التى اثرت فى أدبهم ولونت فنهم وإنى حين قصدت إلى هذه الغاية إنما أردت أن اضع فى يد القارىء مفتاح أدب هؤلاء الكتاب فليس من اليسير على الشباب الصاعد أن يفهم روح هذا الأدب وتياراتة دون أن يلم بطرف من حياة هؤلاء الكتاب ويفهم فهماً واضحاً معالم حياتهم الخاصة وما اضطرم فيها من عواطف وأهواء . وتعد هذه الدراسة مقدمة وتمهيد لدراسة الأدب العربى نفسه فى ومذاهبه مدارسه ونزعات التجديد فيه والعوامل المختلفة التى اثرت فى تكوينه وتطويره حتى تكامل بناؤه على هذه الصورة . وهذه الدراسة بين يدى الآن فى سبيل الأعداد ويضم هذا الكتاب دراسة لثلاثة أنواع من الكتاب والأدباء والشعراء . القسم الأول منه فيتناول الأدباء الرواد الأحياء ويتناول القسم الثانى الأدباء الرواد المتوفون ويضم القسم الثالث طائفة من الشعراء المعاصرين وأدباء المدرسه الجديدة التى كانت ثمرة لجهاد الرواد وفيها أدباء وأدبيات وهذه هى الأقسام الثلاثة .

١ ــ الرواد الأحياء

أحمد لطفى السيد ، طه حسين ، محمود تيمور ، عباس محمود العقاد ، أحمد حسن الزيات ، توفيق الحكيم ، محمد حسين هيكل ، سلامة موسى ، فريد أبو حديد ، كامل كيلانى ، أحمد زكى .

٢ ــ الرواد المتوفون

مصطفى لطفى المنفلوطى ، أحمد امين ، مصطفى صادق الرافعى ، جبران

خليل جبران ، الكاتبة مى ، زكى مبارك ، مصطفى عبد الرازق ، محمد السباعى
جرجى زيدان ، عبد البشرى ، ابراهيم عبد القادر المازنى .

٣ — الشعراء المعاصرين

اقبال ، شوقى ، حافظ ، الزهاوى .

٤ — كتاب المدرسة الحديثة

على ادهم ، سعيد العريان ، ابراهيم المصرى ، محمد زكى عبد القادر ، الصاوى ، ابراهيم ناجى ، أحمد زكى أبو شادى ، انطون الجميل ، امير بقطر ، ميخائيل نعيمة ، جميلة العلايلى أمينة السعيد ، سهير القلماوى ، على الطنطاوى . ابراهيم المصرى ، محمود كامل .

وإنى لأرجو أن يتاح لى أن اتم هذه الدراسة بتقديم طائفة أخرى من كتابنا وكاتباتنا كلما تيسرت أمامى وسائل هذه الدراسة وأتيح لى ان أحقق حياة هؤلاء الكتاب وأربط بينها و بين إنتاجهم .

أنور الجندى

القاهرة فى سبتمبر ١٩٥٥

عشرون عاما

١٩٢٣ - ١٩٥٣

أكتب مقدمة كتابى الأول هذا ــ اليوم ــ وهوأول عمل أدبى أرضى عنه ، أكتبها فى الأيام التى تسجل عيد ميلادى السابع والثلاثين - ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٤ - وبعد عشرين عاما من كتابة أول كلمة لى فى الأدب .

كانت أول كلمة لى عن « المثل الأعلى » . ونشر لى أول شىء عن حافظ فى عدد أبولو يونيه ١٩٣٢ . وبدأت بعد ذلك أكتب فى الصحف الإقليمية ، كنت أعيش فى الريف ، فى ديروط وصنبو والقومية وأبى تيج خلال أربعة عشر عاما طوالا ، كانت من أقسى الأعوام على نفسى . . . كنت خلالها أحلم بالقاهرة والصحافة وأتشوف الطريق إلى هذا الأمل الذى ملأ جوانب نفسى . حتى أننى هربت ذات ليلة لأسافر بالقطار إلى القاهرة لأعمل فى صحيفة إقليمية تصدر فى القاهرة هى « الأمانى القومية » . . ومن الصدف العجيبة أن يطبع هذا الكتاب فى مطبعة هذه الصحيفة التى كتبت فيها طويلا سنة ١٩٣٤ ولكنى الآن أنظر إلى هذه الفترة على أنها كانت فترة تحضير لعملى الأدبى كله بعد ذلك ، فقد كنت أقرأ وألتهم ، وكان الوقت الواسع والفراغ والطبيعة الجميلة ، وصباحيات الريف ومسائياته والقمر والليل والساقيه وجداول المياه وترعه الابراهيمية ، كلها كانت تبنى شخصيتى وتدعم طبيعتى الأدبية .

وأنا أعد كتابى هذا هو عملى الأدبى الأول ، بالرغم أننى أصدرت أكثر من عشرين كتاباً ــ أو كتيباً ــ كانت كلها صوراً بالطباشير على حد تعبير [الدكتور] الدكتور مختار الوكيل ، كانت أعمالا تصلح لأن تكون مقدمات لما بعدها. كانت فيها دفعة الشباب وعاطفته ، وفيها أوهام محتها الخبرة ، وحماسة حورتها التجربة .

حقاً لقد قدمت إلى القارىء عدداً من الكتب فى النقد والسياسة والاجتماع والإسلاميات ولكنى اليوم أنكر ماضى كله ، ولا أحسب هذه المؤلفات ذات قيمة فى تكوين شخصيتى الأدبية . فقد كنت أصدرها تحت ضغط رغبة واحدة ، هو أن أظهر على المسرح الأدبى ، وكنت فى خلال مرحلة من هذه الفترة مرتبطاً بعجلة دافعة ، من تلك العجلات التى نربط أنفسنا بها دون إرادة ، أو رغم إرادتنا ثم نتحول عنها ولكن لا نندم عليها..

وهى فى مجموعها تمثل تحولى من حلقة من العمر إلى حلقة ، ومن مرحلة فى الفكر إلى مرحلة ، إنها إحدى علامات الطريق فى حياتى خلال عشرين سنة . تصور تنقلى بين النقد الأدبى الخالص والجرىء العنيف ، الذى كان يتمثل فى مجموعة مقالات نشرتها الإنذار سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «معول فى الأدب» .

ثم تحولى إلى الإسلاميات واندفاعى فيها وتحولى منها إلى السياسة الوطنية . وكتابى «أخرجو من بلادنا» باجزائه الأربعة كان عام ١٩٤٦ حدثاً بعيد المدى فى حياتى فقد قدمت بسببه إلى المحاكمة وبقى حجر الزاوية ، أو علامة الكفاح ضد طغيان العهد الغابر وأول معول فى هدم الحزبية السياسية التى صنعت بعد ثورة ١٩١٩ .

وفى سنة ١٩٤٩ دخلت السجن فأمضيت فيه العام كله . وكنت قد وصلت القاهرة فى مايو ١٩٤٦ لأشترك فى إنشاء صحيفة يومية كبرى دفعت إليها بثروتى كلها .

ودارت العجلة بسرعة عنيفة ، وانتهت بأن وجدت نفسى فى أواخر سنة ١٩٤٨ فى السجن لأمضى شتائين بين صحراء مصر الجديدة وصحراء الطور .. وكانت فرصة لأتأمل حياتى ونفسى وهدفى . وانتهيت منها إلى أننى كاتب . وان أكون سياسياً أو مصارعاً فى ميدان الزعامة أياً كان نوعها .

وخرجت فى يناير ١٩٥٠ لأبدأ صفحة جديدة : هى صحيفة الأديب الخالص . وعملت فى جريدة « الزمان » وبدأت أكتب فيه وفى الأهرام

والرسالة والثقافة والوعى فلما جاءت الثورة المصرية أحسست أن فجراً جديداً من الضياء يشرق فى كيانى وأن الآمال العريضة التى كانت تغمر صدرى ككاتب حر قد بدأت تتحقق على صورة رائعة ومضيت أجرد نفسى للأدب والصحافة وحدهما وقدنحيت السياسة جانباً فمالى ولها بعد أن تولاها الأحرار ولكننى تبينت بعد قليل ، عند ما احتجبت الرسالة والثقافة فى أوائل ١٩٥٣ أن العمل الأدبى فى الصحافة جهد ضائع . وأن هذا الإنتاج ينطوى مع الأيام، ويمضى ولا قيمة له .

وآمنت بأن العمل الأدبى الخالص يجب أن يبدأ . وكنت كلما اقتربت من سن الأربعين أحسست بأنى مغبون . وأننى غبنت نفسى إذ دفعتها فى طريق وطريق . وغفلت عن الطريق الأصيل : الأدب الخالص .

وكنت أنظر باشفاق إلى هذا العمر الذى مضى ، وهذه السنوات العشرون فى حياة الأدب قارئاً وكاتباً . التى مضت دون أن يظهر فى إنتاج واضح المعالم.. وما هذه الكتيبات عن محمود تيمور والمراغى وأعلام الإسلام ، وهذه المقالات المنشورة فى الصحف الأدبية والمجلات إلا أعمال غير كاملة . إنها رءوس مواضيع لأعمال كبرى قد بدأتها فعلا فأنا أريد أن اؤرخ الأدب العربى المعاصر على صورة كاملة واضحة جديدة ، غير مسبوقة ، ولدى من الوثائق والأسانيد والقصاصات ما يمكننى من ذلك إذا أتيحت لى أسباب الرزق والقدرة على النشر .

* * *

ولقد لقيت فعلا من الصحافة والناشرين عنتاً لا حد له . فأصحاب الصحف والمجلات يريدون منك أن تكتب الألوان التى يريدها الجمهور ، على تلك الصورة التى نراها من تفاهات الصحف ، والطرائف ، والساندويتش ، والأدب الخفيف ، والقصة التافهة . . هذا هو الذى تريده الصحف والمجلات

لتقدمه للقراء . فاذا استطعت أن تفعل حصلت على المال .. ولكنك فى نفس الوقت قتلت نفسك .

أما الناشرين فهم يريدون منك أن تولد عملاقاً حتى ينشرون لك آثارك . لقد كان لى فى وقت واحد . عشرة مؤلفات عند عشرة من الناشرين . وكلهم ماكر . يشوف ويعد ويعتذر ويرجىء ...

وكان حقاً على أن أشق طريقى بيدى . دون أن أعتمد على الصحافة أو الناشرين ، كان لابد لى أن أطبع مؤلفاتى بنفسى وأقدمها للقارىء وأنا واثق من أننى أقدم له قطعة من ذات نفسى . رمن قوتى وقوت أولادى فلا سبيل إلا هذا . . وقد كان ذلك هيناً على فقد بدأت حياتى دون استناد على أحد ، لم يكن لى فى الأدب أستاذ . لقد كنت أرى الأدب كالحديقة أقطف من كل أنواعها ، ورودها وأزهارها لا أفضل نوعاً منها على آخر . ولكنى امتحنت بالأدباء سنة ١٩٣٢ بعد أن صدرت الرسالة فقد أخذت أرسل لأدباء مصر وكتابها بآثارى وإنتاجى . . عبد القادر حمزة والزيات وزكى مبارك وابراهيم المصرى والدكتور هيكل . .

وأشاح الكتاب الكبار بوجوههم عنى ... إلا واحداً هو : الدكتور زكى مبارك رحمة الله عليه ، فقد بعث إلى خطاباً حاراً يدفعنى فيه إلى القراءة والمطالعة والكتابة وأوصانى بالصبر الجميل ، وكان هذا هو المنار الأوحد فى ظلام حياة الريف . فأحببت زكى مبارك وعشت معه حتى كان أسلوبى يوماً تقليداً له .

ولكنى أحببت بعد ذلك الزيات وطه والرافعى وسلامه موسى وغيرهم ..

ولست أنسى تلك الأمسيات فى ظلال أشجار السرو فى ديروط ، على ضفاف بحر يوسف سنة ١٩٣٠ ونحن نقرأ ماجدولين والعبرات للمنفلوطى ونحفظ عباراته عن ظهر قلب . .

كان الحرمان والريف والشباب اليافع يعمل فى نفوسنا عملا بعيد المدى ،

وكنا نتطلع إلى المستقبل فى خوف وإشفاق .. ولكن الأحداث لم تدعنا نرسم الطريق ، فقد كان مرسوماً لا مرية فيه ولم يكن علينا أكثر من أن نقطعه .

وطالت حياة الريف وكان لابد أن نقول كلمة مدوية سجلها كتابى الأول « عرائس البكارى » الذى صدر فى ٢ أبريل سنة ١٩٣٨

« لست أدرى من أين أبدء حديثى ، إذ أقدم هذه الرسالة الصغيرة ، أننى كلما رجعت إلى ما كتبت من صور الفكر أحسست بأن عملى لما ينضج . وهذا أمر لن يستقر . فسيظل الكاتب ينظر إلى كل ماسلف من آثاره الأدبية نظرة من لا يرضى عنها

ولقد أساء إلى وجودى فى الريف إساءة بالغة إذ حرم على متاع الدراسات العليا والاتصال بمواطن الأدب وأبعد بينى وبين الصحف . هذه الصحف التى لا تعرف إلا الوجوه والتى لا يهمها كتابة ناضجة بقدر ما يهمها الصديق أو الكاتب المعروف لمحرريها ، ولقد مضيت أجاهد فى الظهور غير معتمد على شفاعة أحد .

ولست أنكر أنى قد ضجرت ضجراً بالغاً بعد أن قابلت ، الدكتور زكى مبارك فقد نفرنى من الأدب ورغب إلى أن أعمل فى ميـــدان آخر ، فآمنت له أول الأمر وأرغمت القلب العاتى الخفاق بحب الأدب إلى الانصراف عنه إلى دراسة الاقتصاد وقضيت سنة كاملة أدرس هذه المادة باللغة الإنجليزية دراسة قاسية . كانت تطوى وقتى ومالى كله ، .. ولكننى عدت منها بالفشل المبين ! فقد تغلب الأدب على روحى وظغى ، وأفسد على الدراسة إفساداً بالغاً ، وسد فى وجهى المسالك سداً ، وضعفت أنا إزاءه ضعفاً بالغاً ، وعدت أشعر بالوحشة له والحنين إلى موارده .. وانتصر الأدب

ولكنى عدت بقلم صدأ ، فقد أمضيت عاما كاملا لا أكاد أكتب رسالة عربية إلى صديق ..

لقد كنت عنيت، أول مرة بالحديث عن المرأة والشرق والحضارة . وتلون إنتاجى بلون الخيال والعاطفة . واستفاقت فى نفسى رغبات جديدة فأثرت فى كيانى ، وكتبت فى الوادى قطعاً يومية تحت عنوان « جولات » واستوى لى بعد أن عرفت الحب فن جديد ، فأنشأت صوراً ذات طابع معين، صادفت، إعراض الكثيرين عنى ، وقيل لى إنى تنكرت للتقاليد المرعة ..

وأنتجت فى سنوات ٣٤ – ١٩٣٥ أدباً ذاتياً عنوانه ما يقال من الداخل للخارج فلما ألححت على دراسة الاقتصاد عدت أكتب النقد وأمعن فى الاتجاه نحو العقل والبحث العلمى .

هذا حديث أسجله اليوم وثيقة للمستقبل . ويتطور أدبى وتذهب هذه الصورة فى تضاعيف الأحداث ولا يبقى إلا هذا السجل المسطور وليس من الخير أن يظل الكاتب صامتاً لا يتحدث عن نفسه ولو فى مقدمة كتاب صغير» هذا ما قلته سنة ١٩٣٨ أى منذ سبعة عشر عاماً فى أول كتيب لى عن النقد .

حقاً . لقد خرجت من قريتى سنة ١٩٣٣ فى سن السادسة عشرة ، ولم أعد إليها . أمضيت هذه الأيام رجلا مسئولا أكافح فى سبيل العيش وأتعلم وأقرأ وأدرس فى المساء ، وكنت فى هذا السن الباكر أعيش فى قرية « صنبو » لأحصل على أول قرش لاشترى به كتاب « فى أوقات الفراغ » لهيكل

وفى هذا السن بدأت أحب . أحب المرأة التى علمتنى كيف أحب الحضارة والقاهرة والتى كانت روحها تدفعنى إلى المجد . إنها أمى الروحية التى مازالت تبارك خطواتى ، والتى أمضيت أكثر من عشرة أعوام أتجنب رؤيتها حتى ألقاها وأنا قريب من الصورة التى أحب أن ترانى بها .

وكانت السنوات من ٣٢ – ١٩٤٦ سنوات قاسية قلقة مريرة ، كافحت فيها فى سبيل الرزق والعلم والأدب حتى وصلت القاهرة فى أوائل أبريل ١٩٤٦ وأحسست يومها بأنى قد أنهيت حياة مظلمة وبدأت صفحة جديدة .

وبقدر ما كانت أيامى تلك بطيئة مغرقة فى السأم والملل والكسل ، كانت

أيامى بعد ذلك صراعا وصداماً وارتطاماً , حتى اليوم ، ذلك لأننى كنت أخشى أن أموت قبل أن أسلم للدنيا إنتاجى وآثارى ، هذا الإنتاج الذى تطور وتحول وتلون مع السن ومع الثقافة ومع التجربة . ولقد كانت الصحافة حائلا طويل المدى بين إنتاجى وبين الحياة بعد أن خشيت أن تدفع أدبى إلى تلك الكتابة الصحفية الباهتة . ومن ثم حجزت أدبى عنها وعشت برئة واحدة حتى ظن الناس أن الصحافة قد قضت على الأدب فى نفسى مع أننى دخلت الصحافة من باب الأدب أولا ولكنى مضيت أوازن بين عملى الصحفى الذى هو مورد رزقى وبين الأدب الذى هو غاية حياتى فكنت أجعل النهار للصحافة والليل للأدب .. حتى انتصرت ..

وفى فترة ما غلبت على الروح الإسلامية بل الدينية ، ثم تحررت منها ، كما تحررت من الانطلاق وراء المدنية الأوربية ، وبدأت أربط الشرق بالغرب والماضى بالحاضر ، والجديد بالقديم فى تناسق ، يتمثل فى نفسيتى التى لا تحب الانحراف نحو اليمين أو نحو الشمال ! فأنا أحب الاعتدال والهدوء . وقد مرت بى فترات كنت خلالها ثائراً على الأدب وعلى السياسة وكانت أعصابى تصرخ .. لقد ترك الريف فى نفسى جراثيم الحرمان والقلق ورصيد التوجس من المستقبل والخوف من الغد وعقدة التطلع والاستكشاف وتعمق السرائر ..

ولكن الريف أعطانى فرصة التأمل الطويل والقدرة الناضجة فى الحكم على الأشياء ، فلما وصلت إلى القاهرة لم ألبث أن نزلت إلى ميدان الصحافة والكتابة ، ولكنى كنت مقيداً ، ثم لم ألبث أن تحررت وتجردت للأدب والفكر وحده !

* * *

لقد بدأت حياتى الأدبية بداية عنيفة ، منذ عشرين عاما ، ولكنى تحولت من لون إلى لون . ومن التخصيص إلى التعميم . ومن المطامع المحدودة إلى

الميدان العام . ولقد كتبت فى أكثر من عشرين صحيفة ولكنى توقفت فجأة فى أول عام ١٩٥٤ .

لقد رأيت كل هذا عبثاً وقلت لنفسى ليس هذا هو الطريق ، ولا هو الهدف وكرهت الارتباط بالمناسبة والموعد والصحافة ، وكرهت أن أطلب إلى أحد أن يستكتبنى ..

وحاول أصدقائى أن يدفعونى إلى القصة ، أو أن يحملونى على الكتابة الخفيفة الفكهة ، أدب الساندويتش كما يقولون — ولكنى أصررت أن أقول لا ..

لن أعق فطرتى ، ولن أندفع مع غير طبيعتى ، مهما يكن ، من فقدان بضعة جنيهات ثمناً لهذه الألوان التى يطلبها الناس ولا تستجيب لها نفسى

إن لى أدبى وفنى ، وموضوعاتى ، وأهدافى ، ولن أتخلى عنها

من يضمن لى أن أعيش حتى أكتب كل ما أريد ، والعمر يتفلت سنة بعد أخرى ، والأحداث تدفع بنا فى عباب صاخب ، هو عباب القدر الذى يرسم حياتنا دون أن ندرى ؛ إن خير ما عندى لم يخرج بعد إلى حيز النشر ، إننى كالرجل البخيل الذى ما زال يدفن الجواهر فى الرمال !

واليوم إذ يمر على تاريخ بدء حياتى الأدبية عشرين عاماً أراها على بعد الزمن وقرب الذكرى مرحلة كفاح طويل فى سبيل الفكر والذوق والثقافة تحول خلالها الكاتب فى المشاعر والسن والفهم وتنقل بين مراحل عديدة مختلفة ، قد تكون متباينة ، ولكنها تحمل جميعها معنى واحداً هو العمل لأداء أمانة الفكر وأمانة القلم . ولكم كان يحز فى نفسى أن مجموعة ضخمة من معارفى يظنوننى واحد من الصحفيين ، لأنهم لم يقرأوا لى أثراً حياً يحدد موقفى بين الأدب والصحافة . لقد عشت بالصحافة للأدب وأن كل لحظة من لحظات يومى التى أملكها إنما هى حلقة فى هذا الطريق الطويل . وبالرغم من مرور هذا الزمن فما زلت أعد نفسى فى أول الطريق . لم أحقق بعد الآمال العريضة

والأحلام الحنونة التى تملأ نفسى .. أرانى مازلت فى مبدأ الشوط .

ولقد فكرت طويلا طوال حياتى الأدبية لماذا لم أجد الكاتب الذى يجوز لى أن أقول أننى تلميذ له أو الذى اتخذه أستاذا لى ولكم حمدت الله — عندما بدأت أكتب هذه الموسوعة — أن ذلك لم يقع ، حتى أكون أكثر تجرداً فى الحديث عن أدب الأدباء المعاصرين وإنى لا أجدنى آسفا وانا أنحت الصخر فى سبيل الوصول إلى مكانى ، دون أن أجد ذراعاً استند إليه .

* * *

أن هذا السفر الأول من موسوعتى عن الأدب المعاصر هو خلاصة دراسات طويلة لأدب روادنا الأول ، وكتابنا الذين برزت أسمائهم وإنتاجهم بعد ثورة ١٩١٩ على وجه التحقيق ، وإن كانوا قد كتبوا وانتجوا قبل ذلك التاريخ وهى عمل جديد غير مسبوق أحسست بمدى حاجتنا إليه ولقد تناولت حياة هؤلاء الكتاب من انتاجهم وآثارهم فى ضوء علم النفس الحديث ، وحاولت أن أصورهم فى أنصاف دون مجاملة أو تحامل. لقد مضيت أقرأ لهم أكثر من عشرين عاما فأحطت بمعالم نفوسهم من خلال انتاجهم وكون هذا الاتصال بينى وبينهم صداقة روحية ، كنت أحس أنها أقوى من معرفتى بهم أو ببعضهم ، معرفة الصحبة أو الالتقاء فى صالونات القاهرة وانى لأرجو أن أكون قد أنصفتهم وآمل أن اؤدى بهذا العمل واجبا فى بناء حياة نقدية وإنشاء دراسة كاملة للأدب العربى المعاصر .

شارع الهرم فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٤

أنور الجندى

لطفى السيد



نظلم لطفى السيد حين نضعه مع رجال السياسة فهو من رجال الثقافة الممتازة ولاشك . . . كان رائد الصحافة العصرية ١٩٠٧ عندما بدأ يكتب فى الجريدة مقالاته عن « المصرية » . . فقد أمضى عشر سنوات ليعمل فى الصحافة ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى محيط الثقافة فأمضى فيه بقية حياته المديدة إلى اليوم ولم تكن فترة المناصب الوزارية والأعمال السياسية إلا أشبه باللحظات العابرة فى ساعات الزمن المديدة الموصولة بالعمل الثقافى وفى خلال هذه الفترة الطويلة عاش مع الكتاب : كاتبا ومترجما . وعنى أشد ماعنى بارسطو فنقله إلى اللغة العربية فكان ذلك دعامه من دعامات نهضة الترجمة يدين لها الأدب العربى المعاصر بكثير من الفضل .

لقد تأثر لطفى السيد منذ شبابه بأراء تولستوى الذى دفعته سنة ١٩٠٥ إلى أن ينصرف عن الوظيفة ويعيش فى بلده بعيدا عن ضجيج الحياة . ولما لم

يتحقق له ذلك بدأ كأنه يعيش هذه الحياة المثالية التى ملأت عليه أقطار فكره.. فهو منذ سنوات وسنوات يكاد يكون معتزلا للحياة العامة عاكفا على دراساته وحياته الخاصة . ، لايرضى بها بديلا :

ولقد تصدى لطفى السيد للرأى العام فى فترة كانت الحياة الحزبية تأخذ صورة شاقة فقد كانت الجريدة تصدر باسم حزب الأمة فى الوقت الذى يصدر فيه مصطفى كامل «اللواء» باسم الحزب الوطنى . ويصدر على يوسف «المؤيد» باسم حزب الإصلاح . فكان طبيعيا أن يسأل الناس عن أهداف الجريدة وعلى رأسها لطفى السيد . وفى خلال هذه الفترة بدأ كأشد مايكون لمعانا وهو يضع أحجار الأساس للنهضة الفكرية التى سار على طريقها جيل من أبنائه وتلاميذه .

ولقد افتتح لطفى السيد العدد الأول من الجريدة بهذه الكلمة نسجلها لتكون أحد مصابيح الطريق فى حياة الرجل الذى تعلم عليه طه حسين وهيكل وعزمى وعبد العزيز البشرى ومصطفى عبد الرزاق وعبد الحميد بدوى « ما الجريدة ، إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح . ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح . والحض على الأخذ بها وإخلاص النصح للحكومة والأمة .

لايكون من أهل الوطن أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات فى حالة الأمة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الأفراد — وهذا مايسمونه بالرأى العام .

والناس بطبائعهم اشتات فى الرأى كما قيل (للناس عدد رؤسهم أراء) وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الأمور العامة إلى تدبير حاجتهم الخاصة حتى ترشدهم الصحف كل يوم إلى أن لهم فوق وجدهم الخاص وجوداً عاما . وأن بهذا الوجود العام كما لا يحب أن يرقى إليه بعمل الإفراد . . .

ولاشك أن هذا الأسلوب سنة ١٩٠٥ يدل على مدى طواعيه البيان للكاتب ولقد عاش لطفى السيد فى برج عاجى . ولعل قراءاته وإعجابه بتولستوى واتجاهه الفلسفى وضعه بين رجال المنطق فمضى عف الأسلوب ولم يعرف عنه الهجوم ولا الصيال ولا الدخول فى المعارك . . . ولعل هذا الطبع الغالب على نفسه فى تجنب المزالق هو الذى دفعه إلى أن يزايل الصراع الحزبى عندما بدأت أولى مظاهرة فى الخلاف بين سعد وعدلى . .

وفى خلال الفترات القصيرة التى عمل فيها وزيراً كان مثلا عاليا للكرامة والرجولة ، فلم يضف إليه أحد مايضاف إلى الوزراء فى ذلك العهد ، بل ظل حتى فى هذا المنصب هو الفيلسوف مترجم أرسطو والرجل الزاهد فى المظاهر والمطامع . ومايلبث حين تتاح له الفرصة لأن يعود إلى صومعته أن يعود . .

ولكن هل مضت حياته فى هدوء بعد أن سجل بدء النهضة الفكرية المصرية التى بدأت على صفحات الجريدة . . . لا . لقد أراد أن يسجل شيئاً آخر ، ذلك هو الدفاع عن حرية الفكر حين حمل لواء الذود عن استقلال الجامعة من عنت السياسه الحزبية مما أغضب الرجعيين .

ولقد سجل موقفه من السياسة فى مذكراته فقال «وأنا إذ أفكر الآن فى كل مامضى السياسى منذ سنة ١٨٩٨ ، أى منذ نصف قرن ، أستطيع أن أقول أنى مادخلت غمار السياسية مرة إلا وأنا أعتقد أن عملى فيها واجب قومى ، يشبه أن يكون فرض عين ، ومع أنى أحب القراءة فى كتب السياسة فأنى أكره الاصطلاع بها عمليا . .»

* * *

لقد شغل لطفى السيد منصب مدير الجريدة بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٣ ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى انتهى هذا الدور الفكرى ليكون واحداً من زعماء مصر الذين قاموا فى أعقاب الحرب يطالبون بالاستقلال . وانتظم فى الوفد الذى سافر إلى أوربا . ولكنه لم يلبث حين ظهر الشقاق

فى الصفوف أن اعتزل السياسة وعكف على أرسطو . وعين بعد مديراً لدار الكتب ، ثم أول مدير للجامعة المصرية . وفتح سنة ١٩٣٠ أبواب الكليات الجامعية للفتاة المصرية وكانت أزمة ذات دوى ، ثم قدم استقالته عندما تدخلت السياسة الحزبية فى استقلال الجامعة ونقلت طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف .

* * *

وللرائد الأول للفكر العربى الحديث أسلوب وطريقة فى الكتابة كانت مثار تعليق الناقدين والكتاب فالأستاذ عبدالعزيز البشرى يقول . . « ولطفى يجمع إلى عذوبة الروح عذوبة الحديث . وهو أديب تام يحفظ صدراً من متخير شعر العرب ومأثور أقوالهم ، إلى فقه فى متن اللغة ، ورعاية لدقائقها ، وبخاصة إذا كتب أوحاضر أوخطب . وله فى أبواب البيان والترسل أسلوب خاص به ، حاول كثير من الكتاب أن يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على أن لايعبأ بتجويد العبارة ولايتحرى اللفظ الرشيق إذ هو فى الواقع يجهد فى هذا ، رغم عنايته بالمعانى والتكثر من إيراد مصطلح العلماء ، ويتعمل له إلى مادون التعسف» ثم يذهب البشرى إلى تفسير هذا فى نفسية لطفى السيد فيقول : « . . وهذه الصفة فى لطفى السيد إنما تتصل بأخلاقه جملة ، فهو رجل قد أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف ، يتكلف فى مزاح الشباب ثقل الشيوخ ، ويتكلف فى مجالس اللهو هيبة الجد ، ويتكلف عدم الاكتراث لأعظم مايكرثه من الأمر ، بل أنه ليتكلف للكلام « الجاف » إذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يربطها بأهل الريف سبب .

نعم . لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله ، حتى أصبح له طبعا وسجية وأكبر أظنى أنه لوشاء يوما أن يرسل نفسه على سجيتها لتكلف فى هذا كثيرا . » .

هذا رأى فى أسلوب لطفى السيد وهناك رأى آخر لزكى مبارك .

« . . كتابات هذا الرجل لاتتصور مايملك من المواهب لأن قلمه أضعف من روحه ولأنه فى سريرة نفسه يتهيب المجتمع وإن اشتهر بالثورة على المجتمع . . . ، لطفى السيد كاتبا رجل هيوب . ولكن لطفى السيد محدثا رجل شجاع ، كان مثله فيما يكتب مثل من يمشى على الشوك . ثم انتقل من التطبع إلى الطبع فكان آية من آيات الحذر والاحتراس .

أسلوب لطفى السيد بطىء الحركة إلى حد الجمود ، وهو خال من البشاشة البيانية ، وليس فى كتابه صفحة واحدة تشهد بأن بيانه من وحى الطبع أو فيض الوجدان .

لطفى السيد كاتب متعمل متكلف ، وهو يجرجر كلامه بتثاقل وإبطاء ولولا البوارق الفكرية التى تلمع فى كلامه من وقت إلى وقت لعد من المتخلفين» ونحن لانذهب مذهب البشرى ولا مذهب مبارك ولكننا نستعرض آراء الذين تناولوا أدب « معلم الجيل » بالدراسة .

* * *

وغاية مايقال أن لطفى السيد لم ينشر من آثاره إلا هذه المجموعة التى قام على جمعها الأستاذ إسماعيل مظهر بعد كتب أرسطو . ولذلك فنحن حين نريد أن نضعه فى بوتقة الدراسة النفسية المستمدة من آثاره لانجد أى ضياء يهدينا فى هذا السبيل . فاذا أردنا أن نعرف آثر المرأة فى أدبه أجهدنا هذا . ولكن لطفى السيد كان يحب مجالس مى ويشغف بالحديث إليها وهو احد الذين أعجبوا بها وكان لها استاذا وموجها ولا يبعد ان تكون مصدرا من مصادر الالهام فى حياته الوجدانية

ولطفى السيد واحد من أولئك الكتاب الذين يؤمنون بالعقل الخالص ، فقد وجه نفسه منذ شبابه إلى العلم والثقافة . إذ نشأ صبوراً جلدا يلقى الحوادث غير مزور لها ولا مهمل عواقبها . ولكنه يلقاها فى الوقت نفسه من غير جزع ولا هلع : وهو قد فتح للناس فى الحياة الحديثة بابا لم يسبقه إليهما

أحد فتح باب الجريدة للدعوة إلى المصرية وإلى حرية الرأى وفتح باب الجامعة لإنشاء ذلك النمط الجديد من أنماط الفكر الحر ولقد بدأ مع سعد وعدلى ومع محمد عبده وقاسم أمين ولكن الله أطال فى عمره حتى رأى الحياة الفكرية والاجتماعية تتطور وظل هو يتطور معها حتى وقف على رأس الخالدين فى مجمع اللغة العربية .

وهو يصور وضعه هذا من التاريخ حين يرى نفسه يقطع جيلين كاملين من أول القرن إلى ما بعد منتصفه فيقول «وأرانى الآن أشبه شىء بالمصعد إلى قمة الجبل يسلك إليها الطريق التى تستقيم حينا وتلتوى حينا ويلقى فيها ما يلقى المصعدون من هذا الجهد الشاق الذى لا يخلو من عذوبة ولا يخلو من أمل ، ينظر إلى ما بين يديه من هذه الطريق التى قطعها ، راضى النفس مطمئن القلب : »

وبعد فيكفى لطفى السيد أن يكون أستاذ رواد الأدب العربى المعاصر .

طه حسين



لاتستطيع أن تفهم طه حسين أو تصل إليه بمؤلف واحد من مؤلفاته فهو رجل أحب الحرية وكلف بها منذ صباه . وجر عليه حبه لها متاعب كثيرة وكانت هذه المتاعب فى حلقاتها المتصلة عاملاهاما من العوامل التى دفعته إلى أن ينشىء ألوانا مختلفة من الأدب . ويبدع فنوناً متباينة من الأحاديث .

فلقد اصطدم طه حسين بالناس . واصطدم بالحكومات . واصطدم بالملك المطرود واصطدم بالأزهر والأزهريين ، فى مطلع حياته ، وفى شبابه . وفى رجولته . وكان طوال الأربعين عاما الماضيةمن عمر أدبه ينتقل من مرحله إلى مرحلة ، لايتوقف ولايجمد ولايبهره المجد الأدبى أو تسلمه الشهره إلى النوم العميق .

فهو دائب الإنتاج والإبداع والإنشاء ، يظهر القراء من نفسهوأدبه كل يوم على فن جديد ، وهو إلى ذلك دائب القراءه والمطالعة والبحث . . حتى

ليكاد يصرف يومه كله أو أيامه كلها فى بعض الأحيان ، لا يلقى أحداً ، وقد أغلق بينه وبين مظاهر الحياة اليومية المتعددة بابا صفيقاً ومضى يعيش حياته الأدبية الخالصة . وبالرغم مما بلغ طه حسين من الشهرة المستطارة ، والجاه الأدبى الضخم ، فانه مازال حريصا على أن يواجه القارىء وهو على أهبة الاستعداد . فهو يحترم قارئه وسامعه ويحرص على أن يتزود له حين يكتب أو يخطب .

* * *

وحياة طه حسين ، سلسلة من المتاعب والاضطهادات ، فهو رجل حر حريص على الحرية فى حياته وفى حياة مصر وفى حياة الأدب العربى . ولذلك فهو لايلبث أن يصطدم بعامل من العوامل المعوقة حتى يثور . فهو ثائر أبداً ، ثائر لايهدأ ولايستقر .

ثار فى أول أمره على أسلوب(١) الأزهر ، ونظمه فى التعليم ودراساته ، وظلت ثورته على الأزهر ممتدة متصلة بعد ان خلف الأزهر ، وبعد أن سافر إلى أوربا ، وبعد أن خلع عمامته وهو فى مركبه الأول إلى الغرب ، وبعد أن عاد فوضع كتابه الشعر الجاهلى : وهنا ثارت عليه ثائرة العلماء واهتزت الحكومة وهدد رئيسها بالاستقالة واضطرب أئتلاف الأحزاب .

ثم ثار على الأدب القديم وتأججت المعركة التى كان هو قطبها ، واصطدم بدعاة المذهب القديم وهاجم شوقى وحافظ والرافعى ثم اصطدم بالأحزاب الحاكمة التى كانت تحول بينه وبين حرية الرأى وتنتزعه إنتزاعا من الجامعة . وثار عندما اعتدى على استقلال الجامعة.وأعلن الحرب على عهد الديكتاتورية البغيض الذى حمل لوائه إسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠

---

(١) قال أستاذه (ومما كفر الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره إنما يطوفون برمه وأعواد) فقال طه حسين أنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب .

غير أن هذه المرحلة الطويلة من الصراع ، كانت قد علمت طه شيئا جديداً علمته كيف يلجأ إلى الرمز والإيماء . وصنعت منه الكاتب الذى يستطيع أن يحتال ليقول مايريد دون أن يقع فى قبضة الحاكم الظالم أو تحت سلطان القانون .

وهنا نفض طه يده من الكتابة السياسية واتجه إلى الأدب الخالص وأخذ يضمن إثارة آيات من القرآن الكريم يقصد بها إلى غاياته ولجأ أحياناً ، بل وكثيراً إلى القصص التاريخى والقصص الإسلامى ليرسم منه صور الصراع بين بين الجماهير التى تطلب العدل والحكام الظلمه الذين يحاولون استعباد الشعوب

« . . كنا نحتال ماوسعتنا الحيلة فى أن نخدع الحكومة عن أنفسنا . ونجرى هذه الألسنه الصناعية كلاما نلفف فيه آراءنا تلفيفا ، ونخفيها فيه إخفاء .

وما أحسب أن التلميح والتعريض والتوريه والكنايه والإشارة استعملت فى عصر من العصور الأدبية كما استعملت فى هذه الأعوام الأخيرة . وكانت لصحف تشاركنا هذا المكر أحياناً . وربما أبت علينا فمكرنا بها كما كنا نمكر بالحكومة وأجرينا على ألسنتها ألغازاً نفهمها نحن ويفهمها قراؤنا ، ولا تكاد هى تفهم منها شيئا . وكنا نقول للصحافة والرقابة ولعيون لحكومة وجواسيسها أن هذا كله أدب خالص لاشأن له بالحياة الواقعة ولا يتصل بسياسة الحكم من قريب أو بعيد (١) »

وفى هذا اللون تقرأ أحلام شهر زاد ، وتقرأ مرآة الضمير الحديث وهذا اللون من أدب طه يعطينا صورة الأديب الذى يؤمن بالمجتمع ويتصل به ولا ينفصل عنه .

« لا أفهم البرج العاجى ولا أحبه للشخص الذى يحترم نفسه ووطنه ، ولا أفهم أن يرى المفكر اعوجاجا ثم لايحاول تقويمه أوخطأ ثم لايحاول

طه حسين — الاهرام — ١١ — ١ — ١٩٥٠

تصحيحه سواء كان هذا فى الحياة الاجتماعية أو العقلية أو السياسية .» وطه يؤمن بأن الأديب لا يمكن أن يعيش فى عزله عن المجتمع لآن الأدب ظاهرة إجتماعية لا تمكنه من أن يعيش بنفسه ولنفسه .

* * *

ويمثل مراحل تطورات طه حسين صورة واضحة للقلق النفسى الذى يعيش فيه ذلك المفكر الحر وهو يؤمن بأنه يختلف عن الناس ، فقد جرت العادة أن يتغير الناس كلما ارتفع بهم السن فينتقلون من الشمال إلى اليمين ويتطوون من الثورة إلى الاعتدال . أما هو فكان على العكس من ذلك . بدأ يكتب فى السياسة مع المحافظين ومن قبل مع حزب الأمة ولطفى السيد ، ثم مع عدلى وثروت وضد سعد زغلول ، ثم تطور إلى الشمال وفى ١٩٣٢ وجد الأحرار الدستوريين والسعدين وقد ائتلفا وكان يفهم أنه يكتب معهما ثم بغى الأحرار على السعديين مع الوفديين وهنا تحول إلى الوفد . ثم مالبث أن وجد الوفد محافظاً أكثر مما ينبغى ورأى نفسه أشد تطرفا من الوفد .

وتغير فيه شىء آخر هو تصورة للنقد فانتقل من نقد الألفاظ إلى النقد العام ، وايه ذلك نقده للمنفلوطى فى أول الشباب . ورأية فيه بعد ذلك حين رد إليه فضله وأثره.

* * *

أنشأ طه حسين فنوناً من الأدب(١) أنشأ الأدب الإسلامى على صورة القصة الأوربية « الميثولوجيا » فكان لوناً جديداً غير مسبوق ثم اضطرته الاحكام العرفية ، وضغط الحكومات الحزبية إلى إنشاء لونين آخرين ، ظهر أحدهما

---

(١) يقول طه حسين (رأيت الذين يدعون إلى القديم مثل الرافعى والمعارضون للقديم كجبران والريحانى • وكان إن توسطت وجمعت بين القديم والتحديث)

فى كتابيه جنة الحيوان ومرآة الضمير الحديث وظهر الثانى فى جنة الشوك وهى نقد للحياة على هيئة الحوار ومرآة الضمير الحديث رسائل وجهها طه حسين إلى بعض من يعرف فى أيام كان يحس أنه يمتحن بالخصومات ممن كانوا أقرب الناس صلة به .

فى هذه الفترة كان يحس دائما بأنه ممتحن بالخصومات ، وقد كانت أقوى هذه الأزمات سنة ١٩٤٨ ، كان فى أوربا ، وكانت كلماته تفوح برائحة الألم والسخط . وقد صور هذا فى كتابه رحلة الربيع « وكنت قد تركت فى مصر شراً ونكراً وإثما . وخرجت وفى نفسى شىء من شرها ومكرها وإثمها . إنى لظالم للحق ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التى تملأ جو مصر نقيقا .

وما الذى يمنعنى حين تثقل على عشرة الضفادع أن أنسل من بينها كما تنسل الشعرة من العين لأخلو إلى روائع القديم وأتعزى بجمال الأدب والفن والموسيقى عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين

... وفى نفس الكتاب « .. فنسيت مصر وأهلها ونسيت مكر الماكرين ولهوت عن غدر الصديق ، وعن جحود الجاحد . والنغم من حولى يملأ الجو قد أخذ نفسى من جميع أقطارها . وإذا أنا فى هذه الساعة القصيرة الحلوة كأنى أعيش مع إبنتى التى تركتها فى القاهرة ، ومع إبنى الذى أسعى إليه فى باريس»

وقد كان طه فى خلال رحلته تلك قد أزمع ألا يعود إلى مصر إلا حين تدعوه إليها . كانت مصر غارقة فى إحدى أزماتها السياسية العنيفة ، وقد كتب طه فى هذه الفترة كتابه « الوعد الحق » صور فيه أبطال الإسلام الذين عذبوا فى سبيل فكرتهم .

وصاح « توفيق الحكيم » صيحته وردد ما كان يملأ نفوس الناس ودعت الإذاعة المصرية عميد الأدب إلى مصر فعاد وهو أشد حباً لها . وحربا للطغيان .

فى حياة طه حسين ثلاثة . أوربا وأبو العلاء وحب . وهو متصل بهؤلاء الثلاثة دوما ، دائب الاتصال ، لا ينقطع ولا يتوقف . هو متصل بأوربا طول عامه ، متصل بأدبها وفكرها وآثار كتابها وشخصيات مفكريها وقادة الرأى فيها ، فاذا جاء الصيف ، اتصل بها إتصال حياه ، فقصد إليها وعاش بها ، وتنقل بين أرجائها « اعترف بأن الصيف هو أبغض فصول السنة إلى إذا أقمت فى مصر وهو آثرها عندى وأكرمها على إذا عبرت البحر أو الصحراء فرقيت الجبل فى أوربا أو فى لبنان ، ذلك إنى لا أطيق القيظ إلا فى جهد جهيد وعناء شديد ومشقة شاقة تضيق به نفسى ويقلق له قلبي ويثعقد له لسانى .

فاذا عبرت البحر إلى أوروبا ، أو نفذت من الصحراء إلى لبنان فالصيف أحب فصول العام لدى وأثرها عندى ، وأخفها على نفسى ظلا لأن قمم الجبال تعفينى من القيظ فتردنى إلى نفسى وترد نفسى إلى وأنا مقبل على القراءة فى نهم لا أعرف له نظيراً فى الفصول الأخرى وإذا القراءة خصبه أى خصب لا أكاد أقرأ المجلة أو الفصل حتى تفتح لى أبواب من التفكير والحس والشعور وإذا أنا فى حاجه إلى أن أتحدث حتى أصحابى وإذا أنا فى حاجه إلى أن أملى حتى أشق على الذين يكتبون عنى والصيف يفتح لى خارج مصر فنوناً من التجارب ويدعونى إلى المشى حتى أتعب واتعب من معى .

ولست أعرف عاما خرجت فيه من مصر أثناء الصيف . وعدت فيه إلى مصر فارغ اليدين . وإنما أنا أخرج من مصر فلا أكاد أستقر هنا أو هناك . حتى يفتح الله على بكتاب أمليه أو بكتاب أعده فى نفسى لأمليه إذا رجعت .

والذين ينظرون فيما نشرت من الكتب يجدون أن أكثرها قد أرخ من قمة جبل أو مدينة من السهل الأوربى . أكثر كتبى بدىء أو أتم فى جبال الالب أو فى لبنان وأقلها بدىء وأتم فى القاهرة ( ) » .

وطه شغوف بباريس ، وشغوف بالجبل ؛ يكره البحر ولا يألفه «إذا تركت باريس فقلما أفكر فى سواحل البحر ، لأنى أكره البحر واجدفى جواره الما ومشقة لا أحتملها ، إلا أن أضطر إلى ذلك اضطراراً وقد أراد الله ان يلائم فى ذلك بين مزاج زوجى وابنى ومزاحى ، فنحن جميعاً نكره البحر ولا نطمئن إليه . ونحن نكره الإستحمام ايضا .

فأحب ضروب الراحة إلينا هو الإيواء إلى جبل معتدل الإرتفاع نتخير فيه فندقاً مريحا معتدلا رخيصاً كفندقنا فى باريس فنأوى إليه ، لا نبتغى إلا طعاما ملائما . وغابة قريبة نقضى فيها النهار او اكثره .. وفراشا وثيرا نقضى فيه الليل كله (١) وقد ظفر الأدب العربى بكثير من الفصول التى صور فيها طه حسين عبور البحر وايام المركب . « . اما سحر الليالى وما فيه من قصف وعزف ورقص ومناجاه ومناغاه فلست احدثك عنه لانى لا اذكر انى شهدته قط منذ تعودت أن أعبر البحر . اما قصاراى فى هذه الاسفار إذا فرغت من العشاء ان أصعد الى الجسر فاذهب عليه واجىء حينا مهما يطل فلن يتجاوز احراق سيجارة أو سيجارتين ثم اهبط الى حيث مضجعى فآوى إليه .

وانا لاأذوق النوم فى السفينة الا غراراً فما اطول ما يكون فى هذه الليالى الطوال بينى وبين نفسى من حديث . أهو حديث حلو ، أهو حديث مر .اهو مزاج بين الحلو والمر . است ادرى ! لست ادرى . ولكنى اعلم اننى احب هذه الليالى وآنس إليها اشد الانس لانى افزع فيها إلى نفسى ، ولانى اجد فيها من الحرية والخلوة مالا اجده فى مكان آخر ولافى زمان آخر(٢)

وفى رحلة اخرى بعد عشرين عاما يقول « وتلقانا حين خرجنا من ثغر

---

(١) « ألوان »

(٢) مجلة الجديد — ٢٨ يناير ٩٢٩'

الاسكندرية بحر يعلن الرضى ويسر السخط ويظهر الهدوء ويضمر الثوره وكان البحر ساكنا يتكلف السكون وساكتا يتصنع السكوت قد ابتسمت له الشمس المشرقة فغمرته باشعتها الحلوه الهادئه ورق له النسيم فداعب صفحته بانفاسه الفاترة اللينة وتلقى هو هذا كله متجهما متجملا لا يهش له الا فى قصد ولا يبتئس له الا بمقدار (١) وهو يتناول حديث نفسه كلما سافر إلى اوربا، « انا انسى أو أتناساها طوال فصل العمل فى مصر فاريحها واستريح منها فاذا أقبل الصيف أقبلت معه على فكان بينى وبينها حساب ما أشد يسره حينا وما أشد عسره فى إكثر الأحيان وما يكاد يتقدم الصيف أسابيع حتى أسامها وتسامنى وحتى انفر منها وتنفر منى وحتى افر منها إلى ألوان القراءة وضروب اللهو وتنكمش هى فتختبىء فى ناحية ضئيلة خفية فى نواحى الضمير »

* * *

ويتصل بحديث البحر فى حياة طه حسين ، حديث له جلاله وخطره هو يوم أن ركب البحر أول مره ، يوم أن ولى وجهه نحو الغرب « كنت اراني حين تركت مصر لاول مرة شيخا معمما قد صعد الى السفينة يتعثر فى أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التى قضت بها عليه عاهته التى حالت بينه وبين الضوء فلم أكد أصل إلى غرفتى حتى طارت العمة عن رأسي ولقد أريد أن أتذكر إلى أين فلا أجد إلى ذلك سبيلا . كل ما أعرفه إنى خلفتها حين دخلت الغرفة لم أدر إلى حال صارت ولو قد عثرت عليها لحفظتها تذكاراً باقياً ، ولوجدت شيئا من الحنان والحزن والأمل حين آخذ بين يدى ذلك الطربوش الكالح وتلك الخرقة التى ما أظن انها كانت يومئذ ناصعة البياض وخلعت الجبة والقفطان وانا علم إلى اين صارا . منحهما اخى هدية لسيدة كان يألفها فى فرنسا ولست ادرى ماذا اتخذت منهما ودخلت فى هذه الثياب الأوربية فكم ضقت بها وكم ندمت على جبتى وقفطانى

(١) — الاهرام صيف ١٩٤٨

طوال الأسبوع الذى قضيته على ظهر « اصبهان » رحمها الله فقد هوت اصبهان إلى قاع البحر وعبث الموج بأجزائها كما عبث بأجزاء عمتى فى اكبر الظن(١) »

* * *

والشىء الثانى هو « أبو العلاء »

أحب طه حسين شيخ المعرة وأعجب به ، وجعل رسالته الأولى عن حياته وأدبه . فقد قرأ له كل ما كتب . وقرأ كل ما كتب عنه . . ثم لم يدعه بعد ذلك ، بل ظل يتناول شعره وأدبه ، المرة بعد المرة . . كان يجد فيه تعبيراً عن نفسه ، وكان قد ربط بينهما ذلك الشعور الأدبى الفلسفى ، وهذه الآفة التى قربت بينهما وهو يصور اندماجه مع أبى العلاء فى هذه الصورة الرائعة ..

«لم أكد أبلغ مدينة نابولى وأنفق فيها يوماً وبعض يوم حتى خرجت للتروض مع أسرتى على سواحل هذه المدينة . وبينما كانت زوجتى وإبناى وصاحبى ينظرون إلى البحر والسماء وإلى الجزر والربى . وإلى هذه المناظر الكثيرة المختلفة التى كانت تحدث لهم متعة . وتطلق ألسنتهم بالإعجاب وتثير نفوسهم وتسحر قلوبهم . كنت أحس هذه الطبيعة التى لم أكن أراها ولا أتصورها ولا أعرف لها كنها تدنو منى قليلا قليلا ، ثم تنفذ إلى نفسى ، ثم تملأ قلبى رضاً وأملا وحباً للحياة . وبينما كانوا يتحدثون عما كانوا يرون . ويتواصفون بما كانوا يشهدون ، كنت أنا أدير فى نفسى حواراً بينى وبين أبى العلاء موضوعه الرضا عن الحياة والسخط عليها والابتسام لها والضيق بها .

وكان الجو من حولى صافياً مشرقاً عطراً . ولم تكن الطبيعة تتحدث إلى بلسان واحد أو لغة واحدة وإنما كانت تتحدث إلى بألسن مختلفة ولغات متباينة . كانت تتحدث إلى بعبيرها الذى كان يملأ الأرجاء وبطيرها الذى كان يستقبل الليل بأعذب النغم وأشجاه ، وبهذا الهدوء الشاحب الحزين

---

(١) فى الصيف .

الذى يلم بالحياة والأحياء إذا آذنت الشمس بالمغيب وبابتهاج الناس لما يجدون من جمال وباتئناس الناس لما يشعرون من حزن .

وكنت أسمع هذه الأحاديث كلها فأشتد على أبى العلاء فى اللوم وأعنف عليه فى العذل . وأقول له : إن أيسر هذا خليق أن يرضيك مهما يبلغك مشوهاً ممسوخاً وأن شىء خير من لاشىء (١). . »

فصله طه حسين بشيخ المعرة ، ليست صلة ذلك الطالب الذى قدم رسالته عن شاعر المحبسين ، وإنما هى صلة بعيدة الجذور ، عميقة الأثر فى النفس . فأبى العلاء يرسم أصداء نفس « طه حسين » فى هذا التشاؤم وفى هذه الشكوك وفى هذه الآفاق الواسعة وفى نظراته العميقة إلى الحياة والناس والأحداث .

ولا يمنع هذا من أن يكون طه حسين قد هاجم أبى العلاء فى أول الأمر فان الاراء فى الشباب الباكر لا تأخذ عادة طابع اليقين وإنما تقوم على أساس الظواهر ، تدفع إليها النفس المتطلعة إلى المجد الراغبة فى الاندفاع .

* * *

والأمر الثالث الذى يعرف به « طه » هو حبه . . هذا « الحب » الذى يرسم صفحة رائعة فى حياة هذا الكاتب العظيم الذى يعد نفسه مديناً بما وصل إليه من مجد .. إلى ذلك الإنسان .

« كانت صديقتى أستاذاً لى ، عليها تعلمت الفرنسية . وفقهت ما أستطيع أن أفقه من أدبها . وعليها تعلمت اللاتينية . واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس . ومعها درست اليونانية ، واستطعنا أن نقرأ معاً بعض آثار أفلاطون . على أننى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس بينى وبين صديقى إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق . ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى . وما أظن أنك تطمع منى فى أن أصور لك ما كان يثير

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه .

هذا الحب فى قلبى من عاطفة وما كان يذود عنى من نوم . وما كان ينغص على من راحة . وما كان يضيع على من درس . »

* * *

« كانت حلوة لذيذة تلك الأيام السعيدة من بورسعيد ونابولى آخر سنة ١٩١٥ . لم أكن قد دفعت إلى العودة إلى فرنسا حيث باريس وحيث تلك التى لم تكن قد جاوزت العشرين من عمرها والتى فارقتنى فى مونبليه أول الصيف على أن نلتقى فى باريس إذا أقبل الشتاء ، أكان ما أحمل لها فى قلبى حباً ، أم كان مودة خالصة ، أم كان شيئاً بين ذلك لم أكن أتبينه حينئذ ، وإنما تبينته بعد ذلك بشهرين كاملين .

وكان أحلى من ذلك وألذ ، ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى باريس ، بل تلك الساعة التى طرق فيها باب غرفتى ، ثم فتح ، ثم أقبل على شخص فصافحنى فى قوة ومودة وصراحة ، وجلس إلى ساعة يسألنى وأسأله ويجيبنى وأجيبه . ثم افترقنا على أن نلتقى من غد فما افترقنا منذئذ يوماً ولا ساعة ، ولا بعض ساعة إلا أحسست — شهد الله — فى نفسى ألم الفراق وشوقاً إلى اللقاء(١) »

وهو يحدث ابنته فى بعض حديثه فى الأيام (٢) عن قصته ويصور فضل هذا الحب ، وأثر سوزان .. « فاذا سألتنى كيف انتهى أبوك إلى حيث هو الآن . وانتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فلست أستطيع أن أجيبك . إنما هنالك شخص آخر ، هو الذى يستطيع هذا الجواب . فسليه ينبئك . أتعرفينه . أنظرى إليه . هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك . لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما . ومن اليأس أملا . ومن الفقر غنى . ومن الشقاء سعادة .. »

---

(١) فى الصيف . (٢) الجزء الثانى من الأيام

وفى عبارات حارة .. هنا وهناك تحس هذه النفس المحبة الصادقة الحب
« .. إن قلبى ليملؤه البر ، ويغمره الحنين حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين
فيه أثناء ذلك من حث لى على الراحة . ورغبة إلى فى الترويض . وإلحاح على
فى الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فى جبال الألب . وما كنت ألقى به
عطفك من إباء وإعراض .. »

ويمضى طه حسين فى حياته ، ويمضى معه هذا الحب قوياً .. صادقاً
ممتداً .. على الأيام .

* * *

وقصة طه حسين ذاخرة ، إنه من الكتاب الذين لهم حياة ، ولكنه
كتب هو هذه القصة للناس وأرسلها فيهم . وصور لهم كيف جاء القاهرة
فى سن الثالثه عشرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر « كان نحيفاً شاحب
مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى . تقتحمه العين اقتحاماً فى طاقيته
التى استحال بياضها إلى سواد قاتم ...

وصور كيف كان ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً
واحداً يأخذ حظه منه فى الصباح ويأخذ حظه منه فى المساء .. « يعيش على
خبز الأزهر وويل للأزهريين من خبز الأزهر » ويغمس هـذا الخبز
فى العسل الأسود .

* * *

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيئة الجريدة والجامعة . « فتنت هذه البيئة ، كما
فتن غيرها من شباب الأزهر — بالجريدة لأنها كانت تصور لوناً جديداً من
ألوان التعبير . لم يكن مألوفاً فى المؤيد المحافظ ولا فى اللواء الذى كان يلتهب
وطنيه . وإنما كان فيه شىء من اعتدال واستقامة فى التفكير . وكانت فيه

بنوع خاص نفحه من التجديد حين كان لطفي السيد يتحدث عن مونتسكيو وفولتير وروسو وجول سيمون .

وكذلك التقى الشباب الناشيء بعضهم ببعض . فأخذت الأسوار تنهار بين العمائم والطرابيش . التقوا بالشباب الناضج والكهول والشيوخ من أعلام الحياة المصرية على اختلاف فروعها فأخذ دم جديد فى جيل من المصريين(١) » .

* * *

هكذا بدأ ، ثم مضى فى طريقه ...

إنه يرى هذه الفترة من تاريخ مصر ، فترة خطيرة « أشبه بمنحدر مرتفع ، قد ارتقت إلى قمته جماعة من أعلام الحياة المصرية ، وجعلت جماعة أخرى من الشباب تصعد من أسفل هذا المنحدر تصعيداً يختلف قوة وضعفاً وبين هذه الجماعة من يصعدون تصعيداً سريعاً وبينهم من يصعدون تصعيداً فيه شىء من البطء والاناة . وكان هؤلاء الذين وصلوا إلى القمة ينظرون إلى هذه الجماعة الناشئة المصعدة نظرة فيها كثير جداً من الرفق وفيها كثير جداً من الحب والتشجيع .

... وكان على هذه القمة من هؤلاء الأعلام جماعة لا أظن أنها تضيق إذا ذكرت الآن أو سميت بعض أعضائها . كان على هذه القمة أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى(١) .. »

أحب كتابين إليه القرآن . واللزوميات . وله هوايتان . الأدب القديم والموسيقى « أما الموسيقى فانى أنصرف إليها عشية كل يوم فأجلس مع زوجتى حول الجرامفون نصغى إلى تصانيف من الموسيقى الكلاسيكية الغربية . فهى

---

(١) من مقال « بعض بيئاتنا الادبية » فى المصور .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٥

غذاء الروح أى غذاء . ومتعة النفس بعد ساعات العمل المضنى . فالذهن لا يصفو إلا على أنغام الموسيقى .. »

وهو يكتب فى كل وقت . ليس من الكتاب الذين لهم وقت معين أو مكان خاص . وقد يفرض عليه أحد كتبه فرضاً ، فيصبح ملزماً به ، يختلس أوقات الطعام اختلاساً . ويقطع الصلة بينه وبين من حوله وأحياناً يكون غاية فى الألم الجسمانى ، ولكن الأفكار ما تلبث أن تلح عليه فلا يستطيع أن يدفعها .

* * *

وقد عرف طه بالإصرار على الرأى وعرف بالوفاء ، فى طبعه الثورة الأزلية الكامنة ضد الجمود « يزدرى التقاليد ويهشم الحواجز ، ويتمرد على المألوف ، لا يبالى أعجب الناس أم سخطوا ، أم نقموا ، ويقول عن نفسه : « إنما أنا قلق دائما ، مقلق دائماً ، ساخط دائما ، مثير للسخط من حولى .. »

وعاطفة الرحمة والوفاء تتدفق من قلبه الكبير . إنه ما زال يذكر أخاه الذى فقده منذ خمسين عاما ، وما يزال حتى اليوم يراه فى المنام « ذلك الذى ينام هناك وراء النيل »

وحين تحدث عن « أمه » كتب أبرع صور الوفاء « .. ويظهر أنه لم يحب أحداً بلا قيد ولا شرط كما أحب أمه الغالية ، ولم يثق بأحد كما وثق بقلبها الرقيق(١) .. »

وتحدث فى إثارة عن الشمسى وثروت وعدلى بأسلوب غاية فى الوفاء والحب ، وهو يوفى لصديقه عبد الرحيم محمود فيقول : « لعلى لا اعدو الحق إذ قلت إنى مدين له بأحب كتبى إلى نفسى وأثرها عندى وهو ذكرى

---

(١) زكى مبارك .

أبى العلاء . وكل ما كان يمكن أن يقرأ عن شيخ المعرة من المطبوع والمخطوط.
كان يقبل على دارى مع الشمس وينصرف عنها حين تغمر القاهرة ظلمة الليل
وكان يقرأ على شعر ابى العلاء ونثره متغنياً فيهما مترنحاً بهما ، فلما فرغنا من
القراءة جعلت أملى وجعل يكتب . وما هى الآن يقبل شهر ابريل سنة أربعة
عشر وتسع ومائة وألف حتى كان بين أيدينا كتاب ذكرى أبو العلاء تقدمت
به إلى الجامعة ونلت به درجة الدكتوراه ولم أذكر أنا عبد الرحيم ولم يذكره
الذين منحونى تلك الدرجة . ولم يذكره الذين احتفلوا حينئذ بأول من تخرج
من الجامعة » .

* * *

بدأ حياته الفكرية بثورة « الشعر الجاهلى » وبأحاديث الاربعاء وكلها
تدور حول العلم والبحث العلمى :

ثم لم يلبث طه أن تحول الى الادب الوجدانى . إلى رسم صورة حياته

ثم انتقل إلى السيرة فبدأ يكتبها على هذا النحو الجديد .

وكان لا بد أن يصل طه الى هذه المرحلة من الاستقرار تجاه اللون الذى
يمثل شخصيته وطبيعته . ومذهبه فى هذا هو ماسجله فى مقدمة كتابه على هامش
السيرة ... وهى أن تكن أساطير يضيق بها العقل ، ويا ياها المنطق فليس
العقل فى الادب كل شىء وليس العقل فى الحياة كل شىء .

ثم لا يلبث طه أن يجمع بين هذا اللون القصصى وذلك اللون العلمى حين
يكتب عن عثمان وعلى فقد تناول المادة التاريخيه تناولا فنياً فصاغ منها هذه
الصورة الممتعة .

وقد كون فيه هذا الاتجاه الأصيل ماقرأه فى مطلع شبابه من قصص الأساطير
فى الأدب العربى من سيف بن زى يزن إلى الأميرة ذات الهمة ثم دراسته
للأساطير اليونانية وحياة الهه الأولمب .

وقد أحب طه اليونان ، وهو يرجع نزعته هذه إلى رواية ألفها الشاعر أحمد شوقى واسمها « ورقة الآس » .

ومن حياته فى الريف ، والرؤى المذخورة فى أعماقه كتب دعاء الكروان. وشجرة البؤس .

ولا يستطيع مؤرخ طه حسين أن ينسى فصوله التى كتبها فى الأهرام صيف ١٩٤٨ « ضمير البحر . الطبيعة الساخرة . الحرية الحرة . بين مؤتمرين»

* * *

وأبرز ما يتميز به طه أنه لم يهجر الأدب يوماً ، ولم تحل الأحداث بينه وبين هذا الفن الذى أحبه ، كما فعلت مع غيره ، وفى السنوات التى ولى فيها وزارة المعارف ، كانت له قراءات متصلة . « ومع أن الوزارة صرفتنى عن القراءة فى كتب القدماء فهى لم تصرفنى عن القراءة فى كتب المحدثين . فقد مضيت فى هذه القراءة الحديثة التى خصصت لها دائماً ساعات الراحه من النهار »

.. وهو لم يرض عن نفسه وزيراً ، فقد كانت طبيعة الأديب تغلب عليه وتدفعه إلى طريقها . . « ومالى لا أنسى الوزارة وقد لقيت فيها عناء وشقاء. وما رضيت فيها عن نفسى قط وإنى لأشقى الناس حين أرضى عن نفسى ، فما يرضى عن نفسه إلا رجل قد فرغ من الحياة أو فرغت منه الحياة . . »

وهو بطبعه لا يحب كلمة الغد « . . أبغض شىء إلى أن أحاول تعرف ماسيكون عليه أمرى فى غد . أنا لا أفكر إلا فى أمس وفى اليوم . وتفكيرى فى أمس أكثر من تفكيرى فى اليوم..

و . . إنما أحب الكتاب أثناء كتابته ثم يكون أبغض شىء إلى . وكتابى ملكى ما دمت أمليه ثم لا أعرفه . . »

* * *

ولعل طه من أكثر كتابنا أثراً وذكراً فى الأدب الأوربى . فقد تناوله مؤرخو الآداب الحديثة بالدرس وترجموا آثاره . وكان آخر هذه المحاولات

كتاب رونالد روبنسون الذى كتب عنه من بين « أهم مائة رجل فى العالم اليوم(١) » .

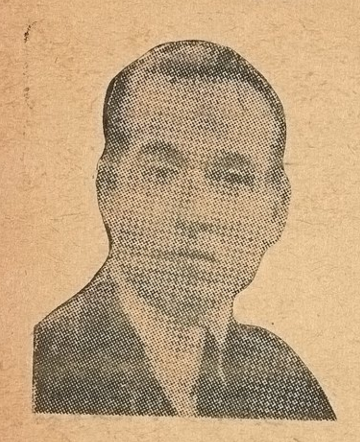
ولا شك أن طه حسين من أجرأ كتابنا ، وأشدهم حماسة وثورة . وهو غاية فى الجرأة حين رسم حياته وكشف عنها على هذه الصورة الرائعة . . وكان أقسى المصارعين فى ميدان السجال بين القديم والجديد . وأزمات الشعر الجاهلى . وعهد صدقى ، وعهد إبراهيم عبد الهادى ، كلها حلقات متصلة من الصراع . .

لقد أصدر طه حسين عدداً من الكتب والآثار وكلها حلقات من تاريخ ذاخر متصل . متجدد . فيه ذلك القلق . وذلك الطموح . وتلك النفس الراغبة إلى أن تفاجىء الناس بالجديد . وتهدى إلى الثقافة والفكر آثاراً حية خصبة رائعة ، وتقدم إلى المثقفين فى الشرق اقباساً متوالية من ضياء الحكمة والحرية .

---

(١) سنة ١٩٥٣ م

محمود تيمور



ولد فى العقد الأخير من القرن التاسع واستشرف مطالع الشباب والنضج فى الوقت الذى وضعت فيه الحرب أوزارها ، وتفتحت معالم روحه وحاسته الفنية فى « بؤرة » الثورة المصرية . وقضى أيام شبابه بين درب سعادة . وعين شمس . ونشأ فى بيئة كلها ورق وأدب وصحف وشعر .. حيث كان والده « أحمد تيمور » يعقد صالونه ومن حوله أقطاب الرأى وقادة الفكر . .

ورأى عمته عائشة التيمورية واستمع إليها وقرأ لها . وشاهد « محمد تيمور » وهو يتطلع إلى المجد .

مرض فى أول شبابه « بالتيفوئيد » فلزم فراشه ثلاثة أشهر ، فكانت فترة حضانة لأفكاره واتجاهاته . فتحت له أبواب المطالعة والدرس ، وأتيح له أن يعرف « موباسان » ويحبه ويتعشق آثاره فيتعقبها « فما لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية طور جديد فى حياتى الأدبية نقلنى من دور التردد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلمام والهوادة فى التحصيل إلى دور الجد فيه والاستيعاب(١) . . »

---

(١) المصادر التى ألهمتنى الكتابة — كتاب « شفاء الروح » .

ثم سافر تيمور إلى أوربا ، وأمضى فترة تزيد على العامين بين سويسرا وباريس . فكان هذا من العوامل البعيدة الأثر فى تكوين شخصيته «تفرغت للقراءة واتصلت بالأدب الأوربى أقرب اتصال ، وطالعتنى أثناء إقامتى هناك مرئيات ومناظر هزت نفسى وتغلغلت فى صميم قلبى . كما أن خبرتى بالحياة ومعرفتى لها قد اتسعت وتنوعت ، فكان لهذه الحياة الجديدة التى عشتها هناك أثر لا ينكر فى تطور تفكيرى . . »

وثمة شىء آخر ، كان له أثره فى تكوين شخصية محمود تيمور . ذلك هو المرض . لقد تألبت على الأمراض منذ الطفولة « وأذكر بالخير طبيبى الأول فقد كان يجمع بين الطب والطيبة ، أى بين العلم والصداقة ، فلم يكن يداوى الجسم وحده ، بل يداوى معه النفس . كان طبيب الطفولة هذا رجلا نحيفاً ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدرى لماذا يخطر ببالى كلما شاهدت صورة « دون كيشوت » هذا الطبيب أو بالأحرى هذا الصديق .

. . منذ الصغر والعلل تتردد على حتى ألفتها الآن وأصبحت غير غريبة عنى . منذ سنين طويلة . وأنا فى رقابة الطب فى مأكلى ومشربى ، وفى نومى ويقظتى .. وهكذا كنت أحس فى أعماق نفسى بنقص يحتجزنى عن الاستمتاع بما ينعم به غيرى ، هذا النقص يدفعنى ولا يزال يدفعنى إلى أن استكمل فى الخيال ما عجزت عنه فى الوقع(١) .. »

هل كان هذا المرض القابع فى الأمعاء ، بعيد الأثر فى شخصية محمود تيمور وأدبه .. « أنا أحرص أول ما أحرص على ألا يعكر صفو هذا الجو ذلك المعكر الأعظم .. وأعنى به المرض الذى اتخذ معدتى محلا ممتازاً له يبعث إلى منه بمعاثباته النكدة ، فلا يعنينى حين أجلس إلى مكتبى أن أتفقد القلم والقرطاس بقدر ما يعنينى أن أتفقد أعوانى الأمناء من علب وحقاق

---

(١) شفاء الروح .

وقوارير . فهذه علبة الإسبرين ، وهذا حق الميكربونات ، وتلك قارورة النعناع . . »

ومع ذلك فأنت حين تطالع آثار محمود تيمور تجد صورة من الهدوء المطبوع ، والعاطفة الخصبة ، والبساطة الواضحة .

تقرأ له فترى روح البشاشة والفرح والمرح ، تكاد تنتظم أدبه جميعه روح التفاؤل والإشراق ، فلا انطواء هناك ولا تعقيد ولا تشاؤم . . تجد عنده التفاؤل بالأشياء والطبيعة والناس ، وتجد عنده الأضواء المشرقة لا الظلال القاتمة .

وتبدو « حياة » تيمور هادئة مطردة من وراء أسلوبه وفنه ، وليس بها مغامرات أو فجوات ، ويبدو هو شديد الحيوية ، ذاخر المشاعر ، يسكب نفسه على الورق فى صراحة ووضوح .

وأنت ترى أناقة ملبسه حين تطالع أسلوبه الأنيق ، ولكنك لا تلبث أن ترى روح « الشعبية » واضحة ، فيخيل إليك أنت ترى تيمور وهو يختلط بالحياة ويشاهد ويسمع ويتأمل ..

لا يضع تيمور على عينيه منظاراً أسوداً حين ينظر إلى الحياة ، أو حين يرسم الحياة .. بل على عكس ذلك تماماً .. تراه مشرق النظرة يتوسم فى الحياة الضياء والنور والطلاقة ، ويرى أبهى جوانب الحياة : الحب والجمال .

« . . إن النزعة المسيطرة على الوجود هى النزعة الخيرة ، وأن بذرة الخير أصيلة كامنة فى تلافيف هذا العالم ، وهى التى تسير به دائماً إلى هدف معين ، هو منفعته ورقيه . وبذرة الخير موجودة فى كل الكائنات صغيرها وكبيرها . حقيرها وعظيمها .. فهذه الذرات التى يتكون منها جميع ما فى العالم من كائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض . وتسير حول نفسها فى حركات هى أوفى ما وصل إليه النظام والتناسق . أى أرقى ما وصل إليه

« الجمال » وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية ، أى بقوة « الحب » ..

* * *

وهو فى مجموع ما كتب رجل مثل عليا يحب زمهرير الحياة ، ويغرم بالصحراء ، ويحب الاجواء الهادئة الساكنة التى تعيش على الإنتاج و يذهب فى البلاد طولا وعرضاً ، يستقضى و يبحث و يتصفح الوجوه . يرى جمال الكون عند بحيرة « ليمان » وشامخات العمائر و ناطحات السحاب فى نيويورك ويستمع إلى هدير الأمواج الصاخبة عند شلالات « نياجرا » ويستشف روعة الطبيعة فوق صخور لبنان فاذا دخلت « صومعته » أو حرمة المقدس طالعتك التماثيل الثلاثة التى استوحى منها قصصه « فرعون الصغير ، بنت الشيطان ، إحسان لله .. » وهو معجب بهذه التماثيل ، مشغوف بها ، وهو يربط بين قلبه وفنه بوشائج عاطفة صادقة حين نقول « ربما كان حكم الكاتب أيسر مثل نضربه ، فيه يتبدى ذلك الضرب من إحساس الفنان بالجماد فقد تتوثق الألفة بين الكاتب وقلمه فلا يبغى بديلا به ، وإن بلى فى يده » .

* * *

وتبدو حياة تيمور وليس فيها أحداث ضخمة ، أو مغامرات جريئة . إلا حين امتحنه القدر بفقد ولده الذى لا يحب هو أن يسميه .

لقد هز الحادث تيمور هزاً عنيفاً ، ولكنه استطاع أن يستمسك وأن يصد .. وكان من أثار هذا المصاب كتاب خالد هو « أبو الهول يطير » حيث يبدو تيمور فى صورة الصوفى المؤمن .. حين يطلق نفسه من كل قيد ، ويصور الآمة فى حنان بالغ .

« .. لقد تطايرت من بيننا ، يا بنى ، كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سداداتها فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيباً تشيع فيما حولنا من أجواء .

أى بنى .. ها هو ذا كل شىء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدنا . لقد تزايلت أصوات الأحياء بما تحمل من تحية وتوديع وبقيت أنت . أنت الوحيد الذى مازالت أراه . إنك تملأ على الرحاب والآفاق . وإنى لأحس وجودك إحساساً كله صدق ويقين . حقاً أن الموت لأعجز عن أن يفرق بين حبيبين .. »

* * *

أعتقد أن « الرحلة والسفر » من أهم العوامل فى تكوين محمود تيمور الأدبى فهو قد تردد على أوربا فى خلال ربع قرن مرات متعددة . وتركت فى نفسه ، جبالها ومناظرها وجمالها أثاراً لونت قصصه وأثاره .

« جلسة رخية تجاه بحيرة ليمان .. فى لوزان .

اتطلع إلى هذا المشهد الخلاب الذى يتألق لعينى تحت أشعة الشمس وأرى القرى تتناثر على الشواطىء ممددة فى صعودها على سفوح الجبال ، تكتنفها المروج والغابات .

لبحيرة ليمان خصائص عجيبة ، إنها متحولة متبدلة ، لا يستقر لها حال فهى تتشكل وتتلون وفقاً للجو فى تطوره واختلافه . هى فى بواكير الشروق غيرها فى وهج الظهيرة .

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الأصيل .

وكأنما هى تخلق خلقاً جديداً حين تنسدل أستار الظلام أو تتكاثف أطباق الضباب .. »

وفى الاقصر ، وفى نيويورك ، وفى باريس ، وفى لبنان تجد محمود تيمور متأهباً ليسجل خواطره .. يقول « لم أر منظراً بديعاً وقعت عليه عيناى إلا وضعته فى مذكراتى وأنا نشوان به . ولطالما جذبتنى زوجتى من يدى وقالت لى : « لقد جئنا للترويح عن النفس لا لكتابة المذكرات » .

يقول محمود تيمور أن الشخصية التى أود أن أكونها وأن أعيش حياتها هى شخصية « أمين بك » الملقب بالمملوك الشارد ..

حسبنا أن نتأمله هائما فى مزدحم الحياة يجالدها وتجالده وتدفع به أمواجها صاعدة هابطة . وهو منتعش بذلك الذى أصابه دون سواه فى تلك النكبة العارمة التى لم تبق من زملائه ولم تذر ولعل ما حببه إلى وأغرمنى به ، هو تلك الصورة الغامضة التى اختتم بها حياته . صورة الفارس الجسور الذى كان له وحده دون زملائه المماليك جميعاً حظ الإفلات من منجل الموت الحاصد» .

* * *

وأحب كتب محمود تيمور إليه هو « أبو الهول يطير » .. « فقد أحسست إننى أكتبه بدمى ، وأنا أودعه شعورى الصادق عن رحلتى إلى أمريكا .. »

أما القصة التى يجب أن يكتبها فهى قصة النيل « بوصفه آلها من آلهة الأساطير . فان قصته خالده شبت مع الزمن وستبقى إلى الأبد » .

* * *

لا تعطينا آثار « محمود تيمور » شيئاً واضحاً عن حياته الوجدانية ولعل طبيعته المعتدلة الهادئة ، جاءت على نفس النسق فى العاطفة أيضاً فلم يكن من ذوى المغامرات أو الذين أحبوا حباً من ذلك النوع العنيف الحاد ولكنه يؤمن بأن المرأة ملهمة للأديب والكاتب «المرأة ملهمة الأديب والفنان فى كل مكان ، فكيف يشذ الأمر فى مجتمعنا المصرى . وأن البحث الدقيق فى حياة الأدباء والفنانين ليكشف عن جوانب فيها للمراه وحى وتأثير خاص أو عام . والأدب فى خصائصه وظواهره يختلف قبل خروج المرأة إلى مجالى حياتنا الاجتماعية عنه بعد خروج المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة ، فقد اتسم الأدب فى الماضى بالحرمان والكبت والتظاهر بالتحشم والتوقر اما الآن فيتسم بالحرية والصراحة والانطلاق ، فهو اليوم أدب سفور ، للمرأة فيه تأثير إيجابى ، وكان بالامس أدب حجاب ، للمرأة فيه تأثير سلبي . ومن هذا

يتضح أن الادب متأثر بالمرأة على أية حال(١) » .

ويسير على نفس نهجه فى الاعتدال حينما يؤمن بالزواج ويرى أنه ضريبة الحياة « على الشباب أن يبادر إلى الزواج متى كان فى مستطاعه أن يتحمل تكاليف الاسرة ويضطلع بما لها من تبعات فتلك هى ضريبة الحياة وذلك هو الحجر الاساسي فى بناء المجتمع .. »

وهو مؤمن بأن الزواج لا يحول دون المجد « وليس يحول الزواج دون المجد ، وربما أعان عليه » .

وهذا كله يعطينا صورة من رجل سوى الخلق . سليم الرأى فى الحياة الاجتماعية . لم يعتزل الجياة الزوجية . ولم يندمج فى التجارب العنيفة . وبقى على اعتداله وبعده عن الإسراف .

* * *

بدأ محمود تيمور حياته بقراءة ألف ليلة ، وجيران . وعيسى بن هشام وصدرت « زينب » أول باكورة قصصية مصرية فأعجب بها .. ثم اتجه إلى موباسان وتشيخوف وتورجنيف ..

وهنا أنتج أول إثارة سنة ١٩٢٥ « الشيخ جمعة » و « يحفظ فى البوستة » وفى خلال ربع قرن تحول اتجاه محمود تيمور القصصى وتنوع .

تحول من القصة القصيرة، إلى الطويلة. ثم إلى المسرحية ومن الواقعية إلى التحليلية .

ويقول نقاده أن قصة « الأطلال كانت ثغره بين مرحلة الواقعية ومرحلة السيكولوجيه(٢) .

ولعل تيمور قد رسم فى قصة الاطلال صورة حياته فى مطلع شبابه حينما تدفع الثورة الكامنة المتأججة ، إلى الخروج من حالة القلق والحيرة إلى عالم

---

(١) فى حديث مع المؤلف : الصباح ٢٧ - ٣ - ١٩٥٣ .
(٢) محمد ابن حسونه

الجسم وجحيم الشهوة(١) ؛

ويقول تيمور أنه يقرأ المقالة أو القصة أو الخبر فى إحدى المجلات فتكون نتيجة ذلك أن يخرج بموضوع جديد لقصة جديدة .

وهو لا يكف فى سبيل فنه عن الإتصال بالمجتمع ، التغلغل فى أعماقه ، وقصة « عم متولى » استوحى الكاتب موضوعها من مشهد لفت نظره أثناء جولاته فى أحد الأحياء الشعبية لرجل يبيع اللب والفول السودانى

ويقول الدكتور طه حسين أن محمود تيمور «يصدر عن طبيعته دون تكلف . فإذا لم تجد فى قصصه هذا اللون أو ذاك ، فإنما هو يستجيب لطبيعته الهادئة المتحرزة الوقورة ، التى عاشت فى كنف التقاليد ورعاية الأرضاع ، وبعدت عن النزق والاندفاع فى شبابها وراء المطامع والأهواء . وهى إذا اتجهت نحو الحب أو الإعجاب بالجمال ، فإنما تدخل هذا الباب مستأنية مترفقة متوقرة .. أو قل متحفظة »

* * *

ومحمود تيمور فى آثارة الأخيرة ، فى فترة استكمال أدوات الفن ، وتبلور الصور والمعانى ، والوصول إلى السن التى يعرف الكاتب فيها معالم طبيعته « يتخذ منحى التحليل النفسى المستفيض للكشف عن البواعث الخفية التى تدفع بالأبطال إلى مايقومون به من أعمال دون الوقوف عندما يبدو من الأسباب الظاهرة لهذه الأقوال التى تجرى على ألسنتهم أو التعليلات التى يتذرعون بها لتبرير مايقومون به »

وبدأ فى قصصه اليوم « اليوم خمر » و« حواء الخالدة » ياتهم الأجواء التاريخية دون أن يتخذ من مادتها أو أساطيرها دعائم قصصية .

ومن التاريخ الإسلامى « ابن جلا » وعنتره وهو فيها « يستجلى بواطن

(١) أمين حسونة .

هذه الشخصيات ويصور نفسياتها ويعلل تصرفاتها وينتزع منها نماذج إنسانية حية بغرائزها الخالدة »

«وهو يستجيب إستجابة طبيعية لما يجرى حوله ، وقد ضمن مسرحياته ألوانا من هذه الإستجابة القوية ، وقد أوحى إليه العهد السياسى البائد فى مصر مسرحية عنيفة هى « المزيفون » صور فيها الحالة العامة قبل الثورة الحاضرة »

وفى مسرحياته «كدب فى كدب ، أشطر من إبليس ، قنابل» صور جوانب من المجتمع وحلل طبائع من الناس على وجه يدل على كفايه واضحة فى فهم السرائر والشمائل .

أحمد حسن الزيات



أخرجته المنصورة بلد الشعر والجمال، وتفتح شبابه على ضفاف النيل، حيث تغدق الطبيعة فى العطاء، وتنثر العطر والندى فى طريق الفن والشعر.

وكان فى الأزهر أحد ثلاثة أقاموا مدرسة التمرد على القديم « طه حسين — الزيات — محمود زناتى »

وخلف الأزهر غير نادم، وتعلم الفرنسية، وسافر إلى فرنسا سنة ١٩٢٥ حيث درس القانون والآداب.

ومن جمال المنصورة وبلاغة الأزهر وثقافة الفرنسيين بزغ أدب الزيات ناعما هادئا.

وبدأ الزيات حياته مدرسا ١٩١٧ وقد طال اتصاله بالتعليم إلى أن أنشأ الرسالة سنة ١٩٣٢ وهو لم يتصل بالصحافة على غرار طه حسين والعقاد وغيرهما فلم يكن من طبعه هذا اللون من الصراع السياسى، وإنما كان أديبا تجرد

للأدب والحب والجمال وقد ترجم فى خلال هذه الفترة روفائيل وآلام فرتر ووضع كتاب تاريخ الأدب العربى .

وفى خلال فترة العشرين عاما ١٩٣٢ — ١٩٥٢ كانت « الرسالة » هى المجلة الادبية الاولى فى الشرق . ولها أثرها البعيد فى تطور الادب خلال هذه الفترة .

* * *

أبرز ما يأخذ بالبال أن « الزيات » رجل هادىء كالجدول الرقراق ، كلما اتصل قلمه بموضوع هادئا ، لاترى فيه الحماسة الفوارة ولا العصبية الهائجة ولا الجرأة الجريئة: لست أدرى هل السر فى هذا أن الزيات بدأ كتاباته هذه التى نشرتها الرسالة وجمعت فى « وحى الرسالة » فى سن مرتفع، فى حوالى الاربعين ، وهى سن تعطى الكاتب التركيز والاعتدال والرسوخ .

ولسنا ندرى لو أن الزيات كتب واتصل بالحياة وبأمور المجتمع قبل ذلك بعشر سنوات هل كان يبدو هادئا أم ثائراً .

لكن الذى يمكن القطع به أن الزيات هادىء بالطبع ليس راكداً أو آسنا ذلك أنه فى سن الخمسين وبعدها قد تناول الكثير من الموضوعات فحملها الكثير من الحماسة النابضة بالحياة بالرغم من الهدوء الواضح فى مظهرها .

ولكن الزيات إلى هذا كله لم يكن ثائرا ، ولم يكن من كتاب الأدب الانقلابى كطه حسين مثلا ولم يكن عنيف النقد كالعقاد وهو إلى هذا الهدوء معتدل . متزن . مترفق على أسلوب المدرسة الفرنسية وعلى طريقة الصالونات . . .

وإذا قلت أنه عاطفة متحركة فأنت لاتعدو الحقيقة أنه مفتون بالجمال ، تمتزج فى بيانه الروعه والجمال والحسن والفن . أنه هو الرجل الذى خلق مدرسة جديدة فى الادب تعنى باللفظ المونق والعبارة العالية . وهو الذى

جدد روح الادب العربى ، لقد بدأ حياته كما يبدأها أى شاعر بالحب وترجمة آلام فرتر ثم عندما بلغ سن الرجولة العاملة نقل الحب من الذاتية إلى الموضوعية يقول الزيات « لماذا ترجمت فرتر ؟ » فى ١٩١٩ كنت اجتاز هذا الحين. شباب طرير حذره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده واحساس مشبوب يتوقد بالجمال وقلب غريب يتحرق ظمأ إلى الحب فالطبيعة فى خيالى شعر وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال وزور نتائجه المثل الاعلى ثم فجر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادئ ولكنه ملح فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ وقلبى الصادى قد ارتوى وحسى الغائر قد سكن ورحت اسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى حتى ذكرنى الزمن الغافل فاقام فيه عقبة اصطدم الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة .

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا غير هاتيك الارواح وأحسست حالا غير تلك الحال . كنت اقرأ ولا أرى فى الحادثة سواى واشعر ولاأشعر إلا بهواى واندب ولا اندب إلا بلواى »

هذا هو « الزيات » فى شبابه حياة كلها حب وكلها عاطفة ولكن هل هو الحب الاول ...

لقد رسم الزيات صورة الحب الأول فى إحدى قصصه .

ذهبت منذ قريب إلى القرية فى شأن من شئون الاسرة وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديق نظره إلى مورد الماشية من الترعة ثم رده وعلى عينه الساجية جميع معانى التعجب .

وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام فنظرت حيث نظر فاذا امراة

فى اخريات الشباب تورد بقرتها الماء وقد اسدلت على وجهها الـكامد طرحتها السوداء . .

* * *

دع لى صورة الفتاة التى عرفتها واحببتها ، انها لاتزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفوله ناضرة كالصبى ساحرة كالشبيبه اما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب .

هذه قصة نور ، قصة الحب الاول

وبعد فما تزال للزيات فى ميدان الحب قصص

قصد إلى باريس فكتب القدر صفحة لا تقل وضاءه ولا جمالا .

عرفت فى باريس سنة ١٩٢٥ الآنسة « فرناند » ، ابنة احد القضاة فى محكمة ديمون وكانت طالبة بالسنة الأخيرة فى كلية الحقوق وكان لها بالمستشرق المرحوم كازانوفا استاذ الادب العربى الكوليج دى فرانس صلة قرابة أوصداقة فعرفنى إليها لتكون فى مدينة النور ماكانت بياتركس لدانتى فى جنة الفردوس

ادنيا الامتحان معا ثم ارسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها فزرنا معابد الطبيعة فى فنسين وسانكلو وفنتيلو وحججنا محاريب الفن فى اللوفر والاوبرا وفرساى وكنت يومئذ اترجم « روفائيل » فكان ماأقرأ وما اكتب وماأسمع وما ارى نسقا عجيبا من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق لايدع للخيال الوثاب مسبحا ولا للنفس الطماحة رغبة ثم حم الفراق فرجعت إلى مصر ولحقت هى بأهلها فى روبان وكان بينى وبينها بعد عودتها رسائل مسكية المداد وردية الورق تؤلف كتابا من شعر القلب والعقل

وعاد الزيات إلى مصر وسافر إلى بغداد وعاد إلى مصر فاستقر بها وانشأ الرساله ووصلته الرسالة بآلاف القراء والقارئات

وكنا نحس بين حين وحين بخفقه قلب ، هنا او هناك

ولعل قصة ضخمة عنى الزيات بكتابتها فى فصول سبعة كانت بعيدة الأثر فى نفسه تلك هى « قصة فتاة »

هذه الفتاة التى كانت تحب الزيات فى عنف وقوة وتراسله من قريتها فتكتب له على هذه الصورة من الهوى العنيف

كيف كان موقف الزيات الرقيق القلب العاطفى الوجدانى من فتاة محرومة تضع آمال عاطفتها فى الكاتب الرقيق

أن منطق القصة يعطى صورة الزيات وهو يهتز عاطفه ويحاول أن يوازن بين العاطفة والعقل وبين قلبه ورسالته وبين أن يكون حبيبا وأن يكون أبا أو ناصحا هاديا .

أنها ولاشك عاصفة هزت الكاتب من الأعماق وإلا فلماذا أولاها هذا الاهتمام ورسم لها هذه الصورة القوية الجبارة

وثمة صور اخرى من صور العاطفة فى حياة الكاتب الوجدانى الرقيق

« تذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجميل فيما مضى من عمرى فقد سجل أكثر ضحكات القلب وحسبي منها ميلاد ولدى رجاء والرسالة

« ألقى إلى البريد الجوى فى صباح هذا اليوم غلافا من العراق على رزقه طابع الدوق وعلى خطه سمه الظرف فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصوره قرأت الرسالة والامضاء ثم تأملت الصورة والاهداء فاذاهما آنسة من أوانس بغداد المثقفات وقد اولعت بالأدب واغرمت بأهله ثم عدت اقرأ وعدت اتأمل وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل حتى غاب حسى فى سكره من سكرات الأحلام

ولم أكد استوعب الرسالة بفكرى وأناقش موضوعها حتى تناولت القلم وفتحت الألبوم واجبت على رسالة برسالة ورددت على الصورة

بصورة . ولكن هيهات واسفاه ، لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ، وأن ترد صورة قبيحة على صورة « مليحة ») .

* * *

والأستاذ الزيات ما زال على ارتفاع السن شاب القلب . . وهو يصور السعادة بهذه الصورة الحلوة الرائعة .. «ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو يريد ، إن كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمة من شفاه بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة لتستطيع أن تنير ما أظلم من قلبه وأن تفرج ما اشتد من كربه . إن السعادة فتات وفترات . فلا تكون فى واحد صحيح ، ولا تدوم فى زمن متصل . . »

وهو يصور الحب ، فى صورة موضوعية تدل على طول الخبرة ، وسعة الفهم ، وعمق التجربة

« العلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث أخلاقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويشيل عليها بالمعونة والنجدة»

. . للحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة . ومن ذلك كان جمال المرأة داعى الرغبة خافض الجناح حيي الطبع ، والرجل مزهو على المرأة يدل بحيازته لها ويتعزز بقيامه عليها ، فهو يريدها ريحانة لا قهرمانة ، وحبيبة لا جليبة ، لها سلطان ولكنه رفيق وفيها أباء ولكنه رقيق .

ومن ثم كان لجمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخلطاً من الضعف والدلال ، وطبقاً من الهيبة والنبل .

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع من نظراتها وتنسم من بسماتها ، وتشيع فى قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين ، والحب الذى يطول ويحكم.

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل ، إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر ترعاه معه وفيه على غير علمه ، فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرة وجهها وتشرق على الأخص فى تلك الفطرة الوديعة التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور ، وتبدد ظلام الكآبة ، وتشعل خمود الحب . . »

وهو المحب الذى يهتف عند ما يتنازل دوق وندسور عن ملك بريطانيا فيقول « .. يا كافرين بالشعر والأحلام والحب » .

وإذا تحدث عن الربيع كانت المرأة عقدة حديثه .. « أجمل شىء فى ربيع القاهرة أصائله وأماسيه . ففى هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الإنسان فتملأ الجو عطراً ، والعيون سحراً والقلوب فتنة » .

وإذا تحدث عن العيد ، أرجع السر فى أن حياتنا الاجتماعية ممسوخة وأعيادنا مشوهة إلى غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامى « ذلك السبب هو على ما نكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش ، وجهومة فى البيت ، وسآمة فى العمل وفوضى فى الاجتماع .

. . كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة .

فاذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة . وفى الندى روح الحديث . وفى الحفل بجمع الأفئدة ، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح ، ومجتمع مهذب ، وحياة طيبة وأسرة سعيدة . . »

ومما يتصل بهذا ما يرويه من أنه قرأ كل قصص الحب العالمية هلويز الحديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأدولف ، ودومنيك ، وماريون دلوم ، ومانون ليسكو ، وذات الكاميليا ، وجرازيلا ، ورفائيل ، وجان دكريف ..

فاذا أضيف إلى هذا فصوله عن شاطىء البحر ، وحبه للقرية وأحاديثه عن ذكرياتها فى أيام الفيضان والعيد ورمضان وفصوله عن الأقصر وخواطر مهاجر ، أمكنك أن ترسم الصورة الكاملة لهذا الكاتب الذى تمرد باكراً على العمامة والأزهر وأسلوب الجمود فى الدرس والأدب ، واتجه إلى اللباس الأفرنجى والجامعة واللغة الفرنسية والأدب الغربى وباريس .

ومما يتصل بالحياة العاطفية للأستاذ الزيات ، فقدان ابنه « رجاء » « . . كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الرحة ولا أجد الظل ، وأقبض المجد ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس . وأكسب المال ولا أجد السعادة . وأعالج العيش ولا أدرك الغاية . كنت كالصوت الأصم لا يرجعه صدى ، والروح الحائر لا يقره هدى ، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر .

فلما جاء رجاء وجدتنى أولد فيه من جديد ، فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال . وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال ، وأضطرب فى الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع ويجذبه من أمامه طموح . شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً فى جسمى ، وبالأمل القوى ينبعث جديداً فى نفسى ، وبالمرح الفتى يضج لاهياً فى حياتى ، وبالعيش الكئيب يتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى .

. . ثم انقضت تلك السنون الأربع فصوحت الواحة ، وأوحش القفر ، وانطفأت الومضة ، وأعطش الليل ، وتبدد الحلم ، وتجهم الواقع ، وأخفق الطب ، ومات رجاء(١) »

ثم لا يلبث أن يتحدث عن ابنه رجاء وكتابه العراق . .

---

(١) الرسالة : ٦ ابريل ١٩٣٦ وحى الرسالة

« .. والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ، وعلى أخيه الذى أبدعته . جاءا معاً فى الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوسة ولا كآبة ؛ وذهبا معاً فى الربيع فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ، ولا طلاقة ولا بهجة .

أودى بهما القدر العابث خداعا وغيلة فسلب العين الكلوء ربيبه الحذر ، وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة . دب للطفل الموت فى وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاماً عارضاً ، فاذا هى الخناق القاتل، ومشى للكتاب القدر المحتوم فى ركام من الورق المتروك فذهب به خلسة إلى النار المبيدة .. »

* * *

ويتصل بالعاطفة فى الزيات عاطفة أخرى هى عاطفة العروبة والشرق والإسلام فهو مدره هذا الميدان .

وهو الذى جاهد بقلمه فى سبيل تحرير الشعوب العربية ودافع عنها فى كل مناسبة ، وأحتضن الدعوة إلى إصلاح الأزهر .. ، ولم تمنعه سعة أفقه وهو مؤلف « عبقرية الإسلام » وإعداد الهجرة أن يرثى « إسماعيل أدهم أحمد » ... عندما أنتحر فى أغسطس ١٩٤٠ ولما أراد أن يصف خلته وانحرافه داوره بلباقة : لقد حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق ، هى كل ىء فى تقدير المعلوم وأكتناه المجهول فاعتمد فى أدبه على العقل القعيد ، الذى يرى ولا يطير ، وأتكأ فى الفلسفة على الغرض البعيد الذى يطير ولا يرى .

ويمكن القول أن اتصال الزيات بالأدب الفرنسى لم يمسح شخصيه ولم يدفعه إلى الانحراف ، وإنما يظهر أعتداله فى أنه يحتفل بعيد الهجرة والميلاد سواء..

وبالرغم من أن الزيات شاعر فى سلوبه الأخاذ ، فانه منصف لا يميل مع الهوى ، ولا يقول كلمة السوء ولا العبارة النابيه ، فاذا أراد أن يقول شيئاً

فيه ما يغضب ، دار ولف ، وحاور وداور ، حتى يقول ما يريد فى صيغة لا تجرح ولا تسيل الدماء ! ..

* * *

وهو يصور طبيعته فى عبارات واضحة « ... لست بطبيعتى وتربيتى رجل صالون ، ولا حديث مجلس ، لأن المجامع المختلطة التى تدفع الحياء عن الذهب وتذهب الخوف عن اللسان وتجعل أطراف الحديث فى متناول كل جالس أبتها علينا التقاليد »

وصداقة طه والزيات من الصداقات الأدبية المعدودة فى تاريخ الأدب العربى يروى الزيات كيف عقدت مى مجلساً للصلح بينه وبين طه حسين فى فترة أصيبت فيه الأخوة المصقولة ببعض الفتور .

«.. ثم(١)مسحت مى بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين فاذا الماضى يعود كله ، وإذا الحاضر يذهب كله . وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصبى واستمارت مع الشباب وتوثقت مع الزمن فلما نال منها العهد المجرم الذى نال من كل شىء جزعت الآنسة الكريمة فيمن جزع وظلت تتحين المناسبة لسفاره الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة الأمس ..

كان حب صديقى وحبى لحظة من الذكرى تعيد غارب الحكم وتكسر عادية الجدل .. »

ويصف الدكتور زكى مبارك أدب الزيات بأنه صوره من نفس رجل يمتحن بنفسه « وبالدنيا وبالناس » فادبه الذى ينشره اليوم قد يكون صدى لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره وماضيه لأنه مشدود إلى قافلة الوجود ..

• • •

---

(١) الرسالة — فبراير ١٩٣٥ .

وبعد فالزيات له اسلوبه الواضح الذى يفصح عن نفسه ، وهو أحد أبناء المدرسة الازدواجية التى ابتدعها الجاحظ ، وسار على منهاجها ، المنفلوطى والرفعى والمازنى وطه حسين على أساليب متفرقة ، وطرائق متباعدة .

ولقد حرص الزيات على قلمه ، نقياً فلم يدفعه فى حمأة السياسة ولم ينزل به إلى مستوى الصراع أو الخصومة ، ومضى وفياً لطبعه وفنه ، يكتب فى أناة ، وينتج فى ترفق واعتدال .

توفيق الحكيم



سال توفيق الحكيم إذا كان قد وصل إلى ما كان يريد فقال : ربما ظفرت ببعض ما كنت أريد أو بكثير منه ولكن هل ما كنت اريد هو ما كان يجب أن اريد .. اننا نحدد مطالبنا عادة عند مانكون فى مطلع الحياة . اى فى مرحلة الشباب فمن يضمن لنا أننا فى هذه المرحلة كانت لنا الحكمة الكافية والتجربة الضرورية للارادة الصحيحة .

ويبدو توفيق الحكيم صادقا فى تصوير نفسه بعد أن ارتفع به السن وقد بلغ الآن الخامسة والخمسين — ١٩٥٤ — أظن اننى أحب نفسى الآن أكثر مما كنت احبها ايام الشباب لأن القلب يصغر كلما كبرنا إلى ان يأتى الوقت الذى لايتسع فيه لغير انانيتنا والعياذ بالله .

وقرات له تصويره للسيدة زينب نخيل إلى إنما يقصد نفسه « .. مامن مرة وقع فى شده إلا وجد العزاء عند ضريح السيدة زينب ذى القضبان الذهبية كل نجاح ظفر به فى الحياة هو دفعة من يدها وكل عطف هو نظرة من عينيها

وكل ابتسامة إنما هى ابتسامة من شفتيها انه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها ويعتقد انها فى السماء ردائها الأبيض إنما تنظر إليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها »

ولما ذهب إلى سالزبورج فى العام الماضى — ١٩٥٣ — اخذ يصور قمة المجد التى وصل إليها « وفى سالزبورج رايت الحيطان تحمل إعلانات حمراء كبيرة تحمل اسم « بجماليون » وإسمى واسماء الممثلين النمسويين وفى تلك اللحظة يوجع بى الزمن القهقرى ثلاثين عاما يوم ابصرت لأول مرة اسمى واسم رواية لى اخرجتها فرقة عكاشة على مسرح الازبكية . يالها من رحلة بين لحظتين . كم انفق فى هذه الرحلة من جهد وعمل ويأس وامل وكفاح فنى .. ولكن ..

لقد كان قلبى يرقص فى اللحظة الأولى اما لحظة اليوم فان القلب هادىء متئد يبتسم ولا يفرح ، ما الذى حدث له ! ..

عرفت اشياء كثيرة ولكنى لم اعد اعرف الفرح الفارح الراقص الذى يجعل من الفنان طفلا . وإذا فقد الفنان طفولته فقد نضارته . لااظن انه قد كتب على كل فنان هذا المصير ، ان تجعل منه الايام دوحة قد تظل ولكن ليس يجرى فى قلبها عصير .. »

وعندما تحدث عن الحب قال « إن الحب كمرض الحصبة يصيب الصغار ويندر ان يصاب به من جاوز الثلاثين ويمكن مد المدة إلى الأربعين .

اين هذا الكائن المنقرض . يخيل إلى اننى رايته فيما مضى . ولكن لماذا يتخذ الحب هذه الأهمية فى حياة الناس . انهم يريدون ان يقرءوا عنه فى الكتب ويسمعونه فى الأغانى ويشاهدونه فى القصص . والويل للروائى او الشاعر او السينمائى الذى يهمله . انى احب بقلبى الذى فى راسى وبعقلى الذى بين جوانحى . »

هذه ملامح شخصية توفيق الحكيم اليوم .. فى الحلقة السادسة من عمره . بعد أن بلغ من الشهرة مداها وتحول من الفن الخالص إلى الصحافة إلى الأدب الذى

يرضى القراء .. إلى أن أصبح هذه الشخصية الجديدة. انه ظفر ببعض ما كان يريد وهو يحب نفسه الآن أكثر مما كان يحبها أيام الشباب . والسيدة زينب هي منجاه في الشدة وإليها يرجع كل نجاح له في الحياة..ومهما وصل إلى المجد فان القلب هادىء متئد يبتسم ولا يفرح اما الحب فهو كمرض الحصبة يصيب الصغار .. وهو يحب بقلبه الذى في راسه وعقله الذى بين جوانحه .

حقا ما ابعد الفرق بين الشباب وبين ارتفاع السن .. في الافكار والآراء . ان كل شيء يتحول وينتقل من وضع إلى وضع

وبعد فما هي حياة توفيق الحكيم من ادبه .

وهل المصادفة البحته هي التي قدمته إلى الناس ، عند ما طبع أصدقائه مائة نسخة من قصته « أهل الكهف » سنة ١٩٣٣ فاستقبلها الدكتور طه حسين استقبالا ضخما فخماً . وصفق لمؤلفها . ووصفه بانها أول محاولة لابتداع الحوار في الأدب العربي ؟ .

أن كل الأسانيد التي أمامي تدل على غير ذلك . تدل على أن « توفيق الحكيم » ولد كاتباً .. وانه بدأ محاولاته مبكراً .. ثم أختفى ، وذهب إلى باريس وعاد وهو يحمل الآمال العريضة في الظهور والتبريز .

« ... لقد طرح في مصر مهنة المحاماه والقانون ليمضى في حمل القلم ، ويقول للناس أشياء يعتقد أنها قد تنفعهم .. وما كان يريد غير ذلك . ولا يطمع في حياته في غير ذلك . فلا الجاه العريض كان يغريه ولا مفاتن الحياة كانت تستهوته . ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه . وعند ما يصغ إنسان لحياته خطة ، فان القدر أحياناً يأخذ وينفذ (١) » .

وهذا يعنى أن الرجل كان يفهم نفسه ، ويرسم طريقه . بل أن توفيق الحكيم يؤكد ، أن أكثر الكتاب يعيشون حياتهم أولا ثم يكتبونها بعد ذلك . أما أنا فاكتب حياتي أولا ثم أعيشها بعد ذلك .. ياله من شيء مخيف»

---

(١) توفيق الحكيم في « فن الادب » .

.. إذن فتوفيق الحكيم أن كان قد لمع فى الجو الأدبى فى ذلك التاريخ وبذلك الكتاب فانه لم يكن أول محاولاته .. وإنما هو رجل عاش فى اغماق برجه العاجى ، هذا الوقت الطويل ، يقرا ويراجع ، فى اناه وهدوء

« ..كان مبدا ظهورى فى الجو الأدبى نشر اهل الكهف ١٩٣٣ ولم تكن هذه الروايه بالطبع بدايتى الأولى فى هذا اللون من التأليف بل كانت ثمرة تجارب عشرة اعوام او تزيد سابقة على الشروع فى وصفها فلقد كنت قبل ذلك اكتب للمسرح المصرى روايات تتلائم وجمهور تلك الأيام.

وإنى وان كنت اؤثر نسيان الروايات الأولى إلا انى لايجب ان انكر فضلها على تكوينى الفنى الأولى فلقد كانت هى خير محاولاتى على ممارسة الحوار ثم اتسعت آفاقى باتساع نطاق مطالعاتى فى أصول هذا الفن فى الآداب الأجنبية .

وضاقت بى مصر فرحلت إلى فرنسا بعد أن كنت سجلت اسمى فى جدول المحامين ومهدت امرى لحياة مجدية. ولكن اى شيطان فى اعماق نفسى كان يدفعنى إلى إضاعة حياتى وراء فن لم يكن له بمصر اى احترام..وهناك فى فرنسا قرأت كثيراً وكتبت بالفرنسية نحو اربع روايات تمثيلية مزقت الواحدة منها تلو الأخرى تمزيقا عقب الفراغ منها فلم اكن قد اهتديت إلى شىء يذكر .

ولبثت فى هذا الجهاد زمنا لا أجد فى آدابنا العربية مرجعا لهذا الفن ولامصدرا محترما يجعلنى ابدأ منه أو أضيف إليه إنما كان على أن اخلق البداية خلقا وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها « اهل الكهف »

وقد اشتغلت بالقضاء فأنسانى هذه الخزعبلات ودفنت محفوظاتى فى حقائبى طويلا انتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية .

حتى وقعت مخطوطة أهل الكهف فى يد قاض مثقف من زملائى كان يذكر ايامى الماضية فى مسارح القاهرة(١)

---

(١) الرسالة . توفيق الحكيم ٩ يونيه ١٩٤٢

هكذا ظهر توفيق الحكيم فجأة ولكنه كان قد استعد لذلك سنوات ، ولذلك سرعان ما قدم للأدب العربى المعاصر ، عدداً ضخما من المؤلفات فى سنوات قلائل .

* * *

اتصل « توفيق الحكيم » منذ شبابه ببيئة الفن . . ولم يتخلص منها بعد ذلك — حتى هذه الفترة التى قضاها فى القضاء والنيابه — كان مرتبطا بالفن بأكثر من سبب .

ومنحته باريس « بيئة الفن » سرها وروحها . . أعطته باريس آيات الفنون والآداب التى « تملك عليه أمره كله . فلا يرى غيرها . فان المعرفة غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف ، لم تلبث أن طغت فى نفسه على المعرفة المباشرة .

كان يفضل البقاء فى باريس مكباً على القراءة والتحصيل على أن يصاحب إخوانه المصريين إلى شاطىء بحر أو قمة جبل .

ولكنه كان يحس فى باريس بأن أيامه لا مذاق لها « . . فهى كالماء الحراق أجرعه على غير ظمأ . المستقبل أمامى محاط بالضباب . يخيل إلى أنى هويت قبل الأوان كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج . . »

وفى باريس عمد الى تحصيل الثقافة من منابعها الحقة وبدأ محاولة فى سبيل الخلق الفنى . .

« والحوار » هو موهبة توفيق الحكيم الأولى . . فيه تتجلى ملكته الأساسية وأسلوبه المركز ، أشبه بالبناء الدقيق .

وهو قليل التغير والتقلب فى الآراء والاتجاهات (١) ، يؤمن بأنه حياة الكاتب متصلة بحياة إنتاجه « .. وأن فى أعماق كل « خلاق » شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الإنتاج البطىء أو السريع تبعاً لطول حياته أو قصرها(٢) »

---

(١) مجلة الاثنين . توفيق الحكيم . (٢) البرج العاجى .

ويصف اسلوب تفكيره بأنه هندسى « .. صدقت يا أندريه فى قولك انى اصلح أن أكون رياضياً ، وأن اخطارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية او حسابية او جبرية (١) » .

. . وهو من الأناة بحيث يجب أن تمر فترة على آرائه « تتيح لى أن أراجع أفكارى القديمة بعين جديدة لأرى مدى استحقاقها للمضى فى الحياة معى . إنها هى التى ينبغى لها أن ترغمنى على تحمل تبعة بقائها ، فهى وحدها التى تملك بيدها أمر حياتها » .

وقراءات توفيق الحكيم منوعة .. « ولعل امتع الكتب التى قرأتها كانت من الكتب التى تبحث فى فلسفة العلم . وانا ممن يميلون إلى القراءة ببطء كبير. وقد أقرأ صفحة واحدة من كتاب ثم اقضى ساعة فى تأمل ما قرأت والتفكير فيه . وقد لا اقرا فى الشهر اكثر من كتاب واحد لهذا السبب . واقرب الكتب إلى نفسى هى كتب التأمل والفلسفة العميقة . ولعلك تعجب إذ تعلم ان اقل الكتب التى اقراها هى القصص . وانا لا اقرا منها إلا القصص العالمية الممتازة دون غيرها . ولست ممن يحتاجون إلى مكان خاص أقرأ فيه . فقد أقرأ وأنا سائر فى الطريق أو جالس فى المقهى أو عند ما أرقد فى سريرى لأنام(٢). . »

* * *

يتصل إنتاج « توفيق الحكيم » بنفسيته وشخصيته ، مهما بعدت مظاهره ، ويدور حول نفسه فى كل ما يكتب ، ويعيش حياة أبطاله فهو الشخصية الأولى فى كل قصة كتبها . . وهو البطل الفعلى لكل مسرحياته . يبدو الابتكار واضحاً فى إنتاجه « الساقون الثلاثة ، و « شهر زاد » .. الملك والوزير

---

(١) زهرة العمر .

(٢) المصور ٢٤ فبراير ١٩٤٤ .

والعبد الأسود .. كل منهم يحب شهر زاد على صورة تختلف عن حب الآخر حب الغريزه وحب الحضارة ، وحب الخيره .. وشهر زاد تحب هؤلاء جميعاً .

ولكن هل حقاً أن أدب توفيق الحكيم غير عميق الجذور وإن ذلك يرجع إلى أنه قليل الخبره ، لم يتصل بالمجتمع وعاش فى برجه العاجى ، ولم ينغمس فى الحياة ، ولم يتمرس بأهوائه وآلامه ..

قالوا أن نشأته تختلف عن نشأة طه وزكى والعقاد ، هؤلاء الذين اتصلوا بالبيئات المختلفة ، وعرفوا الفقر وكابدوه ، وشربوا كؤوس العلقم ، وكدوا وذاقوا قسوة الأيام أما هو فقد ولد وفى فمه معلقة من ذهب . وذهب إلى باريس ..ولم يغامر مغامرة واحدة .. ولم يلبث أن اتخذ مقامه فى البرج الدجى .

« .. وهكذا أعبر الوجود الأرضى نهارى فى برج عاجى ، وليلى تحت مصباح أخضر .. »

والحق أن توفيق الحكيم قد مارس الحياة على صورة غير الصورة التى مارسها بها العقاد وزكى وطه .. وأنه قد اتصل بها فى يفاعته الباكر فى صورة العاشق ، وفى شبابه فى صورة المسافر ، وفى رجولته فى صورة المحقق .. ثم جاءت تجربة « الرباط المقدس » .

.. هذه التجربة التى لا شك فى أنها واقعية ، لبروز عناصر الصدق والقوة والواقعية فيها .. فأكملت شخصية الفنان وأعطته سمته ومظهره ..

« لم(١) تكن حياته كلها غارقة فى النظريات أو التحرير والتحبير ، ولكنه غرق زمناً فى الحياة من حيث هى حياة بواقعها وحلوها ومرها . وطيبها وخبيثها . ومن ذلك يوم كان يعمل فى القضاء ويجوس خلال الريف والمدن ويتصل بالحاكمين والمحكومين ، ويطلع على خبايا المجتمع وخفايا الصدور والأسر والأكواخ والقصور .. »

---

(١) فن الأدب .

واستطاع توفيق الحكيم أن يعطى لنفسه صورة تختلف عن صور الكتاب والأدباء . . إنه « راهب الفكر » التائه فى بيداء الحياة ، المعتزل للناس فى برجه العاجى وتحت مصباحه الأخضر .

« حياتى الليلية ، حياة رحبة مضيئة فاخرة بشتى الألوان ، ميدانها لا فى المراقص وحانات الليل ، بل فى حجرتى المنزوية ، ومقعدى الواسع قرب خزانة كتبى . حياة الليل عندى ، هى حياة النفس فى اتصالها النبيل بما أقرأ فى ساعات السكون . وفى إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التى تغمر عالمى الصامت(١) .. »

وقد رسم صورة واضحة .. لهذه الحياة الغامضة ، المليئة بالوحدة فقد أراد أن يجرب الحياة المستقرة ، غير أنه فشل فى تجربته . « .. ورجعت إلى وحدتى .. تلك الوحدة الباردة التى تحيط بى من كل جانب ، فما أنا فى الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر ، وسط صحراء من الجليد . وضعت بداخله يد المصادفة إناء يغلى ويتصاعد منه بخار . هو تلك الأفكار التى تخرج من نافذتى إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس . فاذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لى ما سوف تلقيه فى هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك .

« .. وهكذا أنفقت حياتى متنقلا تائهاً ، ليس لى مكان معروف ولا عنوان دائم . فما تركت فندقاً لم أنزله ولا نزلا لم أهبطه حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائر .. فأردت أن أجرب الحياة المستقرة فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة يشرف على النيل وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعنيت بأثاثه وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزائن للكتب واقتنيت سيارة . واقمت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ..

---

(١) تحت المصباح الأخضر .

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاما فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلى .

. . . .

أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائى كلما طلبت إليه آلا يسرع فأنا أبغض السرعة . إنها تمنعنى من التفكير ولطالما أكدت له أنى لست متعجلا شيئا . ولا شيء فى الوجود يستعجلنى فأنا عدو الزمن والوقت . ولم أحمل ساعة قط فالوقت عندى ليس من ذهب بل من تراب .

. . وانطلقت بمفردى حراً من جديد ، أتنقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع . وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأتوبيس ، وأختلط بالناس وأمتزج بالجماهير . فأحسست كأن الدم يعود حاراً إلى عروقى . وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد . وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالأقدام فى كل مكان . وملاحظة الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلا خلف الزجاج . وجعلت أقف على بائع الأزره ، وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة ، فأحادثه وأباسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة فأشترك معهما فى السمر والحديث . ورأيت الكناس يسامر البائع طمعاً فى كوز والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال ، فان الشغل شغل فى عرف التجار فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى الآخر فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديثه العامة البريئة اللذيذة . . »

.. من هذه الصورة ، ترى توفيق الحكيم فى أهاب «راهب الفكر» كما شاء هو أن يرسم هذه الصورة .

وبالرغم من أن توفيق الحكيم فرنسى الأسلوب ، فان ثقافته منوعة بين الإنجليزية والفرنسية .

وهو يحب الجو الغربى ، المطر والسحاب ، والوطن الروحى .

ويؤمن بأرستقراطية الثقافة ولا يحب الترخص « .. وإذا الأديب قائم فى المجتمع بين طبقتين ، كل منهما تجذبه بعنف ، الأولى تقول أنت للجميع لا لطبقة خاصة ، والثانية تقول له الزم مكانك بيننا نحن الخاصة وإلا هبطت إلى الحضيض .

ويؤمن بالأديب الملتزم «وأن خدمة الوطن فى ميدان المجتمع ليست لمثله ، إنه يراها تضحية يبذلها « الأديب » الحر إذ يضع قلمه الرفيع مؤقتاً فى خدمة الوطن على صورة يأباها الأدب الحر .

* * *

أدب توفيق الحكيم صورة لنفسه ، فما موقفه من المرأة والحب ! . لقد أطلق عليه لقب « عدو المرأة » ، فهل تحول عن رأيه فى المرأة ، كما تحول عن بعض آرائه الأخرى « لقد تغيرت كثيراً وتنازلت عن أغلب أفكارى وآمالى لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة(١).. »

لقد أحب « توفيق الحكيم » فى فجر شبابه . . هذه الفتاة التى روى قصتها فى عودة الروح .. الفتاة التى كان يحبها الشبان الثلاثة .

هذه العاطفة التى رسمت طريقه ، ووجهته إلى قرض الشعر .. ولكن « الفتاة الأولى » .. تركت فى أعماقه آثاراً ظهرت فيما بعد واضحة حين صور رأيه فى المرأة والحب ..

لقد سخرت الفتاة منه ومن أصحابه ، كانوا يتقربون إليها وكانت هى تسخر منهم وتلهو بهم ، وتعبث بقلوبهم ، .. فلما صادفها شاب آخر من جيرانها أكثر وسامة وغنى .. بذلت له حبها .

---

(١) زهرة العمر .

هذه « العقدة » كانت أول ما صدمه فى حياته العاطفية فتركت أثرها القوى باقياً . .

فاذا تحدث بعـــد ذلك عن المرأة بدا رأيه مظلماً متشائماً .. عبوساً « .. لو[1] خيرت ، لا أريد جنة أو ناراً من صنع المرأة . إنى أحرص كل الحرص أن أكون سيد نفسى ، وأن أصنع لنفسى نعيما وجحيما لا تعرفهما المرأة . إن جنتى بالطبـع ان تجد فيهـا حية ولا تفاحاً ، فهى جنة هادئة متواضعة ، جنة الفـكر والتأمل والخلق والإبداع . إذا دخلتها المرأة حلت فيها الفوضى وانفرطت عقود درها المنظوم ، وتحطمت تماثيلها المرمرية ، كما أن جحيمى مملوء بعذاب الشك والقلق الفـكرى ، وعذاب القصور عن إدراك الـكمال الفنى . آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها ، فأنت ترى أن نفسى « منطقة مقدسة » لا أسمح لامرأة بالدنو منها ، ولقد ازددت مع الزمن شدة فى ذلك حتى رأيت أن أقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى فى حياتى .

. . . .

إنى أعيش مع شبح امرأة دائماً ، ولـكن أى امرأة ، إن تلك التى سمحت لها بدخول جنتى ، هى امرأة لا كالنساء ، فانها النور بغير مصباح ، وهى قطرات النشوة بغير خمر ، هى عروس لها جسم المرأة ، وكل شيء جميل فى المرأة متدثرة فى رداء من خيالى ومن كل ما هو جميل من نفسى قد أسبغته عليها . هى ملكة جنتى التى توحى إلى بخير ما أخرج وأصنع . فالمرأة التى لها شأن فى حياتى هى كما ترى من صنع يدى ، وخلق تصويرى . « وإنى أعتقد أن أغلب من ذكرت من الـكتاب والفنانين والرجال العظام ما دفعتهم إلى العمل المنتج إلا نساء من صنع أنفسهم » .

---

(١) مجلتى .

.. ولكن هل استطاع توفيق الحكيم أن يقصى المرأة نهائياً عن الشطر الباقى من حياته .. ، إنه قد تزوج رغم إصراره على البرج العاجى ، ولكنه ما زال يقول « .. المرأة عندى هى المرأة دائماً ، وإن كنت اليوم أكثر شفقة بها وأشد حرصاً على عدم الإساءة(١) إليها »

ويربط توفيق الحكيم الفن بالمرأة ، إنه يراها مصدر الفنون والآداب ويؤمن بالهامها .. « إنى إذ أتكلم عن الفن لا يسعنى إلا أن أعترف مرغماً أن المرأة هى روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، ولكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن . ذلك أن الإلهام الفنى نفسه ، قد خلق على صورة امرأة . وأن لكل لون من ألوان الفن عروساً هى التى تنثر أزهاره على الناس . ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئاً إلا فى ظل امرأة ..

إن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه ، إن عداوتى ليست إلا دفاعاً عن نفسى . أقرن بين المرأة كشىء يوحى بالجمال وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا(٢) .. »

فاذا تحدث عن زوجة الفنان رآها عاملا هاماً فى حياته .. « زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها بأن يعنى بها . هى التى تزيل متاعب زوجها ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها . هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره قط بهمومها . هى المخلوق الذى يعيش صامتاً صابراً باسماً بجوار الفنان طول العمر دون أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا الجوار(٣) .. »

* * *

لكن .. هل هذا الذى يرى المرأة على هذه الصورة الممتازة الموحية

---

(١) مجلة الاثنين : يونيو ١٩٥٣ .
(٢) تحت شمس الفكر .
(٣) نفس المصدر .

الملهمة .. أحب ، أحب حباً قوياً جباراً . .

إنه يرى أن الحب .. ربما كان هو الشيء الوحيد الجميل الذى يعيش به ومن أجله نحن البشر .. « .. غير أنه فى فترات عاصفة يقول أن الحب فى هذا العالم عضو ربما تمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله ، دون أن تخسر الإنسانية شيئاً كثيراً .. »

فاذا أردنا أن يتجاوز الشباب الباكر بأحاسيسه وعواطفه هل يمكن أن تعطينا قصة « عصفور من الشرق » صورة المحب ، أم أن هذه الصورة تبدو رائعة فى « الرباط المقدس .. »

لست أدرى ، ولكنى أبحث عن الحب فى حياة الكاتب فلا أجد إلا هذه العبارات الغامضة الحزينة المحرومة « .. إنى أحب الحب ، وإنك لتعرف أن للحب مقاماً كبيراً عندى فى الحياة ، وفى كل حياة ، وربما كان الحب هو الشيء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر . . آه .. لو كان القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة ! وجعلنى أجد أحداً يحبنى حقيقة ، مرة واحده ، أنا الذى اعتقد طويلا أن عظماء الرجال هم عظماء العواطف ، وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف ، وأن الذى لا يعرف ولا يستطيع أن يحب إنساناً لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الإنسانية[1] .. »

أى صرخة داوية هذه ، أى نفس هذه المحرومة المشوقة . ولكن هل حقاً أن توفيق الحكيم حزين ذلك الحزن الممض الذى تصوره بعض كلماته ..

« لا تذكرنى بالغد ، إنى الآن أعيش . حسبى هذا . أعيش يوماً فى مونمارتر ، فردوس الفن .. الذى سأفقده يوماً . سوف أذكره مع الحسرات .. أما الآن فانى أقطن فى ناحية أخرى من الحى . شأنى فى كل شهر ما أحلى التنقل والحرية . يا جان ..

---

(١) زهرة العمر

لم تتح لى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم لا بتسامها
فإن ما عندى من أزمات داخلية شغل قلبى دائما عن الطبيعة . إن عيناى
مصوبتان دائما إلى إعماق قلبى . .

لقد جاوزت الأربعين وما أبصر بعد فى الأفق طيف واحه مورقة فى
صحراء حياتى المحرقة . ما قيمة الشهرة بغير سعادة . وفيم الأدب والفن بغير
هناء » .

يقول العقاد أن توفيق الحكيم متردد « بين عتبة الصومعة وعتبة
الحياة .. » ويصف سيد قطب طبيعة توفيق الحكيم بأنها « تشفق من الحل
الحاسم وتنفر من الوضوح الصريح . إن الشك فى طبيعته ، والقلق الدفين فى
نفسه . وهو معنى بالذهن الإنسانى المجرد ، يوغل فى تأملاته ويسبح فى فروضه
ويثير مشكلاته ويتابع ومضاته .. »

* * *

هل نستطيع من هذه اللمسات أن نرسم صورة توفيق الحكيم ..

أعتقد أن هناك خيط آخر هو الصوفية ، فما صلتها بتوفيق . هل كان من
المتوقع أن يتجه اتجاها روحيا صوفياً خالصاً . ثم غلب عليه طابع المفكر ..
يقول محمد مندور إنه « مفكر بعقله لا بحواسة . يعالج المسائل علاج من لم
يمسه عن قرب » فالى أى حد يبدو هذا فى إنتاجه ؟

إن « توفيق الحكيم » يضع أمامنا ضوءاً جديد لشخصيته « طفولتى مملوءه
بالغرائب منذ ولدت . وحتى ساعة ولدت قيل إنى لم أبك مثل سائر الأطفال
فحسبونى نزلت ميتاً ، وكان الوقت ليلا فنبذونى للاعتناء بالأم المريضة ،
فلما عادوا إلى وجدونى فى أتم صحة ، ساكناً صامتاً ، أنظر فى عجب وسرور
إلى نور الصباح . أترانى أحببت النور من النظره الأولى[1] ..

---

(١) تحت المصباح الاخضر .

« أعجب ما فى حياة الإنسان أنها ليست حياة واحدة ، إنها سلسلة حيوات تتتابع فى حلقات العمر الطويل . فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى .

وحلقة الرجوله لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى . وهذه الحلقات منفصلة فى أكثر الأحيان عن الأخرى . انفصالا ملحوظاً فان ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى ، فالجمال الذى كان يفتك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة . والكتاب الذى يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة (١) ..

هذا رأى « توفيق الحكيم » فى أطوار حياته ، .. « إنه(٢) لم يلق كثيرا بشخصه فى غمرة الناس . ولكنه كان يلقى إليهم دائما بفكرة يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم . كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط يلقى الفتات إلى السمك وينظر إليها يجتمع عليه ويفترق .. »

* * *

توفيق الحكيم فنان يؤمن « بأن الفنان خلق ليخلق ومهما تكن الأسباب فان السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من صفة الخالق .. »

ولكنه يرى أن الأدب قد فشل تماما فى توجيه الناس والأمم والأجيال وأن أثره لم يعد أكثر من أثر السيجارة .. فان كانت أفادت أحداً فقد أفاد هو .. إن الأدب لم يحول الإنسانية عن الشر ولم يدفعها إلى الخير .. »

---

(١) عصا الحكيم (٢) الرباط المقدس .

عباس محمود العقاد



بدأ حياته بالصراع ، فهاجم شوقى وحافظ واشترك مع المازنى فى إنشاء « الديوان » ثم مضى يصارع فى السياسة فى عنف وقوة عشرين عاما ، كان قلمه أمضى الأقلام وأشدها جرأة وحماسة ، وكانت خصومته أقوى شماساً وعناداً وقسوه .

ويرى العقاد بعد مضى أكثر من ثلاثين عاما أن حملته الأولى على الأدب القديم كان لها أثرها القوى » .. [1] وقد أنكرنا أصنام الأدب لأننا أنكرنا عملهم ، وطلبنا عملا أصلح منه وأوفى . فأصلحناهم هم أنفسهم ، وحولناهم إلى وجهة غير وجهتهم وجعلناهم يطرقون أبواب الفنون الحية بعد أن كان كلامهم كله أو أكثره مقصوراً على المديح والرثاء وشكوى الزمان والأخوان ، وفتحنا أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرىء القيس أو أبى الطيب

---

(١) العقاد — الاساس — ١٩ — ١٠ — ١٩٥١

كفرا أو جنايه تعاب كما تعاب الجنايه على الشرائع والقوانين .. »

* * *

إنه حين يتصور كيف كان منذ ثلاثين عاما يعجب لهذه «المسافات فى عالم الفكر والروح ، لو تمثلت مكانا منظوراً « لأخذ المرأ رأسه بيديه من الدوار » كم رأى ، كم مذهب . كم خاطر . كم وسواس . كم محنة . كم مراجعة . كم زلزال يتضعضع له الكيان ، وتميد معه الدعائم والأركان » .

* * *

استهل حياته الأدبية قارئاً : وقد اختار أساتذته بنفسه ولم يفرضهم عليه أحد « لأنهم كانوا جميعاً مؤلفين مشهود لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف أقر منها من أشاء وأعرض عمن أشاء وأطلبهم حين أريد وحيث أريد » ...

وتحت سماء أسوان الصافية ، بدأت نفس العقاد تتفتح ، وإن كان المرض الذى ألم به فى مطلع الشباب قد أنشأ فيه طبيعة الاعتكاف وأفسح له المجال للدراسة والقراءة والتأمل . . . وربما كان من أثره « أن(١) استقر فى قلب العقاد حب الحياة والتشبث بها والكفاح فى سبيلها ، فاذا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة وغلبه فى التمتع بأطايبها . . . وكان من عقبى ذلك الظفر أن أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ورفاهه شعور بالكرامة وأزكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والاصرار » ...

* * *

وهو يقرأ ثلاث أنواع من الكتب « مايبحث(٢) فى الأدب والوصف ، وما يتناول علم ماوراء الطبيعة والحياة الأخرى — إن كان هناك حياة أخرى ، وعلم الحيوان وما يتصل به فيما يختص بحياة الحشرات . والحيوان وطباعها وغرائزها فهى بمثابة مسودة لحياة الانسان . وأنا أقرأ حوالى

---

(١) محمود تيمور « ملامح وغضون » (٢) المصور : فبراير ١٩٤٤

الساعتين يومياً . ومنذ سنوات كنت أقرأ سبع أو ثمان ساعات فى كل يوم ، ويتراوح عدد الكتب التى أقرأها كل شهر بين خمسة وسبعة ، وقد لا أقرأ من الكتاب غير فصل واحد ، ثم أضعه فى مكتبتى وربما عدت إليه فيما بعد ... »

وقد يقرأ العقاد كتبا كثيرة لا يقصد الكتابة فى موضوعها على الاطلاق إذ أن القراءة هى التى تعطيه دون غيرها « أكثر(١) من حياة واحدة فى مدى عمر الانسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحيه العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب . لا أحب الكتب لأنى زاهد فى الحياة . ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى .. »

* * *

وفى الصبا الباكر ، رسم العقاد صورة حياته على أحد ثلاث شخصيات قائد عسكرى أو ناسك صوفى ، أو عالم زراعى . ثم تبلورت هذه الصور الثلاث حين وجد القلم وبدأ يكتب ..

« ...كنت أقرأ كل ما يقع فى يدى من الكتب الأدبية والدينية ومعظمها من الطبعات القديمة . وقرأت فى مناقب الصالحين عن الأولياء الذين يمشون فوق الماء والأولياء الذين يسخرون الريح ولا يحترقون بالنار ، فأردت أن أكون مثلهم ، وترددت على المسجد فى أوقات الصلاة وكان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلا جميل الصوت . أسمعه فى الفجر أحيانا ، وأسمع القصائد التى كان ينشدها . . . وكان شعر البرعى لا يعجبنى ، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة من نظمى » ثم يقول « ... لا تزال صناعة القلم عندى شىء من صناعة السيف ولا يزال بحث الدين وما وراء الطبيعة عندى شاغلا لا يعوقنى عنه شاغل من شئون السياسة أو شئون المعيشة » .. وتمنى العقاد « الأدب » لأنه تمنى التعبير عن النفس « لأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندى تحقيق

---

(١) الهلال ــ مارس ٤٨

وجودها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها . وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده[1] » .

واشتغل العقاد بالتدريس ، ثم بالصحافة ثم انصرف إلى الأدب الصرف وكتب المقالة والقصة والقصيدة . ولكنه يبلغ غاية قوته فى النثر وأدب المقالة التحليلية على وجه أخص .

يقول زكى مبارك « هو كاتب أقوى منه شاعراً لأن ذهنه ارتاض على التعبير بالترسل أكثر مما ارتاض على التعبير بالقريض .

العقاد السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ومن أبناء الأرض عند آخرين أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع .

والعقاد الناقد لاينحرف عن القصد إلا فى حال واحد . حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين . أما حكمة على المفكرين الذين بعد عهدهم فى التاريخ فهو غاية فى العدل والسداد .. »

* * *

وقد وصف العقاد بأنه يحب العزلة ويحرص عليها ، وهو يرى أن فلسفة حياته تفرض عليه العزلة فى بعض الأوقات « و[2] ليس معنى العزلة أنى أحارب الناس أو أننى لا أبادلهم العاطفة والشعور فانى أحب مسالمة الناس جهدى ولا أستبيح لنفسى أن أبداهم بما يسوء . ولكنى لا أبيح لاحد أن يستخف بالاساءة إلى ولا سيما الاساءة التى على اعتزار بقوة لاتدفع ، واعتزاز بطغيان تعنو له الجباة فمثل هذا المسيء لا ادعه فى طغيانة دون أن يندم عليه .. »

وهو أحيانا لايغادر داره أسبوعا كاملا « لست أنسى فزع أديب زارنى يوما وعلم أنى لم أبرح الدار منذ أسبوع فها له الأمر كأنه يسمع بخارقة من خوارق الطبيعة . فقلت له لاتعجب أنها وراثة من أبوين ، يؤكدها الزمن الذى

(١) الرسالة — أمنيتى — أول ديسمبر ١٩٤١ . (٢) الرسالة ١٣ يناير ١٩٤١ .

لاتحمد فيه معاشرة أحد إلا من رحم الله .. »

ويحدد موقفه من « الناس تحديد الخبير بالناس المتمرس بالتجارب بأنه لا ينتظر منهم كثيراً ولا يطمع منهم فى كثير ، والطمع فى انصاف الناس إذا كان فى الانصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم . هو الكثير الذى ما بعده كثير فهم منصفون إذا لم يكلفهم الانصاف شيئاً ولم يصدمهم فى هوى من أهوائهم » . . .

والحياة فى نظرى لاقيمة لها « ولا تستحق أن نحرص عليها إلا إذا كانت لنا شروط نمليها عليها فترضاها ، ولم تكن كلها شروطا تمليها هى علينا فنرضاها ولا نملك الصرف والعدل فيها » .

وهو قليل الاكترات للمقتنيات المادية « لم أشعر قط بتعظيم انسان لأنه صاحب مال » .

ورث عن أمه الكثير « إلا القصد فى النفقة وتدبير المال » يقول أن الوالدة لاتنكر من شئونى شيئاً إلا الورق . الورق الذى لاينتهى هو الذى يمرضنى . . . وهو الذى يصرفنى عن الزواج . . . قلت لها ذات يوم : لو وجدت لى زوجة مثلك تزوجت الساعة » .

* * *

لم يرحل العقاد ، ماعدا أسفاراً قصيرة إلى فلسطين والحجاز وهو يحب أن يسافر إلى أنحاء العالم من مكانه عن طريق الكتب ...

يقول « لقد تعلقت بالسياحة فى اوائل صباى . وشاقنى أن أسيح هنا وأسيح هناك بين مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنها كانت كفها كما تبين لى بعد دلك عارضا من عوارض الصبا الذى ينزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى ليسعنى أن

أقول اليوم أننى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى أن أبرح المنزل أياماً بل أسابيع .

ولذلك سبب منى وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه . أما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبوى . وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تعيننى ، فانى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على ورق ولكننى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء » .

* * *

وبالرغم من أن العقاد كره كتابه «اليوميات» وقال أن أمرين يباعدان بينه وبينها كلاهما حقيقى بالاثبات لأنهما أيضا من ظواهر النفسيات ، وظواهر الفترة التى عشت فيها أول الأمرين أننى غير مطبوع على التوجه إلى محراب الاعتراف لأنه ضرب من ضروب الاستغفار لا أستريح إليه أو لأننى أدخر لنفسى خفاياها أو أنزهها عن البوح بها لاحد غير مستثن من ذلك إلا القليل » .

أقول بالرغم من هذا فقد كتب العقاد اعترافاته على عدة صور وفصول يمكن أن تعطينا ملامحة وسرائره واضحة إلى حد كبير .

« ..(1)أول ما أعترف به إننى مطبوع على الانطواء ، وإننى مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من اندادى فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه .

لقد ورثت طبيعة الانطواء من أبى وأمى . فلا أمل الوحدة وأن طالت بغير قراء، ولا تسلية . ولا أزال اقضى الأيام على حده حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات .

---

(1) الرسالة — ١٧ نوفبر ١٩٤٧

ويغلب على المنطوين أنهم لا يألفون الناس بسهولة ، وأعترف بأنى واحد من المنطوين فى هذه الخصلة . ولكننى اعترف كذلك بأن الالفة التى تصح بينى وبين أحد الاخوان لاتقطع ولا تتعرض للقطيعة باختيارى وقد يتعدى الأمر ألفة الأخوان إلى ألفة غيرهم من الاحياء والاشياء .

وأعترف إلى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكراهيه ولا أريد أن أعرفه .

وقد يبلغ من ضعف ارادتى أحيانا أن احتال على نفسى ، كأنها شخص آخر اطلعه على بعض مرادى واخفى عنه بعضه .

وأعترف بأنى من الزهدين فى البذخ والطعام . ولكنى اعترف بأنه زهد لافضل لى فيه لأنه يكلفنى مشقه المغالبة والمقاومة .

واعترف بأن عنان النفس يفلت من يدى فى حالات كثيرة ولكنها حالات أراجعها أحيانا فلاأسف لافلاته ، بل أرى أن ضرر الأطلاق اخف من ضرر الشد والكظم وثنى العنان .

.. لا أطالب أحداً بجميل لأن جميلى لنفسى سابق لكل جميل ، ولكننى أعترف كذلك بأنى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء من المتكلم وغفلة فى السامع .

وأعترف بأنى احب الشهرة والخلود . ولكنى أعترف كذلك بأنى لا أطلبهما بثمن يهبض من كرامتى(١) .

. . . .

انى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقوم بينى وبين انسان ، ولا سيما حاجز الكلفة والأغراض فاذا تلقانى أنسان ، بمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بينى وبينه أبد الدهر . وليس أشق على نفسى من الزلفى التى يزداف

---

(١) الهلال ــ يونيو ١٩٥١

بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقه . . »

أننى أسىء الظن بالناس لأنى أحسن الظن بهم .

العاده قوية السلطان على سليقتى وخلقى لا تعصمنى منها إلا الثورة النفسية .

هذه ملامح الصورة النفسية وخطوطها الرئيسية كما رسمها فى أكثر من موضع من كتاباته ، وهى فى مجموعها تعطى صوره رجل كونته تصاريف الأيام ، ومنحته الخبره الطويله ، وأتاح له الاتصال بمختلف البيئات الاديبه والسياسيه طبيعة متعدده الجوانب .

* * *

وهو معجب فى الأفراد الذين عاصرهم برجلين ، غاية الأعجاب أما أحدهما فهو محمد عبده . . . « الحق أن أعجابى بهذا الرجل العظيم كان من أكبر المؤاثرات فى توجيه حياتى العام وتزويدى بالقدوة الصالحة فى الاستقلال بالراى والمجاهره بالعقيدة ولو ذهب بى الأمر مذهب التحدى والمخاطره وقله المبالاه بما يكون . . »

والثانى، هو سعد زغلول .

* * *

ومذهبه فى الأدب ، ورأيه فى المراه ، كلاهما غاية فى الاستواء فهو يكره الأدب المكشوف ويحاربه . ولا يحامل المراه فى تملق رضائها بالموافقة على رأيها أو هواها .

رجع عن ترجمة حديقة ابيقور لانا تول فرانس « لأنه بدا له أن أدب الاستخفاف الذى يدور عليه ذلك الكتاب ليس بالادب النافع » كما رفض ترجمة قصة « لادى شاترلى » لأنها من الأدب المكشوف « الذى نحاربه أشد المحاربة ..

ويقول عن الكاتبة مى وكان بينه وبينها عاطفة كان لها أبعد الأثر فى حياته

الأدبية ولعلها كانت مصدر الصراع بينه وبين مصطفى صادق الرافعي وغيره ..
«كنا نتبادل الآراء كثيراً ، ونختلف كثيرا ، ولا نستغرب هذا الخلاف ، ولا نكف عن تبادل الاراء ، لأن الخلاف بين كل أنثى وفية لطبعها وكل رجل وفى لطبعه أمر من البداهة بمكان ، فهى تنظر بعين حواء إلى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين ادم وكلاهما مخلص فى خلافه ومستفيد » ويصور موقفه من المراه فى « مطالعات » .. أننا فى عصر يميل إلى محاباة المراه فيما تكتسب من آراء فلسفية ، كانت أو اجتماعية لأن أداب الأندية توشك أن تبغى أداب الكتابة ومباحث الفكر ، فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المراه ولا يوافق هواها ، كما يحبس لسانه عن ذلك فى أنديه الانس ومجالس السمر . ويكتب حين يبحث فى مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الأمين »

... وهذا غاية الاستقامة فى الراى ، والنزاهه الفكريه عن المجامله ومبعث هذا أن العقاد يؤمن برايه ويقدر مكانة أدبه

« .. ولقد تعبت كثيرا فى تحصيل الأدب والثقافه ، ولكنى اعترف بعد هذا التعب كله بقصورى عن الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل صباى ، فلم أبلغ بعد غايه ولا قريبا من غايته .. »

وتلك صورة الطموح . فى نفس الكاتب الذى وصل إلى ذروه الشهرة والتبريز .

* * *

لعل ابرز حادثين فى حياة العقاد : هما سجنه سنة ١٩٣٤ ويبدو أن السجن عدل من اتجاهه السياسى وكان حافزه على الخطوه التى تلت ذلك حينما تحرر من الحزبيه بعد سنوات

وأن كان أكسبه مزيدا من الاعتداد والوقار ، يصور ذلك قوله :

لبثت جنين السجين تسعه أشهر وها أنا فى ساحة المجد أولد

وفى كل يوم يولد المرأ ذو الحجا وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد

والحادث الثانى البعيد الاثر فى حياته ، وصول الألمان إلى العلمين وهجرته إلى السودان . وكان يحمل فى أيام الحرب على الألمان حملات عنيفة وألف عن هتلر كتابا تناوله فيه تناولا يتفق مع نزعته الديمقراطيه .

لم تطل هجرة العقاد فى السودان ولكنه خسر منها كثيرا . خسر الكثير من ذخائره الأدبيه الخالصه التى لم يكن بدمن اتلافها

« فى هذا اليوم بعينه — أى عيد ميلاده — وصلت جيوش روميل إلى العلمين وأوشكت أن تعبرها إلى طريق العامرية فالقاهرة والاسكندرية وهو الهوان على أيدى أناس هم أخبر الناس بالهوان ولا فرار من الموت أن وجب . ولكن البقاء للهوان إخلال بكل واجب يحرص عليه الانسان

وليس هذا افجع ما فى الصفقة الفاجعة بل افجع منها الليلة التى قبلها . أو هى ليلة المذبحة كما سميناها ، لأنها جرأة على الماضى تهون معها الجرأه على المستقبل أو على المجهول .

كل ما أتركه بعدى لا أباليه . الكتب يصنع الله بها ما يشاء وما اكتم القارى انى على خطوة من أحراقها فى كثير من الأوقات غضبا على تكاليف المعرفه حيث يسعد الجاهل بغير تكليف وماذا اترك غير الكتب مما أباليه أن كنت اترك الكتب ولا أبالها . هباء أو كالهباء ، الاوراقا متفرقات فيها ودائع العمر التى يموت عنها الانسان ولاتسخو نفسه بان تموت قبله .

وهى لاتنقل إلى حيث تفتح وتقرأ فى مدخل كل أرض مطروقه ، وهى لا تودع عند احد كائنا من كان . فلا موئل أكرم من التمزيق ثم نارالحريق .. وانقضت ساعتان قبل تمزيق الورقه الأولى ولم تنقض الا دقائق قبل تمزيق الورقة الأخيرة .

وانجلت الثورة عن كومه من الورق كل قطعه منها موصوله بعرق ممزق وشعل من النار لم تكن من قديم عهدها الاشعلا من النار ولكنها عادت إلى رماد»

ويصور العقاد نفسه على قمة الخمسين فيقول «من المحقق أو الراجح فى جميع الأعمار أن الخمسين نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة، ليس بعدها ما ياخذه الانسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله أو جسمه. ولكنه لايزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير ...»

فاذا بلغ قمه الستين صور مدى التحول الذى أكسبه هذا السن[1]

«..زادت قدرتى على البحث والدراسه. ونقصت قدرتى على مواصله الكتابه والقراءة. ولكننى عوضت هذا النقص بازدياد المرانه على الكتابه وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من ايسر القراءات.

زادت حماستى لما أعتقد من الآراء، ونقصت حدتى فى المخاصمة عليها لقلة المبالاة باقناع من لا يذعن للرأى والدليل.

لم تنقص رغبتى فى طيبات الحياة ولكننى اكتسبت صبراً على ترك ما لابد من تركه.

وارتفع عندى مقياس الجمال. كان ما يعجبنى قبل عشر سنين، لا يعجبنى الآن. فلست أشتهى منه أكثر مما أطيق.

وكنت قبل عشرين سنة كما أنا الآن قليل الرجاء فى خير بنى الإنسان. ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت إلى فلسفة العمل.

كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعنى بزينتها الصادقة وزينتها الكاذبة فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى. ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة.»

---

(١) — المصور: اغطس ١٩٤٩.

فاذا أردنا أن نتعرف سرائر حياة العقاد الوجدانية تيسر لنا ذلك على أوسع نطاق وأوفاه .

« .. إن الإنسان لا يجد نفسه فى شىء كما يجدها فى الحب[1] . وأنه لا يعرف ما فيها من قسوة وضعف ومن عطف وجمود ومن رحمة وقسوة ومن خفايا وظواهر ، ومن فجيعة وضحك . ومن حكمة وحماقة ومن إنسانية وحيوانية ، كما يعرف ذلك جميعه فى الحب . فالحب ومعرفة الناس صنوان .. »

وهو يصور الحب تصوير العارف الخبير « .. إن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها . امرأة بصفاتها الشخصية ، وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه إذا أوغل فى عشقها ، وانغمس فيه ، أحبها لأنها المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها ، ويجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها . فهى تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة .

إن الأنوثة تثير فيه شعور القوة وشعور الجمال وشعور الإنسان كله وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من آراء موهوبة ، ومن أغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام[2] .. »

* * *

ويصور فلسفة الحب فى قوله « يجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان . ويتكرر الحب فى حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس فى معظم المزايا ومعظم الصفات . ويتقارب البعيدان ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان .

وخلاصة التجارب كلها فى الحب : إنك لا تحب حين تختار ، ولا تختار

---

(١) ويصف الحب فى صورة أخرى (الحب شاغل يلهج النفس بواحد من الناس فيبدأ الحب متى امتلأت النفس بهذا الشاغل وإن لم تقع المشاهدة بالعيان) .

(٢) هذه الشجرة

حين تحب . وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت .. »

* * *

وقصة سارة تعطينا صورة للعقاد العاشق المحب فى مختلف صور رضاه وغضبه ، وقوته وضعفه ، .. هذه الصورة تبدو فى أنه « قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة . ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً موقعاً تشبيهاً له بالغناء الذى ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حينما يحسن الوقوف ويسكن حينما يطيب منه السكون .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى .

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره أن تتخذ من فكاهتها صناعة.

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها .. »

وينتهى من ذلك إلى أنه « إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب . وإذا أصبح النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب . واذا ميز الرجل المراة لا لأنها اجمل النساء ، ولا لأنها أزكى النساء ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ولكن لأنها هى هى بمحاسنها وعيوبها فذلك هو الحب ... »

وفى حياة العقاد أكثر من حب وأكثر من ساره . . . حتى بعد أن ارتفع السن .

ففى سنة ١٩٤٢ عند ما عاد من السودان ، نشر قصيدة فى الرسالة[١] راعى عنوانها « عدنا والتقينا »

---

(١) أغسطس ١٩٤٢

يافتاتى ياحياتى .

لاتراعى بعد هذا من فراق وافوت .

قدر الله كفيل لك فى ماضى وات .

كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا »

ومع ذلك فان العقاد قد عاش حتى بلغ هذا السن دون أن يتزوج ، وله فى ذلك رأى أعلنه منذ عشرين عاما[1] . ولا زال مقيما عليه « . . . لو كنت فى الريف ، أو كانت صناعتى غير الأدب لتزوجت . ولكننى الآن لاأستطيع الزواج لأنى أوطن نفسى دائما على أن أواجه كل نوع من أنواع المعيشة واجازف بكل شىء ولا أبالى بالمستقبل .. »

* * *

وبعد فالعقاد تاريخ طويل ممتد فى الأدب العربى المعاصر منذ ١٩١١ إلى اليوم وهو يمثل للخلود فى فترته الأخيرة (سنة ١٩٣٩) بعد ما سكن الصراع الحزابى وبدا العقاد يدخل باب الأدب الخالص . على أن هذا لايعنى أنكار أثاره من قبل ، ولكن الاتجاه الاخير الذى أخذ صورة الاستقرار يمثل العقاد بعدما تبلورت أفكاره واستقر هدفه وتوضح منهجة . لقد تحول العقاد وتنقل فى هذه الفترة ، بين الكتابه السياسيه والكتابه الأدبيه والنقد والتراجم وتلخيص الكتب ودارسه شخصيات سياسية كسعد وشاعره كابن الرومى والمتنبى ، ثم بدأ يتصل بالتراث الاسلامى فكتب عبقريات محمد وعمر وأبو بكر وعلى والحسين وبلال ، وكتب « الله » « وفلسفة القرآن » .

---

(١) مجلة كل شىء : أغسطس ١٩٣٥

وهنا استقر العقاد على طابعه الاصيل « كتابه التراجم النفسيه »

ثقف العقاد نفسه ، وقدمته السياسه إلى الجماهير فى صورة ضخمه ، وظل فترة طويله دعامة من دعائم الكتابه الصحفيه الحزبيه ، ولم يحل هذا التبرير فى ميدان السياسة ، من أنه يزاول العقاد الأدب فيكتب فيه يوما كل أسبوع ، ويصدر بين حين وحين كتاب من مؤلفاته ، أو مجموعه من مقالاته(١) .

حتى إذا توقف الصراع السياسى الداخلى أبان الحرب العالمية الثانية ، انتج أجود آيات أدبه . . « كان النشاط السياسى يحول بينى وبين الفراغ للتأليف والتدوين . فلما حيل بينى وبين هذا النشاط فى وقت من الأوقات كانت النقمة أبرك من النعمة ، فوجدت فراغا من الوقت لتأليف الكتب لم يكن ميسورا فى أبان العراك . وظهر لى نحو عشرين كتابا فى شتى الموضوعات » .

* * *

وحين يتصل بتاريخ العقاد الأدبى بالسياسة يبدو فى صوره « السياسة » نفسها ، وهى صراع وخصومة ونقد وهجاء . . قد يصل غاية الشوط فى العنف والشماس . وقد تبدو فى صوره المتناقضات .

أما حين يخلص للادب للصرف فانه يبدو غاية فى القوة والاستقامة والوضوح .

وختام لقول أنه ولد فى ٢٨ يونيو ١٨٨٩ فى أسوان وكتب أول مقال

---

(١) ساعات بين الكتب ، مطالعات ، مراجعات

له ١٩٠٤ فى جريدة الظاهر واشتغل بالتـدريس مع المازنى وفريد أبو حديد عام ١٩١٥

وقد وصف أمانيه (١٩٥٤) وهو فى سن الخامسة والستين بقوله :

« أما كل ما أطلبه فلم أبلغه ولا اعتقد أن أحداً بلغ كل ماطلب . كان هدفى فى الحياة أن أتولى القيادة العسكرية ثم تحولت إلى طلب العلوم الزراعية ثم تبين لى من مراجعه نفسى مراجعه دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم باعثا واحداً هو حب الأدب » .

محمد حسين هيكل



هذا كاتب وأديب اختطفته السياسة منذ عشر سنوات ولم يسترده الأدب مرة أخرى ، سوى أنه أذاع مذكراته « السياسية » فى خلال هذه الفترة[1] .

وكاد أن ينطوى فى تاريخ الأدب المعاصر الأديب الذى عرف بالاسهاب والمقالات المطولة فى صدر « السياسة الأسبوعية » زمنا .

فقد بدأ حياته بالمحاماة ثم أحب الأدب واتجه إلى الصحافة حينا فاستقر بها طويلا ، وأنتج خلال هذه الفترة أثاره الأدبية المعروفة الآن ، ثم انصرف إلى التاريخ ، وأغرم بالتاريخ الاسلامى بوجه خاص ، واتيح له خلال هذه الفترة أن يجلى تاريخ « الرسول » وأن يوغل فى دراسة الدولة الاسلامية وأبطالها .

وفجأة توقف ، فقد انتقل من الصحافة إلى السياسة ، واتيح له أن يرأس مجلس الشيوخ بعد أن كان يرأس تحرير صحيفة يومية . . .

---

(١) وقد أصدر في الشهر الماضى قصة جديدة (هكذا خلقت) .

واستنزفت السياسة بصراعها ومناوراتها ومتاعبها قواه كلها ، فتوقفت آثاره التى كان قد بدأها ، عن الاتمام ، فلم يكتب ولم يكمل « الشرق الجديد » ولا تاريخ السيرة .

ولكن « هيكل » يريد أن يقول لنا فى أكثر من مناسبة أنه لم يكن أديباً ولذلك فلا ضير عليه أن ينصرف عن الأدب يوما .

« ثم ماذا (١) ترانى يا صديقى أنتجت ، دعك من فصول يومية تكتب فى الصحف فأنت أعرف الناس بتفاهة ماينفق من مجهود فى هذه الفصول . دعك من العمل فى حزب سياسى فأنت أدرى بالسياسة المصريه . ماهى وما مبلغ الجهد فيها . دعك من هذين وانظر وإياى فيما انتجت انه لاشىء أو لايكاد يكون شيئاً . وأنا رجل بينى وبين الخامسة والأربعين شهور .

... وما أضيق بأسلوبى ولم أتخذ الأدب يوما صناعة ولا أنا توفرت على دراسة الأدب . إنما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال إلى قراءة الفلسفة والأدب لا إلى دراستهما دراسة انقطاع وتمحيض» .

وقد كان هذا ارهاصاً بأن هيكل يعود مرة أخرى إلى فنه الأول : الاقتصاد والقانون ... وقد كان !

ولكن هيكل قد ترك آثاراً قوية فى الأدب العربى المعاصر ، لا يمكن أن تنسى وكان أبرز تحول فى تاريخه الأدب هو دراسة السيرة والتاريخ الاسلامى

كان هيكل « حفياً » بالتاريخ منذ بدأ حياته ، فقد تناول الكثير من رجال مصر ، كما تناول جان جاك روسو ، وبعض كتاب أوربا ... بالبحث والدرس ثم تبلور هذا الاتجاه فى دراسة للتاريخ الاسلامى كان مفتاحها كتاب « أميل درمنجم » عن محمد فقد لفت نظره هذا الكتاب ، فاذا به فجأة يواجه قراءه فى السياسة الاسبوعية فى شتاء سنة ١٩٣٢ بفصول جعل عنوانها « حياة محمد

---

(١) ملحق السياسة (يونية ١٩٣٣) .

لأميل درمنجم : عرض وتعليق : محمد حسين هيكل » وقد وصف هذا الاتجاه فى مقدمة كتاب « حياة محمد » بقوله « بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر فى سيرة ابن هشام ومغازى الواقدى ، وعدت إلى كتاب سيدامير على « روح الاسلام » ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فقرأت كتاب درمنجم وكتاب واشنطون ارفنج . ثم انتهزت فرصه وجودى فى الاقصر شتاء ١٩٣٢ وبدأت أكتب . ولقد ترددت يومئذ أن أجعل البحث الذى أطالع به قرائى من وضعى أنا خيفه ماقد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد على ما أريد » .

ولا شك أن كتاب هيكل عن حياة محمد ، كان تحولا واضحاً فى تاريخه الأدبى بل فى تاريخ الأدب العربى المعاصر كله فالرجل الذى عكف منذ شبابه على دراسة آثار الأدب الأوربى ، والذى كان يدعو بقوة إلى الحضارة الأوربية وآثارها ، يتحول إلى الشرق وإلى التراث العربى فيقرأه ويمعن فيه ويتناوله على هذه الطريقة التاريخية الحديثة .

أى العوامل ذلك الذى دعا « هيكل » إلى أن يمضى فى هذا الاتجاه ؟ هل يمكن أن يقال أن كتابنا الذين كانوا يتزعمون المدرسة الحديثة ويدعون إلى الحضارة والثقافة الأوربيتين ، قد داخلهم الشك فى تقديرهذا الأدب حينما انهزمت المبادىء الفكرية الأوربية أمام المطامع الاستعمارية ، أم أحس كاتبنا أن الانسانية أصبحت فى حاجة إلى غذاء روحى يرد عنها ذلك الظلم الذى فرضته الحضارة الماديه المسلحة بأسلحة العلم والفكر لتحطم وتدمر وتستعمر ؟ .

أم اكتشف أن الكتاب والمستشرقين الأوربيين إنما يعملون لحساب الاستعمار وتغريب الشرق ، عند ذلك عاد إلى التراث العربى محاولا أن يستخرج منه صوره نقية من صور البعث الروحى .

إن هيكل لا يحدثنا عن ذلك بأكثر من أنه تأثر بحملات المبشرين التى

كانت قد استشريت فى هذه الفترة فدفعه ذلك إلى دراسة السيرة للدفاع عن صاحبها ورد عدوانهم . ولعل هذا يدفع عنه ما وصف به ، من أن اشتغاله بالسياسة قد أثر فى فهمه الأشياء ،فلا شك أن عمله السياسى هو الذى دفعه فى هذا الاتجاه الجديد الخصب « ... إذا كان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر فى تصورى للأشياء وفى حكمى عليها ، فانما كان أثره أن زادنى تقليبا للأشياء ، وامتحانا لها ، وتعمقا فى بحث ما تنطوى عليه وما ترمى إليه » .

* * *

ولكننا نظلم « هيكل » إذا جعلناه من رواد الأدب الاسلامى الحديث دون أن نذكر له أثراً آخر كان به رائداً من رواد القصة ذلك هو قصة «زينب»

فقد وضع هيكل باكورة القصة المصريه ١٩١٧ ولكنه لم يواصل السير فى هذا الطريق ، وإن كان قد أنشأ بعض القصص بعد[1] ذلك .

وهيكل كاتب جزل العبارة ، واضح الأداء ، مستفيض . يقلب الفكرة على جوانبها ، ويبحثها من جميع أطرافها ، ويعرض لها عرضا فيه شمول وفيه أناة ... وفيه دقة وهو يصف أسلوبه بأنه أسلوب قانونى « وطبيعى أن يكون أسلوبى أسلوب الذين درسوا القانون والذين يرون أن تؤدى المعانى بالألفاظ لا تزيد عليها ولا تضيق بها ، والذين لا يعنيهم لذلك بهرجه اللفظ للفظ ، وقد زادنى حرصا على هذا الاسلوب أنى رأيت مثله موضع الاطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة » .

ولكن هيكل لا يلبث أن يتهم كتاب العصر بأنهم لا يعرفون اللغة العربية نحن مع احترامنا للغة العربية ، لا تعرف اللعة العربية ، نعم ! نحن لا نعرف « عربى » ، ولست إذ أقول هذا أقوله عن تواضع كما اعتاد البعض ، ولكنى أقولة لأنه يعبر عن الحقيقة فى أمر الأكثرين منا . فنحن قل أن

(١) ثورة الأدب .

(٢) السياسة الاسبوعية ٣ مايو ١٩٣٥

تقرأ كتاباً باللغة العربية غير ما قرأنا بدىء صبانا ، ولا يزال حتى اليوم هو الأساس الذى يصدر عنه فى كتابتنا وتعبيرنا عن عواطفنا ومشاعرنا »

* * *

سافر هيكل إلى أوربا فى مطلع الشباب فالى أى مدى كان أثر ذلك فى أدبه وإنتاجه ؟ .

يقول « سافرت إلى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ إليه من هواى كأشد ما آخذ حسناء الها هوى مغرم بها ، ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناى من جمال البيئة المحيطة بى إلى الاعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية » .

غير أن هيكل لم يلبث حين عاد إلى مصر أن بدأ أقرب إلى الاعتدال فهو لم يسرف فى الاندفاع وراء الأدب الأوربى ، وآية ذلك دعوته إلى الفرعونية وربط الحاضر بالماضى ، ومهما يكن من أمر هذه الدعوة وصداها ومصيرها فانها قد تبلورت بعد فى نفس هيكل على صورة أخرى حين بدأ يكتب عن « الإسلام » . فقد اتسع المعنى القومى الذى كان يدعو إليه إلى صورة أشد قوة وعمقاً حين ربط تاريخ الشرق الحديث بالإسلام ودعوته ومدنيته وامبراطوريته ..

والحق أن هيكل كان فى حياته الفكرية أقرب إلى الاعتدال من زملائه زعماء المدرسة الحديثة ، كان أشد رفقاً ، وأكثر اعتدالا ، حتى أسلوبه فى الكتابة السياسية كان مثلا للرفق والأناة ، وإن لم يخل من قوة ورغبة فى الصراع .

فهو لم يعرف بالخصومات الجريئة التى عرف بها طه والعقاد ، ولم يعلن ثورته على القدماء ثورة واضحة ، وهو فى الأدب يؤمن بالملائمة بين العلم والأدب وبين تراث الشرق وحضارة الغرب وبين الإحياء والبعث من ناحية والنقل والترجمة من ناحية أخرى .

اتصل منذ شبابه الباكر بالجريدة وتتلمذ على خاله لطفى السيد ، وعاش فى هذا الجو الجديد ، فلما عاد من أوربا ، ونشأت الأحزاب ، كانت «السياسة» هى مدرسة التجديد التى جمعت طه وهيكل وعزمى وعبد الرازق .

وكان لونها الواضح وثقافتها الظاهرة : الفرنسية فى أبرز معالمها وكان منهاجها مخالفا لمنهاج المدرسة الأخرى التى أطلقت على نفسها المذهب الجديد والتى كانت أشد ثورة وهدما ، وأكثر اتصالا بالثقافة الإنجليزية ، وأكثر حرباً لحافظ وشوقى وهى مدرسة «الديوان» وعلى رأسها العقاد والمازنى وشكرى .

..ولكن هل كان طريق المدرسة الحديثة واضحاً ، .. وأن كان كذلك فماذا يعنى هيكل حين كتب فى مقدمة «ثورة الأدب[1]» .. « ومهما يكن من أمر فان ثورة التجديد فى الأدب قد ظفرت بالقديم وجرت إلى ناحيتها حراس حصونه ، حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتحها ، ولكن ما أنفق من الجهود التى هيأت للفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أيان نذهب وماذا إليه من جديد نقصد .. »

والحق أن هذا التساؤل له معناه ، وأنت حين تدرس طه وهيكل والعقاد والمازنى ، تستطيع أن تعرف فى يسر أن هدف هذه المدارس الجديدة إنما كان نقل الإنتاج الغربى إلينا فى صورة أو بأخرى . وتأتى الإجابة الواضحة على سؤال هيكل بعد فترة طويلة من حياة هؤلاء الكتاب .. بعد أكثر من عشرين عاما عندما يبدأ طه فى كتابة هامش السيرة ودعاء الكروان وهيكل فى كتابه « حياة محمد » والعقاد فى كتابه « العبقريات »

* * *

لم يغير هيكل لونه السياسى ، منذ بدء حياته الفكرية والسياسية مع الأحرار الدستوريين حتى رأس هذا الحزب وانصرف عن الأدب كلية وارتبط

---

(١) صدر عام ١٩٣٣ .

طه وهيكل فترة من الزمن فى ميدان «السياسة» ارتباطاً قوياً كان له أثره فى النهضة الأدبية ، فكم من مساجلات دارت بين الكاتبين حول مؤلفاتهما. كان أبرزها نقد طه حسين لكتاب «جان جاك روسو» وخطاب «من هيكل إلى طه» عندما أصدر « ثوره الأدب » ..

ومن هذين الخطابين يمكن للباحث أن يرسم صورة واضحة لمدرسة «السياسة» ولا يعدو الحق أو يبعد عن الواقع إذا قال أنها كانت أصرح المدارس الأدبية وأجرأها فى النقد . حتى أن كاتباً من كتاب السياسة ينقد رئيس تحريرها فى صحيفته . . على هذه الصورة .

« يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقاد ، مسرفاً فى ازدراء القراء وغالياً فى الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل

. . لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً أردأ طبعاً من كتاب الدكتور هيكل بل لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه فى كتاب هيكل .

طبع ردىء مفعم بالأغلاط المنكرة ، وورق ردىء يصرف القارىء عن أن ينظر فى الكتاب .

ثم يصف طه هذه الجرأة من نفسه فيقول :

« ما رأيك فى محرر السياسة الأدبى يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير السياسة ثم لا يستحى أن ينشر هذا النقد العنيف فى جريده السياسة . .

أليس هذا إسرافاً أو شيئاً فوق الإسراف .

كلا ، ليس إسرافاً وإنما هو القصد كل القصد ، والاعتدال كل الاعتدال فهيكل تلميذ لطفى السيد ، ولقد أذكر أن لطفى السيد علمنا حين كان مدير الجريدة أن ننقد أصحاب الصحف فى صحفهم ، وعودنا أن ننشر نقدنا راضياً به مبتهجاً له . ونحن قوم يحب بعضنا بعضاً ، ولكننا نتحاب فى الحق والعلم والأدب وحرية الرأى قبل كل شىء .

أستغفر الله بل لو علمت أن فى هذا النقد ما يغضب صاحبى أو يغيظه لنشرته ولضحيت بصحبة هيكل فى سبيل ما أعتقد أنه حق . . »

. . وفى الواقع أنه مما يحمد لهيكل أن يتقبل هذا ، وأن يرضى به ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك حين ينشر كتاب ثورة الأدب ويتناوله طه بالنقد ما يلبث أن يقول له « . . وهذا البحث الذى يشعرنى بما لك من أثر فى مجهودى وإنتاجى يجعلك صاحب فضل فيه كبير »

. . ثم يمضى هيكل فيسجل صفحة مشرقة من الإنصاف فيقول (. . ولست أخفيك أنى مدين فى حياتى ككاتب لأشخاص كثيرين شجعونى وأزرونى . ولكنك كنت وما تزال يا صديقى فى مقدمتهم . كنت وما تزال كذلك حين ألقاك وأتحدث إليك . وحين أقرؤك وأستمتع بجمال ما تكتب وعظيم لذته . وحين أفكر فيك وفيما أثرت فى الأدب وفى تاريخ الأدب من ثائرات لما تهدأ . والحق أنه إذا كانت ثورة الأدب مدينة فى العهد الأخير لعدد غير قليل من الكتاب والأدباء فهى مدينة لك بأعنف ما فيها . مدينة لك بأشد ما فيها طرافة) .

وإذا كان لنا أن نتساءل عن هذه الصداقة الأدبية الضخمة أين ذهبت . . فاننا نستطيع أن نتلقى إجابتنا من السياسة الحزبية !

* * *

يقول (جب) أن هيكل (يعمل الروية والفطنة فى تدريج الرأى العام المصرى إلى مستوى الثقافة الأوربية) وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من وصفه بالاعتدال . فهو لم يشترك فى معارك أدبية جريئة ، ولم يدخل فى نقد صارم ، إلا حين اختلف مع شوقى وكان قد كتب مقدمة الشوقيات عام ١٩٢٥ ، ثم هاجمه عام ١٩٢٧ بمقالات جعل عنوانها (أخلاق شاعر الأخلاق) .

بل أن هيكل كان هادئاً فى ميدان الصراع السياسى ، فبينما كانت الصحف

الحزبية تدوى بالآراء الجريئة ، كان يكتب فى هدوء ، فلا تحس أنه يتعصب أو يثير النقع ..

وفنه الرئيسى المقالة المطولة ، وله مقالات ذات وهج أذكرمنها على سبيل المثال (الاجتهاد والتقليد) و (أزمة العالم : أزمة خلق وعقيدة[1])

* * *

وبعد فهل نستطيع أن نجد « حياة » الكاتب فى أدبه ، أوهل تتيح لنا أثاره أن ندرس نفسيته وشخصيته ... ؟

ما أظن أن ذلك يسيرا فلم يكن هيكل حريصا على أن يجلو هذا الجانب إذا استثينا الجانب السياسى من حياته الذى كشف عنه فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » .

.. نعم نحن لا نستطيع أن نعرف الشىء الكثير عن نفسيه « هيكل » وحياته .. غيرأن الدلائل كلها تقطع بأنه ينطوىعلى « شاعرية » لاشك فيها ، فهو لم يقف أمام مرأى من مرآئى الجمال . ولامنظر من مناظر الطبيعه فى خلال أسفاره ورحلاته المتعدده إلى أوربا إلا وصفه فى قوه وافاض فى تصويره .. ورسم صورة واضحه لاحاسيسه ومشاعره إزاءه

سافر هيكل إلى أوربا فى مطلع شبابه ، ثم سافر مرات متعدده بعد ذلك ، عند ما قضى أبنه ممدوح ، وغشيت حياته الزوجيه غاشية ! فأراد أن يدفع عوامل الألم والحزن التى فرضت نفسها على حياته بتلك الرحلات التى قام بها صيف ثلاثة أعوام متواليه مع زوجه إلى عوالم الشرق والغرب .

... ووفاه ممدوح ، حادث بعيد الأثر فى حياة الدكتور هيكل وفى حياة الأدب ، فقد أصاب نفس والده بذلك اللون الحزين الذى صوره فى مقدمه كتاب « ولدى » ، والذى كان هذا الكتاب ثمره من ثماره .. وفى

---

(١) السياسة — إبريل ١٩٣٤ .

تاريخ الأدب المعاصر ، صورتان اخريان لولدى ، أحداهما للزيات والاخرى لمحمود تيمور .. وليست الصورة التى رسمها هيكل باقسى هذه الصور..

وسافر هيكل مرات إلى لبنان وسوريا والحجاز والسودان ..

وارتبطت رحلاته هذه كلها باثار فى الأدب والرحله .. كان ابرزها « منزل الوحى » الذى جاء أثر اتصال هيكل بسيره الرسول والتراث الاسلامى. وحين أراد أن يمشى فى أثر الرسول ويشهد أماكن الغزوات والمواقع !

ولا شك أن « الاعتدال » الذى يبدو واضحاً فى أنتاج الكاتب وحياته الفكرية هو صدى لأعتدال فى محيط النفس والأسرة والحياة الخاصة . . . فهو زوج منذ صدر حياته ، وقد مضى فى حياته ، على طبيعته ، يقرأ ويكتب وينشىء . . . دون ما ارتطام أو اضطراب . . .

ويبدو أن ما وصل إليه الكاتب من التبريز والشهرة ، يرجع إلى عاملين هما طبيعته الخاصة واستعداده ، وطبيعة الوضع الذى أوجده فيه اتجاهه السياسى .

ويبدو هيكل فى حياته الخاصة « رجل ليست له بدوات ، وأنه من ذلك الصنف الذى يغلب الاتجاه العقلى . . عنده على اللون الوجدانى . .

* * *

أما فيما يتعلق بصلته بالمرأة ... فيبدو أن هيكل قد أحب فى فجر شبابه ، وكان ثمرة حبه هذا قصة « زينب » ...

ثم لا تبدو المرأة فى أنتاجه الأعلى فترات متباعده ... وفى صورة غامضة غير واضحة .

هل كان له حب عظيم فى باريس . . ؟

ذلك ما نشك فيه ... فلم يرد فى أثاره ما يدل على غلبه هذا اللون ، وإنما يبدو أنه كانت هناك رؤى ... كان لها أثرها فى الالهام ...

« عرفت[1] بباريس فى ربيع ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالمنزل الذى كنت فيه ، وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرته وأمها إلى المانيا فى رحلة من هاته الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لاحسبهم يعتبروتها بعض واجبات الحياة ، وكنا أهل المنزل جميعا نقضى مابعد العشاء فى فى صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة المنزل لنا بعض قطع على البيانو اذ كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويعات بينى وبين الفتاة الكندية إذ كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالانجليزية لأنها لاتجيد الفرنسية . وكنت يؤمئذ أكتب « زينب » وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من أثار أوهام طويله عريضة . فلما كانت الليلة التى أعتزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى . فقالت :

كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ انجلترا . إننى وأن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئا كثيرا جميلا . وأن تاريخها وأثارها جديران بالكشف عنها وتقريبها للناس فى الصورة القصصية المحببة للنفس ، ولعلك أن فعلت تجعل أهداء أولى هذه الروايات التاريخية إلى »

.. هذه المراه الملهمه لهيكل ... لاتعطى صورة وجدانيه واضحة ، بقدر ما تعطى صورة عقلية محدده !.

---

(١) ثورة الادب

ومرة أخرى ... تحدث « هيكل عن المراه وأثرها فى الالهام[1] »

« .. لو اننى خاولت استقصاء نواحى الضعف فى الهام المراه الفن لطال الحديث ...

واجب المراه فى الهام الفن فرض محتوم عليها لأن الطبيعة لاتستطع أن تقوم بهذا الالهام وحدها على الوجه الأكمل . واشتراك المراه والطبيعة فى هذا الالهام هو الكفيل بكمال الفن .

... وليس كاتب أو شاعر أو مصور أو مثال أو موسيقار ، لايحدثك عن حظ من الالهام قل أو كثر ، كان لامراة فيه نصيب هو الذى أوحى إليه بخير ماله فى الفن وقد يصدر هذا الالهام عن تمليق تلك المراه لرب الفن أو عن دلها عليه أو صدها عنه أو تعذيبها اياه . وقد يصدرعن اشتراك فى الفكرة الفنيه التى يموج بها خاطره فتغذى الشراره التى تلهب شعلة الفن المقدسة فى نفس رب الفن فيضىء جوانب روحه فيندفع إلى وضع الاثر الفنى ممتلأ به فؤاده .

أليس بين سيداتنا المستنيرات من تشعر بهذا الواجب . أو تحس فى نفسها موهبة الايحاء لرب الفن موهبه لا يستطع مغالبتها ، فما بالهن إذن ينصرفن عن القيام بهذا الواجب المقدس ولا يقتضيهين شيئاً يخالف طبيعتهن النسوية الرقيقة التى صاغها الله فنا جميلا .. »

ولا يستطع هذا القول الا أن يعطينا صورة واضحة لنفس هيكل وهى تحس بالحرمان من أثر المراه فى الهام الفن أو الادب ...

---

(١) السياسة الاسبوعية ـ ٢٦ مايو ١٩٢٤ .

وبعد فقد كان الأدب أبرز مظاهر حياة « هيكل » وقد ترك فيه أثاراً باقية ، هى جزء من الإدب العربى المعاصر ، لاشك فى جودته وقوته ، وأن كان قد انصرف بعد عن الأدب إلى الحياة التى أحبها واوغل فيها ، حياة السياسة والقانون . وضرب فيهما بسهم وافر فان مراحل حياة « هيكل » ما تزال متشابكة مترابطه وهى فى مجموعها صورة واضحة لحياة مفكر . . .

* * *

ولست أدرى هل يود هيكل بعد أن فرغ من أعباء السياسة أن يعود الآن إلى ورد الأدب مرة أخرى وأن يوغل فيه . إن مقالاته التى تنشرها « أخبار اليوم » لا تعطينا هذا الدليل فهى فى مجموعها ذكريات يغلب عليها الطابع السياسى والإجتماعى ولعل قصته « هكذا خلقت » مقدمة لصحوة قد تكون بعيدة الأثر فى تجديد الاتجاه الأدبى والسير فيه بخطوات واسعة .

فريد أبو حديد



اقرأ أى كتاب من كتبه ، أو استعرض ان شئت أسماء مؤلفاته ، فانك سرعان ما تضع يدك على مفتاح شخصيته و تعرف سر نفسه ...

اقرأ « زينوبيا » ، أو « الملك الضليل » ، أو « أبو الفوارس عنترة » ، أو « آلام جحا » أو « سيف بن دى يزن » .

تجد نفسك أمام شخصية هذا الكاتب الشاعر القصصى ... الشغوف بأن يعيش مع التاريخ البعيد ، مع الشخصيات المجهولة التى أضفت عليها الأساطير والقصص والخرافات ... جواً من الغموض ، فعاشت بين السحب والغيوم . عاشت ملفعة بالحجب والضباب .

إنها القصص ، من حيوات أمثال زينوبيا ، أو امرىء القيس أو جحا ، والتى ليست فى مصدرها وفى أصلها إلا سطوراً معدودة من كلام مدفون فى بطون الكتب القديمة ، وإذا بالكاتب يأخذها ويضفى عليها من ثقافته وخياله وفنه ما يكسوها بشراً سوياً ، ويبعث فيها حياة جديدة ، ويخلق حولها جواً لاتشك لحظة وأنت تقرأها أنه قريب من الجو الذى كانت تعيش فيه هذه الشخصيات .

وليس أمامنا لكى ندرس شخصية « فريد أبو حديد » إلا مؤلفاته هذه بالاضافة إلى كتابه « عمر مكرم » .

إنه من الكتاب الذين لايتحدثون عن أنفسهم ، ولا تبدو معالم حياتهم واضحة فى كتاباتهم . إن هناك هالة من الغموض تحيط بنا من كل جانب ونحن ندرس هذه الشخصية .

كثير من الكتاب هم كذلك ، لاتعطيك آثارهم صورتهم النفسية واضحة ، لاسيما أولئك الذين لايتصلون بالصحافة اتصالا دائما مستمراً ، فان هؤلاء يظلون فى حدود حياتهم الأدبية الخالصة التى يعكفون فيها على الانتاج الأدبى المجرد . لايعطون الباحث تلك المادة التى تعينه على الكشف عن حياتهم الوجدانية فى يسر .

وكتاب كزنوبيا أو الوعاء المرمرى ، ماذا يمكن أن يعطيك عن كاتبه إلا صورة عقلية محضة ، هو أنه أديب شغوف بهذا اللون من الأدب ، محب للايغال فى أعماق التاريخ والماضى ، والذهاب بعيداً بعيداً إلى أعماق الجزيرة العربية ، وإلى الشخصيات البعيدة الغامضة ، هذه نفس شاعرة ، تندفع وراء الغوامض من اجراء التاريخ لتحاول أن تعيش فيها وتجد لذتها فى أن تبحث وراءها ، وتدرس كل مايتصل بها .

ولكن مهلا ، فان دراسة مثل هذه الشخصيات ، ليس يسيراً وليس هيناً وليس من البساطة فى شىء ، ودراسة مثل يدرس حياة جحا أو سيف ابن ذى يزن أو الملك الضليل ، يتطلب دراسة تاريخية ضخمة لعصره ، والحياة فى عهده ، والتقاليد والملابس والمجتمع والناس فى خلال هذه الفترات حتى يمكن أن يتم بناء هذه الصورة على أساس صادق من الواقع . فاذا توافرت هذه الأسس ، جاء الفن الأدبى نفسه فوضع الصورة الكاملة الواضحة ، للشخصية النابضة بالحياة ، الذاهبة إلى مداها فى الحركة والحياة .

وفريد أبو حديد حريص على أن يطوى شخصيته عن القراء ، وأن يطوى

حياته الخاصة عن الناس فلا يدعها إليهم ، وهو يقول فى أحد أبحاثه(١) « ليغفر لى القارىء أن أتحدث عن نفسى على كراهية فى طبعى للتحدث عن النفس » .

وهو لا يريد أن يقول لنا إلا أنه أحب ذلك التراث العربى الذاخر من التاريخ ، وملك عليه نفسه منذ تعلق بالادب . فاستغرق وقته ووقف عليه اهتمامه

« كان التاريخ يبدو لى إذا قرأته غير تلك السير التى يقرؤها الناس عاده ليستخرجوا منها علما أو عظة ، كنت اقرأ التاريخ ، فاذا بى أحيا مع من اقرأ سيرتهم ، وأعاشر أهل العصور الغابرة كأنما أنا من بعضهم ، أكاد أشعر بأنفاسهم وأحس باحساسهم ، واهتز لما يهزهم ، وأغضب لما يغضبون له ، وأسر لما يسرهم ، وأتألم معهم فى محنتهم . وكنت إذا قرأت فى كتب الأدب أشعر بنشوة عجيبة لما فيها من آيات تسطع فى الذهن كما يسطع النور على صفحات الجوهر الصافى ، وكنت أرى دائماً أن تلك الكنوز أثمن من أن تبقى فى مخابئها ، وأن تلك العصور أكرم وأنبل من أن تبقى طريحة فى سجل الزمن الذى انطوى ، وما أكثر ما كان لتلك السير من آثار فى نفسى وفى عقلى » .

فاديبنا محب للتاريخ ، كلف به ، صرف فى دراسته ومطالعته شبابه كله ، واستهوته الشخصيات القويه الأثر فى التاريخ ؛ ومن ذا الذى ينسى أنه أنصف « عمر مكرم » فى وقت كانت كتابة تاريخه على وجة من الانصاف لا ترضى الحاكمين ، غير أن هذا الاتجاه لم يطل أمره ، إذ تحول سريعاً إلى الفن الذى يملأ عليه قلبه ، تلك الصورة التى تتصل بالأساطير والقصص الغامض « وودت لو تواتينى القوة ويطاوعنى الطبع على أن أبلغ ما تصبو إليه نفسى فاخرج للناس صورة الحياة التى يمتلىء بها قلبى فى ثوب مختلس من تلك الكنوز

---

(١) مقدمة قصة « زينوبيا » .

الثمينة فأكون كالصائغ إذا استعار رسماً قديماً فأبرزه فى حلية جديدة يرفرف عليها روح القديم فوق هيكل حى جديد » .

* * *

غير أن هذا الاتجاه الذى استقر عليه كاتبنا بعد أن ارتفعت به السن ، وجعله مذهبه الأدبى ، ولونه الواضح الصريح ، يمكن أن يردنا إلى صباه ويلقى ضوءا على ماضيه فندرس شخصيته فى وضوح .

هذا الاغراق قصص حرب البسوس وسيف بن ذى يزن وامرىء القيس والزباء وعنترة يرسم صوره الكلف الواضح فى الشباب إلى ذلك الشاعر الذى كان يجلس فى المقاهى فى العهد الماضى فيروى قصص هذه الحروب .

كان « فريد » معجباً بهذا اللون من الرواه ، وكان فيما يبدو يتعقب هؤلاء من مكان إلى مكان ، ومن مقهى إلى مقهى ، ليسمع وليطيل السماع ، وليقضى الليالى مرهفاً سمعه وحسه إلى هذا الفيض من القصص ثم أذابه تنكفأ بعد ذلك إلى كتب التاريخ ليقرأ ويقرأ ! .

وهو لا يلبث أن يحدثنا عن هذا الاتجاه حيث يقول « ...(1) وبلغنا ميدان الحسينية ، قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعاً والبدر الباهر يتوسط السماء الصافية والأنوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمنتديات الشعبية التى تحف بالميدان .

ولاحت لنا حلقة فى منتدى كان قائماً عند مدخل الطريق الضيق المؤدى إلى المدينة ، وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الحاشد قصته . وكان فى رنين انشاده من بعيد ما يوائم نبضات قلوبنا المضطربة .

وكان الشاعر شيخاً لا أذكر أن عينى وقعت على مثل صورته ، كان

---

(1) مقدمة : الوعاء المرمرى .

نحيفاً معروق الوجه له لحية خفيفة وخطها الشيب ، ولكن عينيه الكليلتين كانتا تنبضان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر بشجن دفين . وكان يلبس عمامة بيضاء ذات عذبة تضطرب على كتفه إذا تحمس فى انشاده بصوت متهدج تنم نبراته عن حركة نفسه وحراره وجدانه . وكانت ربابته تصاحب انشاده بلحن عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حينا ويخفت حيناً ويرق فى مواضع ويعنف فى أخرى .

« .. منذ تلك الليلة صرنا من قصاد ذلك المنتدى البلدى نذهب إليه إذا اجتمعنا أو وحدانا إذا لم ندبر اجتماعا حتى أصبح لنا بعد قليل ملتقى مختاراً » .

.. ثم يصف « فريد » أثر هذه النشوة فى نفوس الشباب .. وفى الكفاح من أجل الحرية « .. كنا نجتمع هناك كل ليلة فى المنتدى ندبر مع أصحابنا خطط الجهاد فى سبيل الحرية . وكان لهذه الصداقة الجديدة أثرها العظيم عندما شبت الثورة الكبرى فى مارس من ذلك العام » و.. لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة (يقصد الشاعر) كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع فى ضبير الغيب » .

وتستطيع هذه العبارات أن تعطينا صورة لنفس فريد حديد فهو محب للبطولة ، مغرم بها ، وقد ترصد لها فى القصص ، كما اتصل بها فى الحياة فشارك فى ثورة ١٩١٩ ، وقرأ حيوات الأبطال العرب الذين استفاضت بالحرب والكفاح والدماء والبطولات ..

وهو مغرم بالأقطاب الذين تركوا فى أوطانهم وفى التاريخ آثاراً ما تزال رغم مرور الزمن قوية واضحة ، لا يمكن نسيانها أو تجاهلها ، بل هى مازالت حتى الآن تبعث فى النفس الشوق إلى التضحية والكفاح ..

وأنت تلمح من صفحات آثاره الصرامة والوضوح والرغبة إلى أن يكون صريحاً جريئاً ، تفيض نفسه بالحق ، كأنما هو من أولئك الذين

يكرهون المداورات والمناورات ويبغضون أساليب السياسة مما يطلقون عليه اللباقة أو تجميل الألفاظ مالا يحتمل. أو ما يطلقون عليه أسم الأسلوب الذى يجرح ولايسيل الدماء فهو على طبيعته واضح صريح، صارم حاد، لايعرف ميلا ولازيغا، ولايرى فى الحق مجاملة، إنما يقول كل شىء ويمضى..

ويأتى هذا متسقا مع حبه للبطولة وإعجابه بها، وهى طبيعة الفرسان ورجال الوغى الذين عاش معهم فهم لا يعرفون تلك الألوان الرقيقة اللينة ولا تلك الأساليب التى توصف بآداب الصالونات.. ولعل مرجع هذا فيما نعتقد تلك الحياة الريفية البدوية التى عاشها الكاتب فى فجر حياته.

* * *

و« فريد أبو حديد » واحد من هؤلاء الرواد الذين بدأو حياتهم الأدبية مع ثورة ١٩١٩ أو قبلها بقليل، تأثر فى فجر شبابه بالأدب الإنجليزى وأوغل فيه فقرأ لكتاب القرن التاسع عشر من مارلو إلى والترسكوت إلى دكنز. وأحب شكسبير وتأثر كثيراً بسكوت فى عمل القصة التاريخية.

واشترك فى تحرير السفور وكتب فى السياسة الأسبوعية تابلوهات قصيرة لعلها كانت أول اتجاهه القصصى.

ومضى « فريد » على طبيعته هادئاً متئداً، لا يتصل بالصحافة ولايشارك فى السياسة، ويخلص لفنه وأدبه وتركت قراءته «لآلام فرتر» أثرا يختلف عما تركت فى نفس الزيات من أثر فقد كره هذا الضعف والتخاذل، فأنشأ قصته « مذكرات المرحوم محمد » سنة ١٩١٣.

وابتدع «فريد أبو حديد» الشعر المرسل، حين ترجم أجزاء من قصة انطونيو وكليوباتره بهذا الأسلوب. ثم ترجم سهراب رستم ومضى فى اتجاهه هذا فكتب بهذه الطريقة قصة عثمان بن عفان، وخسرو وشيرين.

* * *

وظل فريد أبو حديد تتنازعه طبيعتين مختلفتين وإن كانتا قريبتين.. هى طبيعة المؤرخ، وطبيعة القصاص. كان قرأ كل أمهات الكتب التاريخية

ولمح فيها صورا غاية فى الروعة والقوة لو أنها كتبت على الطريقة الحديثة ، لو أدخل إليها فن من فن والترسكوت وشكسبير . .

لقد كانت « ربابة الشاعر » الكامنة فى أعماق فريد أبو حديد تصارع فيه « المؤرخ » ... وأخيرا غلبت عليه طبيعته فأخرج تلك الآثار الرائعة التى تقدم نفسها للخلود

« الملك الضليل — زينوبيا — الوعاء المرمرى — المهلهل سيد ربيعة ».

* * *

فاذا ذهبنا نستقصى صلة أدب الكاتب بشخصيته ، وجدناه وثيقاً قوياً ، فهو من ذوى الطبائع النقية الصريحة ، يبدو هكذا حين تتحدث معه ، وحين تقرأ له .

فى نفسه ذلك الإحساس الحاد المتدفق بالوطنية الذى صوره فى قصته الوعاء المرمرى ، وفى كتابه عمر مكرم الذى ألفه بعد معاهدة ١٩٣٦ وفى كتابه عن ثورة ٢٣ يوليه « أنا الشعب »

فاذا ذهبنا نستشف شخصيته وجدناها واضحة فى بطل قصة أزهار الشوك « فؤاد » . . الشاب المحب للريف ، الكلف بجماله وأصباحه وأمسائه واصائله المتفتح القلب ، الجياش العاطفة ، يصف أباه معجبا به « . . وكان كلما وقف هناك خطرت له خطرات من ريف النجيله ، ومن أيامه فيها وأماسيه فى أشهر الصيف ، ثم تتمثل له صور من هناك . . وكل هؤلاء الذين ملأو عليه الحياة فى تلك الشهور ، ثم تتمثل له صورة أبيه محلقة فوق هذا الخلق كله كما يحلق النسر فوق قمم الجبال . لقد عرف أباه قبل ذلك الصيف ، ولكنه عرفه فى تلك الشهور كما لم يعرفه من قبل . ففتح عينيه آخر الأمر فرآه رجلا وإنساناً كان يعيش فى ريف النجيلة البعيد أمة وحده وسط أمة أخرى يعرف أنه غريب عنها . ولكنه كان يمد يده إليها كما يمد السابح الماهر يده إلى الغريق الذى

يكافح الموج إلى جانبه[1] . . . »

ويبدو فهم « فريد أبو حديد » للحياة على هذه الصورة الواضحة القوية « . . رأى يوماً فى بعض وقفاته عوداً ضئيلا تتقاذفه الأمواج على سطح الماء تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به إلى اليمين تارة ثم تلقيه إلى اليسار . ثم إذا دوامة شديدة تجذب العود إليها فتدور به لحظة ثم تبعث به إلى الأعماق .

وكان هذا المنظر يشبه وحياً هبط عليه . فبدا له أن البشر ليسوا فى الوجود سوى هنة مثل ذلك العود الضئيل . والقضاء يقذف بهم حيث يريد ، فهم يأتون إلى الحياة بغير أن يريدوا حياة وهم يمضون فيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ، فاذا حان ذهابهم عنها ذهبوا كما جاءوا إليها قسراً وأمراً بغير أن يكون لهم إرادة » .

ويصور شخصيته فى شورة نقية « . . لقد تعود فى حياته بساطة الريف ، فهو لا يميل إلى مفاتن المدنية وملاهيها ، ولا يرتاح إلى مجامعها الصاخبة ولا إلى أنوارها التى تكاد تغشى العيون . كان نور القمر الخافت أحب إليه من أضواء المسارح الوهاجة ، وكانت أنفاس الشاطىء أروح لصدره من جو الأبهاء المزدحمة ، وكانت أغانى « قوية » الساذجة ورقصة « تعويضة » الوحشية أدعى إلى مسرته من النغمات الناشزة التى تبعثها الموسيقى الصاخبة فى حلقات الرقص الماجنة[3] . . »

* * *

يقول الأستاذ « فريد أبو حديد » أن أعظم حادث فى مجرى حياته هو دخول مدرسة المعلمين ، فقد دخلها وهو كاره وكان يحب أن يدرس الحقوق . . ولذلك لم يلبث أن حصل بعد على أجازة الحقوق وإن لم ينصرف عن التدريس

---

(١) أزهار الشوك (٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر

وكان ذلك (مفتاح) اتجاهه الأدبى الذى رسم حياته الفكرية فى المستقبل.

* * *

ويقول أن مثله الأعلى فى الحياة ان يعطى ما عنده . وهو يفضل فى الناس العدالة مع العفو . ويفضل فى النساء الكرامة مع الرحمة . وأحب الفضائل إليه عظمة القلب . وهو يرى البطولة فى الاستشهاد بماديات الحياة من أجل فكرة وهو يحب فى الزهور الوردة البورى ، وفى الطيور اليمامة . وأفضل هبات الطبيعة عنده القلب الكبير .

ولكن إلى أى حد يمكن الموائمة بين الصورة وبين الحياة نفسها . ذلك ما ندعه للتاريخ نفسه .

سلامه موسى



« ... ليس مما يتفق لكل كاتب أن تكون أولى مقالاته وباكوره حياتى الأدبية عن فلسفة ثائرة بل هائجة مثل فلسفة نيتشه . ولكن هكذا قضى القضاء أن أكتب أول ما اكتب فى حياتى ، وأنا فتى لم أبلغ العشرين مقالا فى المقتطف ١٩٠٨ عنوانه « نيتشه وابن الانسان » ولشد ما كان اغتباطى عندما رأيت الدكتور صروف يعلق على المقال فى العدد التالى بالاستغراب لهذه الفلسفة الجديدة التى تنقض بلا حياء ولامواربه الاخلاق المسيحية والفضائل الشائعة . وانى أرجع الآن بالذاكره إلى هذا المقال فاجد فيه رمزاً لهذا المركز الذى اتبوأه الآن بين الرجعين حيث اقف منهم موقف الهادم لما تصدع من العقائد الممزق لما يلى وتهتك من العادات والشرائع .. »

هكذا بدا سلامه موسى حياته كما صورها بقلمه ، الكاتب الثائر المتمرد الذى ما زال حتى الان حرباً على قديم اللغة والتاريخ والاديان والشرق .

وسلامه موسى من الكتاب الذين يؤمنون بالغرب ايمانا كاملا ، كل

ما فى الغرب من خير وشر . ومن هوى وضلال . وهو يرى أن الشرق لا يمكن أن يصل إلى المكانه المرموقه الا إذا « استغرب » استغرابا كاملا .

وسلامه موسى هو أشد كتاب مصر تطرفا فى الرأى . حتى أتهم فى وقت من الأوقات بأنه يروج رأى الملاحدة والمتحللين ودعاة المذاهب المتطرفه .

ولكن ، هناك جوانب تشرف سلامة موسى وتكتب له فى تاريخ الأدب المعاصر صفحات مشرقة : تلك هى ترجمته لنظرية التطور والتفسير المادى للتاريخ . ونظريه السيكولوجيه الحديثة بين فرويد وادلر ويونج . . فقد نقل هذه العلوم الى العربيه فى أسلوب واضح دقيق ، لم يصل إليه غيره من المشتغلين بهذه العلوم والدراسات . .

* * *

يقول المستشرق[1] جب .. « على أن الجناح الايسر المتطرف من المجددين المصريين قوامه فريق أكثره من المسيحين المصرين . وابرزهم سلامه موسى، محرر الهلال الشهرى . وقد ظهر سلامه موسى فى أول الأمر بكتابه فى الدفاع عن نظريتى التطور والاشتراكية اللتين درسهما أثناء اقامته بانجلترا .

وهو يؤثر بحبه برناردشو وولز ، وهو مثلهما يتكلم بلا خوف بل يستثير سخط الناس بمواضيع لا يتناولها أشد المجددين تطرفا الا بحذر .

ولعل خير مثال لذلك مقالته عن التوحيد التى يرده فيها إلى أصل طبيعى . وموقفه حيال الأدب العربى والاسلوب الأدبى فيه جرأة ونشاط . وهو يرى فى كل من الأدب القديم والحديث نقصا فى المعرفة الصحيحة . وفى الاتصات بحقائق الحياة

ولكنه مع تميزه عن زملائه بتطرف ارائه ، الا أنه يتوخى فى كتابته الرنه العربيه المالوفه . وهو يشبه سلفه جرجى زيدان فى أسلوبه العلمى أكثر

---

(١) تقرير جب عام ١٩٢٩

مما هو أدبى . ولكنه يمكن أن يقال أنه خير خلف لزيدان فى أحوال مصر الجديده . . »

* * *

لقد كان للانقلاب التركى — عام ١٩٢٤ — أثره فى نفس سلامه موسى فجعله مادة للكلام القبعة والطربوش .. وعن الغاء مادة الدين فى المدارس وعن الكتابة بالعامية وعن العودة إلى الفرعونية .

وكان لاثارة كل قضية من هذه القضايا صدى ودوى ، وقد جرى السجال فيها بين المجددين والمحافظين طويلا ..

يقول فى مقال له بالهلال — نوفمبر ١٩٢٢ « ليس هناك حد يجب أن نقف عنده فى اقتباسنا من الحضارة الاوربيه . يجب أن نفزع نحو أوربا . ونفتح أبوابنا على مصراعيها للحضارة الأوربية . وننقل مبادىء الديمقراطية والبرلمانية والاشتراكيه ، وهى مبادىء لم تعرفها آسيا أيام الاستبداد الاتواقرطى فى الحكومة والدين والادب العلم .

ومن واجب كتاب الصحف والمجلات أن يؤسسوا نوعا من الرقابه النيره لمنع الرجعيين ذوى الثقافة الأسيويه من نشر ارائهم فى صحفهم أو طبعها للجمهور فلا ينبغى مثلا لصاحب المجلة أو الجريدة أن ينشر دفاعا عن الحجاب أو ما يشابه ذلك .. »

وهو جرىء فى أرائه عن الحضارة « .. يجب أن نذكر أن الحضاره العصرية هى حضارة الصناعة . ويجب أن نذكر أن أوربا تختلف عن الأمم الشرقية بالصناعة وترتق عليها بها وليس هناك سبب أخر لارتقائها وتفوقها علينا . وكل ما يقال عن روحية الشرق ومادية الغرب هو لباب البلاهة وخرافات الرجعين اعداء النور والرقى » فاذا تحدث عن الشرق كان رأيه غاية فى الظلم « .. كلما ازددت معرفة بالشرق ازددت كراهية له ، وشعرت

أنه غريب بالنسبه لى وكلما ازددت معرفة بالغرب ، كلما ازددت حباله واقترابا منه واحسست بأنه يمت إلى وانا امت إليه . . »

* * *

سافر إلى أوربا عام ١٩٠٨ وعاد ١٩١٣ وامضى هذه الفترة بين باريس ولندن ، وغلب الادب الانجليزى فى نفسه على الفرنسى إذ رآه متفقا مع طبعه . . « ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح ، ولغة الادب الحر . ومع أن باريس بؤرة الاداب الاوربيه بل مشعلة الثقافة التى تعشو الى ضوئها عيون الأوربين . ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكره أكثر مما هى قطر . فانى لاتجاهى العلمى وحديثى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءه الكتب الانجليزية ، واوثرها على الفرنسيه لأن الانجليزية تعبر عن نزعه علمية تحقيقية كثيرا مانجدها بعيده أوغائبه عن المزاج الدهنى الفرنسى . ولذلك اعزو تربيتى الثقافيه إلى الانجليزية أكثر مما أغروها إلى الفرنسيه . . »

وفى لندن عرف ابسن ونيتشه . وتأثر كثيرا ببرناردشو وولز واندرجين وغاندى وكارل ماركس وجيته ودستوفسكى وفواتير . ولما عاد إلى مصر اشتغل بالصحافة وكتب فى الهلال والبلاغ وكل شىء وأنشا المجلة الجديدة سنة ١٩٢٩ .

وهو يرى « أن المولف بالمقارنه إلى الصحفى يعدنا سكا ، فان المؤلف ينزوى فى غرفته باحثا منقبا . ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر جهودى فى الصحافة كان ثقافيا فى بحث العلوم والاداب فانى قد مسست السياسة أيضا . وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الاوقات . . »

فاذا أردنا أن نعرف شيئاً عن حياة سلامة موسى الوجدانية لم نجد فى مؤلفاته — ولا فى كتابه تربية سلامه موسى — مايهدينا إلى هذا الهدف

وحياته فى أوربا فى الأغلب لم تترك عنده أثراً وجدانياً واضحاً إلا فى حدود عباراته «... كانت شهواتى الملتهمة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك كانت حرية المرأة فى أوربا الغربية : فان هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت المرأة المصرية وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها »

وهو يرى أن العزوبة تخدم الأدب أكثر مما يخدمه الزواج يقول « فى هذا العصر (١) الذى نعيش فيه حيث تتغير الأوزان والقيم الاجتماعية يحتاج الأديب إلى الحرية حتى يفكر مخلصاً ويكتب مخلصاً . فان كان أعزب استطاع ذلك . أما إذا كان متزوجاً فانه يلتزم الصمت حيث يحسب النطق ويرضى بالقيود حين يحتاج إلى الحرية ويمتدح التقاليد التى يدرك مدى خطرها »

ولا تعطينا آثاره ما يمكننا من معرفة هذا الجانب الوجدانى فى حياته وهو لم يتحدث عن الحب فى الحياة إلا على طريقته العلمية الخالصة .

يقول « الواقع أن الحياة أكبر من الحب . وأن الانسان يستطع أن يرصد حياته لعمل عظيم يستغرق كل عقله وكل قلبه وكل مجهوده . كأن يتوخى تحقيق مذهب أو اختراع آلة أو توجيه شعب .

ولكن الحب هو السعادة أو أقرب إلى السعادة . وفيه تتبلور أخلاقنا وتبدو فى جوهرها الأصيل . وهو يربينا ويستنبط منا أسمى ما فى أخلاقنا .

ولكنه يبدو مستقيم الرأى حين يتناول حب العاطفة وحب الجنس فيقول « هناك خطأ شائع هو أن الحب بين محبين إنما يرجع إلى الغريزة الجنسية لا أكثر . وهذا التباس يحتاج إلى بعض التحليل . فان الاشتهاء يرافق الحب

---

(١) كتب هذا سنة ١٩٤٢ .

ولكنه ليس أصله ، بل يحدث أحياناً أننا عندما نحب امرأة حباً عظيما فاننا نرفعها إلى مرتبة من الطهارة ونسمو بجمالها إلى معانى من القداسة بحيث تتقهقر الغريزة أمام هذه الاعتبارات .

ولكن الحب ينتمى إلى أصل آخر هو ذلك التعلق الذى نما فى طفولتنا وربطنا بالام . وهذا هو الذى يجعل فى الحب حنانا ورقة ورحمة . ونحن حين نحب امرأه إنما فى الواقع نحب صوره الام فى وجهها وقامتها وصوتها . لأننا قد نشأنا على أن نكبر من شأن الصفات التى تتحلى بها أمهاتنا » .

هذا مايعطينا سلامه موسى من حديث عن الحب . فلا نستطيع أن نذهب بعيداً إلاحين يقول «أن حب الرجل يكاد يقتصر على المرأة ، أى على زوجته» وكاتبنا فى هذا يصور الطبيعة المسيحية السوية التى تعيش على الزوجة الواحدة ، وتتاقلم فى محيط الأسرة وحدها .

* * *

يمكن القول بأن سلامه موسى انجليزى الثقافة ، تلغرافى الأسلوب ، عالم النزعة ، وقد استطاع فى خلال هذه الحقبة الطويلة أن ينقل إلى العربية عشرات من الآراء والأفكار والمذاهب الحديثة ، كان فى مقدمتها دعوته إلى الاشتراكية وقد بسطها فى الصحف وقربها إلى أذهان المثقفين والمتوسطين .

ولكنه شغف بكتابة القصة القصيرة فى السنوات الأخيرة مع أنه لم يعالجها فى شبابه ، ونحا فيه المنحى العلمى الذى يعالج مشاكل المجتمع أو مشاكل الحضارة .

يقول « كامفماير » عنه « . . وهو بالرغم مما اشتهر به من دفاعه عن الأسلوب البرقى وعدائه لتنميق العربية الكلاسيكية يكتب غالباً بأسلوب أنيق لايخلو من بعض التنميق » .

وهو يفهم مهمة الكاتب وفق مذهبه العلمى وعلى ضوءه . . . « أسوأ[1] الناس هو ذلك الكاتب أو المؤلف الذى ينكب على الورق والحبر والقلم لايعرف غيرها . فان شخصيته انسانية هزيلة . ذلك أننا يجب أن نكتب لكى نحيا ونحيا لكى نكتب وإذن يجب أن نختلط بالمجتمع ، ونشتغل بالسياسة العالمية ، ونكافح من أجل المبادىء الاجتماعية . ونحب جمال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقل . يجب أن نشتغل بالسوق والبورصة والمصنع المزرعة . نسأل عن نظمها وأجور العمال فيها ومساكنهم وثقافتهم » .

وبعد فان سلامه موسى لا يزال على ارتفاع السن ، حاد القلم فوار العاطفة فيما آمن به من آراء . ولعل طبيعته العقلية الخالصة هى التى حفظت عليه شبابه فهو يمشى منصوب القامة سريع الخطا وهو لا يلبث أن يشتبك فى معارك فى الأدب أو الإجتماع يؤكد فيها ذلك المعنى الذى يذهب إليه دائما وهو أنه يسبق الجيل ! .

---

(1) أخبار اليوم ١٦ - ٨ - ١٩٥٢

الدكتور أحمد زكى

بدأ حياته فى محيط العلم والكيميا والبحث عن الميكروب . ومقالاته الأولى فى الرسالة سنة ١٩٣٢ — وهى أول ما قرأت له — لبست إلا موضوعات من العلم مكتوبة بأسلوب أديب . . وكان يطلق عليها قصة الميكروب ... ثم سلطة علمية ، وبين المسموع والمقروء .

ثم بدأ يكتب فى الهلال ولم تكن أبحاثه ولاتزال أدبية خالصة ، إنه رجل يتصل بعواطف الناس وتجاربهم وأحاسيسهم وينفذ إلى أعماق المعانى النفسية والإجتماعية فيصورها فى أسلوب فريد تخصص فيه وعرف به .

ولكنه فى فجر حياته ترجم قصة « غادة الكاميليا » ليضع فى معانى الكاتب روحه وعاطفته وأشواقه ... كما فعل الزيات فى آلام فرتر .

وكنت أحب فيه أن الأدب عنده يأخذ أسلوب العلم . وأنه يمزج العلم بالأدب مزجاً يجعله أقرب إلى السهل الممتنع . فلا نرى فيه جفاف العلم ولا ميوعه الأدب .

وفى خلال هذه الفترة كتب الدكتور أحمد زكى كثيراً . وملأ الدنيا بآثاره

وانتاجه . وإن لم يصدر له إلا كتابين اثنين : أحدهما « ساعات السحر » والثانى « مع الناس » .

وبعد فما موضع الدكتور أحمد زكى فى هذا الكتاب ! .

أنه يمثل فى نظرى الأديب العالم . حقاً . أنه لم يبدأ مع طه حسين وهيكل والمازنى وزكى مبارك وتأخر عنهم قليلا .

أنه كان هناك يعيش فى المعامل الكيماوية ولكنه لم يلبث أن خرج من معمله ونزل إلى الميدان لينقل لنا العلم بلغة الأدب . ثم مضى فى طريقه إلى آخر الشوط .

وأمضى الدكتور أحمد زكى فجر شبابه فى أوربا حيث تعلم فى انجلترا والنمسا يقول « تعلمت فى أربع جامعات فى انجلترا ثم خامسة فى أحضان الجبال . جبال التيرول بالنمسا وقضيت فيها أجمع عشر سنوات أو نحوها استغرقت عنفوان شبابى والجانب الأزهر من عمرى . كنت فى أول أمرى بادى الحس مرهفة . ثم تعلمت من القوم اتئلامه وتعودت أن أسير فى طرقات الحياة هادئاً بارداً لا أبالى وإن تأججت فى قلبى مما ألتى وممن ألتى جمرات . وتنقلت بن الأسر انزل بها . فتارة أحمد وتاره أزم . وأسره لفتاه معنا فى الجامعة نزلت بها وأقمت طويلا . وامتزج الليمون بالسكر فى شراب بكوب . وشربت المر من هذا الكوب . ثم قطعت الوشائج على العيون الدامعة . وكانت تلك العيون عينى » .

هذه تجربة الحياة فى أوربا . الرحلة والبحث وراء المجهول والحب ... والغربة والحرمان تطهر النفس الانسانية وتمدها بالضياء فى كوب من الألم وهناك تجربة الحياة الباكرة .

« كنت صبياً ذا حياء بالغ والحياء خوف ولوعده الآباء والأمهات جميلا وهكذا كانوا يعدونه ونحن صبية . والخوف لايشحذ عليه مخلب أو ناب والأذى يهدى إلى الناس لايكون إلا بمخلب أو ناب .

وأدركتني الرجولة فاصابتني بنوبات من زهد فى الحياة . تأتى ثم تزول واضحك وراءه نظرات إلى أصول الحياة ثاقبة . تغرى الناظر بالحزن والكآبه فاذا جاء هذا الرجل يتحيف لى حقاً ، أو يوقد النار فى طرف ردائى خلعت ردائى ودست النار بحذائى ثم ذهبت سبيلى وأنا أقول لابد فى الحياة من عنت وهذا بعض عنتها .

وقد أغضب فادمدم وأفقد وعي فيهلع الناس من خشيه ومن الغضب المجنون ثم ينحسر السحاب ويعود الصفاء وأرى الشمس يهيجه ساطعة وفى ضوء الشمس السافرة أعود فأرى شئون الحياة على حقيقتها قليله الخطر قصيرة العمر وأرى الناس على حقيقتهم من ضال ومهتد » وليس على الضال تبعه ضلاله . وليس المهتدى فضل اهتدائه » .

هذه كلمات فيلسوف وهى مزية الدكتور أحمد زكى . إنه رجل خبر الحياة وليست أبحاثه ودراساته إلا هذه الخلاصات من التجربة .

لقد بدأ حياته مثالياً . ولكن هل مضى هكذا أم اضطرته الدنيا إلى شىء من الملاينة ومواجهة الأمور بالواقعية .

«غلبتنى فى الشباب فكرة المجد . وفكرة السمو على المادة . وهى فكرة تتصل بالأهداف العليا من الحياة . ومن شأن هذه الأهداف أن تبعد عن الأسباب التى تؤدى إلى الكسب والكسب الكثير . فكثيراً ما صادفت فى حياتى كسباً كثيراً أو باباً يؤهل داخله للكسب الكثير فاشحت عنه .

« .. ترك مصر على أثر عرض سخى ، عمل وزيجه غنيه ، قال لا ... فى آخر لحظة . وأصبح على الباخرة إلى الحرية .

« وتماديت فى التقليل من أمر المال حتى اتخذت زوجتى من لفظه المجد موطنا للتهكم على . عندما تريد أن تمزح . وإذا بى أقترب من الكهولة » ويبدو أنه ندم على هذا الاتجاه عندما تبين له أن كل شىء يشترى بالمال حتى الآخرة والجنه .

« وأول درس تعلمته أن نطلب المال لننفقه فى سبيل الله ولنحرر به أنفسنا وفكرنا وعرضنا .

وفى الصداقة تحول أيضاً « مربى زمان آمنت فيه بالصداقة وبقوتها واعتمدت عليها . ثم جرت الحياة فاذا بالصداقات تقف وإذا بالاخلاص يضعف فتنقلب الصداقة خصومة . ووجدت فى آخر الحياة أن خير ما يفعل المرء ألا يعتمد على أحد وأن يعتمد على نفسه فرداً ، وحتى الأبناء لا يغنون » ومن هنا تبدو حياة الدكتور أحمد زكى حافلة بالتجربة والرحلة . فأى ألوان الأدب إليه: «كل ألوان الأدب حبيبة إلى ، ولكن، لعل أحبها ذلك الأدب الذى أجلس إلى كتابه فيحدثنى كأنما هو جليس يقول لى وأقول له ... الأدب الذى لا يخرج عن إحدى اثنين . إما عقل جبار أو عاطفة جارفة . الأدب الذى يتفتق به الذهن تفتق البراعم فى الزهر . والربيع فى ابانه .

وأكره ما أكره فى الأدب ذلك الشىء المائع . والذى ليس به صلابة الرجل ولا نعومة الأنثى ، وشى آخر فى الأدب صغر عن أن يكون أدبا . تلك الألفاظ المرصوصة التى لا تحمل معنى » .

وفى حياة الدكتور أحمد زكى اكثر من رجل تأثر بهم وأفاد منهم . ولكن والده هو الرجل الأول . علمه الايمان ، وعلمه الأدب « وادب المتنبي خاصة ، ثم مصطفى كامل تأثر به فى نعومة اظفاره ، وتأثر بعبد العزيز فهمى ولطفى السيد ، وتأثر بالأموات اكثر مما تأثر بالاحياء

ولكن هل فى حياة الدكتور أحمد زكى امراه .. انه يجيب بقوله « واى رجل لم تلعب المراة فى حياته دوراً . إن الحياة حافز من حوافز الحياة الكبرى ، والمدرسة والكلية والجامعة ان علمت الشباب ماعلمت ، ووسعت من عقله ما وسعت ، فليس معلما للقلب وموسعا لآفاقه ، كالمرآه ، بالمرأه تنبت فى قلب الرجل كل حس بالحسن جميل ، وكل عاطفة بالخير مشبعه ، والرجل يغامر ولكنه اكثر مغامره إذا وقفت وراءه امراه .

والمراة التى كانت فى حياتى زوجتى »

* * *

وفى ميدان الشعر للدكتور احمد زكى جوله . كان فى شبابه الباكر ينظم الشعر . بدأ ذلك عند ما بدأ قلبه تدخله اول احاسيس الحب . وكان ذلك فى الثامنة عشرة .

ولكنه لم يذهب مذهب الشعراء ، وليس له ديوان . وإنما احب شعر المتنبي والبحترى وابن رومى وتأثر بهم .

ويقرأ الدكتور احمد زكى كثيراً ولكن هو للعلم قبل الأدب ، وان المائدة الأولى فى حياته طبقها الأول والأصيل والأخطر هو العلم وما الأدب عنده إلا فاكهة تأتى فى آخر المطاف وهو يحتمى بالأدب عندما يستخف العلماء ويحتمي بالادب عندما يستخف العلماء .

وأنسب وقت عنده للكتابة هو السحر . بعد انتصاف الليل إلى ان يصيح عند الفجر الديك « وكثيراً ما ارى شقشقة الصباح فاقف عند النافذة اتنسم نسائم الصباح الباردة قبل أن أعود إلى الفراش أستكمل نوما . وبعد فما مكان الدكتور أحمد زكى فى الأدب المعاصر .

الحق انى اعده من كتاب التأمل والغوص إلى اعماق النفوس ، والبحث عن السرائر والشمائل فى حياة الناس ولأسلوبه الذى يمتزج فيه العلم بالادب اثر فى طرافه هذا الفن الذى استحدثه بعرض خبرته وتجاربه وقراءته فى هذه الابحاث الاجتماعية ، وهو فى هذا الجانب البارز من انتاجه فيلسوف .

ولا شك إن كان لرحلاته وأسفاره أثرها فى تكوين هذا الطابع الواضح المميز فى انتاجه وعرضه للمسائل وهو وإن لم يكن من أولئك المصارعين الذين يرغبون فى دخول حلبة السجال والنقاش . وإنى لأراه من أولئك المسالمين

الراغبين فى الجنوح عن الناس ولكنه يدفع هذا الرأى حين يقول « وعلمتنى الحياة شيئا من عناد هو عناد الفكرة ، أثبت عليها ما اقتنعت بها . ولو قام الخمسة الرجال والعشرة من حول المائدة يدللون على بطلانها وقد تزعزعنى المعارضة القوية فأكاد اتهم بصيرتى ، ثم أعود إلى نفسى أقوى ما أكون إيمانا بها » .

وللدكتور أحمد زكى فى الحديث والإلقاء طريقة كنت أظنها تكلفاً غير أنى حين جلست أتحدث معه رأيتها طبيعة فيه وهى تعطى ذلك المعنى الروحى الجميل . معنى القلب الخافق والنفس الجياشه التى حد العلم من جيشانها وأعطاها هذا اللون الوقور من الآناة والاتئاد .

كامل كيلانى

بدأ كامل كيلانى حياته الادبية على أسلوب يوحى بأنه سيأخذ مكانه الطبيعى ، بين صفوف الادباء والمؤرخين .

بل أن اتجاهه التاريخى كان غالبا على اتجاهه الادبى ، تشهد بذلك مؤلفاته . ملوك الطوائف ومصارع الخلفاء ، ومصارع الأعيان

ثم برز اتجاهه إلى الشعر ، فهو شاعر يخفى أثاره الشعريه ويحتفظ بها لنفسه ثم بدا يراجع ابن زيدون ، وابن الرومى

ثم اتصل بالادب الاندلسى ، وترجم كتاب نظرات فى تاريخ الاسلامى لدوزى، واتجه بعدذلك بعنف إلى المعرى ، وعاش طويلا معه ، وأخرج «رساله الغفران » إلى هنا ، كان كامل كيلانى قد أنفق صدراً من حياته فى هذا الجو الأدبى التاريخى الشعرى . فكيف قفز بعد ذلك إلى القصه فعاش لها وحشدلها جهوده كلها حتى اخرج قصصا تربو على المائه والخمسين . . ؟

الواقع أن هذا الاتجاه القصصى عند كامل كيلانى إنما كان نتيجة طبيعيه لطابع شخصيته ومعالم نفسه ، ولو أنه لم يكتب القصه لعق فطرته و لظل

فى عداد « الأدباء » ولم يقفز إلى صفوف « الرواد »

أن كل أثر من آثار كامل كيلانى فى مستهل حياته الأدبيه يعطينا خيطا من خيوط شخصيته القصيصه كما جاءت بعد ذلك قوية خلاقه عندما ابدعت هذا اللون الجديد فى الادب العربى . وهو قصص الاطفال .

فان التاريخ والشعر والادب كلها نوافذ على الفن القصصى واعداد له . وهو « النواه » التى تخلق الروايه . .

فاذا عدنا إلى الوراء ، إلى حياه كامل كيلانى وجدناها قد رسمت وفق أسلوب قصصى ، فقد تفتحت روحه على الاسطوره العربية ، فاندفع يقرأ كل اسطوره فى كل أدب

قرا ذات الهمة ، وعنتره ، وسيف بن زى يزن ، وفيروز شاه ، وحمزة البهلوان ، والظاهر ببيرس وهى فى مجموعها تبلغ ١٧٠ كتاباً ولكن هذا الرصيد الضخم لم يكفى القارىء الطلعة ، الدى اندفع يقرأ الاساطير فى الأدب الأوربى ، روبنسن كروز ، وجفلر ، وغيرها من اساطير الهند واليونان فانشأ بهذه القراءات فى أعماقه منطقة سحريه عجيبة ، ظل يعيش فيها حتى انفجر حاجزها عندما بلغ غاية قوته ، على هذه الصورة الرائعه .

وأمده التاريخ بالمادة الخام ، فقد قرأ إلى هذه القصص ، أمهات كتب التاريخ ، وامدة الشعر باللوحات الفنيه ، وهو فيما يروى — قرأ كل مخطوط ومطبوع من شعر العرب ، ثم أمده الأدب الانجليزى والفرنسى بالوضوح والبساطه والدقة . .

* * *

احب كامل الكيلانى شخصيتان فى الأدب العربى ، وكلف بهما كلفا عجيبا : هما « المعرى » و « جحا »

وهو يقول فى ذلك أنهما يجمعان فى نفسه أهواءه وآرائه وأصداء نفسه

فهو جماع بين « المعرى » العابس المتجهم و « جحا » الباسم الساخر .

ولعله انشأ فن قصص الأطفال لأنه لم يجد فى شبابه قصة عربية صالحة . تسد هذا الفرغ ، فلماأحس التفوق أقبل عليه بفهم ومقدره ، وهو أيضاقد ضاق بما أولى الأدب الانجليزى شخصيه « نصر الدين خوجه » جحا التركى ، هذا التقدير ، فى حين أن جحا العربى « الغصن دجين بن ثابت » أقدم منه تاريخا ، وان أغلب ما نسب إلى نصر الدين هو فى الحق - على حد قول الكيلانى - من آثار أبو الغصن ..

وجحا أبو الغصن يمثل الشخصية المصرية المرحة الفكهه . . وتقوم فلسفة فكاهته على قاعدة : عامل الناس بما اختاروا أن يعاملوك به

ومثل ذلك أن أصحاب جحا قالوا له وقد وجدوا عنده «خروفا» سمينا ، أن القيامه ستقوم بكره ، ولذلك فان الخروف لا بقاء له وذبحوه ، وأوقدوا النار لشيه ، فجاء جحا وألقى بملابسهم فى النار . . . فلما سألوه دهشين لماذا فعل هذا : قال ألم تقولوا أن القيامة ستقوم بكره ، إذن فلا حاجة إلى هذه الملابس . . .

* * *

يقول الاستاذ الكيلانى أن « الاسطورة » دعامة حياته .. لقد كان الابن الرابع عشر لأمه بعد أن مات أخوته ... فنشأ فى جو سحرى يعبق بالاساطير والأغانى . . .

فلما بدأ يقرأ تلقى أولى دروس الأدب على يد بائع بسبوسة وشاعر على الربابة وعربجى . فلما بدأت صور الاساطير تتبلور فى نفسه كتب أول قصة «سيرة للأمير صفوان وما جرى له بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال .. »

وكان الحاج مصطفى الحلبى بائع البسوسة .. هو أولى من كون ملكته الادبيه ، وهو غير الحلبى الناشر ، وكان هذا البائع يحفظ عن ظهر قلب قصائد الشاعر الصوفى عبد الغنى النابلسى .

ثم تلقى دروسا أخرى ، على يد الشيخ محمود الملاح الشاعر الذى كان يغنى على الربابة فى القهوة المواجهة لحارتهم وكانت صداقته الأسطى محمد الشيخ العربى من امتع الصداقات الأدبية .

ويروى الأستاذ الكيلانى قصة طبع سيره الامير صفوان فيقول أنه أرسلها إلى حد الكتبيه فى شارع الازهر ، فاعجب بها وطلب مقابله المؤلف ، فلما ذهب إليــه ، وكان يلبس جلبابا فقيراً وفيقابا وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما . . وكان يبدو أقل من ذلك ، نظراً لنحافة قوامه وقصر قامته مما حمل الشاعر شوقى على أن يسميه « عقرب الثوانى[1] » . .

فلما رآه الكتبي قال : ابنه .. أى أنت ابن المؤلف ، فقال له بل هو انا المؤلف نفسه ، فنظر إليه فى شراسه وقال : اذهب وعندما تكبر عد ..

ومضى الكيلانى حزينا ضيق الصدر ، تدور به الدنيا ، فقد فشل فى المعركه الأولى .

. . .

وكامل الكيلانى لايفضل أدب على أدب ولا كاتب على كاتب آخر ولا قصيدة على قصيدة أخرى إذ أن « آية الجمال أنك تعيش مع كل عظيم فتراه أشبه بالحسناء التى تنسيك جميع الحسان . »

أما أبا العلاء فيختلف وميزته عند الكيلانى أنه يعبر عن كل أفكاره . فهو يرى نفسه شبيها به « انسى الولادة وحشى الغريزة » ويرجع هذا إلى أنه ولد فى احضان جبل المقطم ، فالف منذ طفولته العزله الباكره وفلسفته فى هذا أنه لايرتبط مع العالم إلا فى أضيق الحدود . وقد كان هذا مما اتاح له أن يقرأ ويستوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر

---

(١) الكيلانى كعقرب الثوانى قصير ولكنه سريع الحظى منتج يأتى بدقائق الامور

وأهم حادث أثر فى مجرى حياته ، وهو أن طائفة من أصدقائه ماتوا سنة ١٩١٤ بالهيضه ، ففقدهم فجأه ، وكان بعضهم أقوى منه صحه ... فأحس بأن القدر قد تخطاه خطئا ، وان ما بقى من عمره إنما هو زيادة ورسم الحادث له فلسفة عميقة فى الايمان بالقدر ، والاستهانة بالحياة . . وسأل مرة لو بقى يوم من عمره ماذا يفعل ، فاجاب : أكمل آخر ملزمه من كتابى .

. . . واصيب مرة بازمة قلبيه ، فلم يحزنه خلالها الا انه لم يقرا كتاب « برودكستر » وهو من ابعد الكتب التى قراها اثرا فى حياته وقد توفر على قرائته بعد ان ابل من ازمته ... حتى لايندم عليه لو المت به ازمه اخرى

* * *

هذا الشاعر ، هذا الرجل الذى عاش فى الاساطير ، والقصص والروئى بين الف ليلة وبين حروب سيف بن ذى يزن الذى يحبه كثيرا

. . . هل له قلب . هل أحب . . . ، ماذا كان أثر الحب فى أدبه وحياته . . .

أن قصة قلب الكيلانى لم تكتب على الصوره المروعة التى يحتفظ بها فى أعماقه ، .. أنه لايريد أن يطلع أحداً على هذا السر فى هذا السن ، ولكن قصة « سنيه » فى مجموعته القصصية « مختار القصص » تعطى صوره قريبه لفرتر الذى أوشك أن ينتحر فعلا ، لولا خاطر شعرى كان سببا فى انقاذه ، هو أنه لم يودع فراشه الذى امضى حياته فى احضانه ، وهو ودود الوف . . بالطبع !

هذا الحب دفعه إلى أن يحفظ ديوان العباس بن الأحنف ، ويسترجعه ، وتتراءى له فى خلال شطراته ، احلامه وأماله ومشاعره . .

لقد أحب العباس بن الأحنف حبا صادقا نقيا، وكذلك أحب الكيلانى ..

* * *

ولا تكتمل شخصية « كامل الكيلانى » إلا إذا تحدثنا عن ندوته، فهى جزء من شخصية . أن فصولا كامله من تاريخ الأدب المعاصر يجب أن تكتب فى ندوه الكيلانى ، فان أحاديث شوقى ومطران وداود بركات وأحمد زكى شيخ العروبه وشهبندر وصادق عنبرالتى جرت فى هذه الندوه هى عصاره هذا التاريخ الحى ..

* * *

زوجات فى الادب العربى المعاصر

كثيرا ما تكون الحياة الزوجية أشبه بالزهرة المونقة ، الرائعة المظهر ، العطرية الشذى . فى مظهرها وطابعها ، وكثيراً أيضاً ما تكون أشبه بالزهرة فى سرعة ذبولها .

... وهم كتاب أربعة ، عرفوا الحب ، وجمعهم الزواج بمن أحبوا ، ثم شاءت يد الموت ، أن تفرق بينهم وبين من أحبوا فكان « موت الزوجة » فاجعة بعيدة الأثر فى حياة هؤلاء الكتاب والشعراء ، فأطلقت أقلامهم ، وأسالت على شباتها شعراً ونثراً . غاية فى الروعة والقوة ، تفنى الأجيال ويظل هو خالداً ، يصور ذلك الحزن المقدس الذى انطوت عليه نفوس أحبت وفقدت ، وعاشت على ذكرى من تحب .. لم يكن رثاء الزوجة معروفاً من قبل فى الأدب العربى ، فهو « فن مستحدث » وتعد قصيدة البارودى ـ الشاعر الذى يضعه النقاد علما على أولى مراحل النهضة الشعرية فى الأدب العربى الحديث باكورة هذا الفن .

أيدى المنون

كان البارودى قد نفى إلى جزيرة سرنديب مع العرابيين ، وهناك فى منفاه وبعد أكثر من عشرة أعوام جاءه النبأ بوفاة زوجه فى مصر .. فتلقاه الرجل الأسير فى جزع وحزن بالغين . إذ كانت سنه قد علت ، وكان النفى قد هد قواه . . .

وهذه أبيات من قصيدته الحزينة :

أيد المنون قدحت أى زناد ... وأطرت أى شعلة بفوادى

أوهنت عزمى وهو حمله فيلق ... وحطمت عودى وهو رمح طراد

ماكنت أحسبنى أروع لحادث ... حتى منيت به فأوهن أدى

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى ... تقوى على رد الحبيب الغادى

يا دهر فيم فجعتني بحليلة | كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها | أفلا رحمت من الضنى أولادى
أفردتهن فلم ينمن توجعاً | قرحى العيون رواجف الأكباد
ألقين در عقودهن وصغن من | در الدموع قلائد الأجياد
يبكين من وله فراق أحبة | كانت لهن كثيرة الاسعاد
هيهات بعدك أن تقر جوانحى | أسفاً لبعدك أو يلين مهادى
ولهى عليك مصاحب لمسيرتى | والدمع فيك ملازم لوسادى
فاذا انتهت فأنت أول ذكرتى | وإذا أنتهيت فأنت آخر زادى
سر يا نسيم فبلغ القبر الذى | بحمى الامام تحيتى ووادى
كل امرىء يوماً يلاقى ربه | والناس فى الدنيا على ميعاد

ومهما يكن من سذاجة التعبير وبساطته فان القصيدة تنطوى على «لوعة» حزن صادقة ، وتصور الأزمة النفسية العاتية التى ألمت بالبارودى حين انبىء بوفاة زوجه وهو فى منفاه وأن بدا عليه التجمل والاعتصام بالصبر والايمان

أنات حائرة

فجع الشاعر « عزيز أباظه » فى زوجه ، فأخرج ديواناً كاملا من قصائد الرثاء لها ، فكان بذلك أول عمل أدبى كامل عن رثاء الزوجة فى الأدب العربى المعاصر ويبدو (عزيز أباظه) فى شعره مثال المحب الوفى ، الذى ترفع حبه عن الدنايا وتبرأ من الاثم ، فلما فقد من أحب صارعته أهوال الحياة ، فذهبت به إلى كل مكان .

ولما أن ضاق صدره ذهب إلى أرض النبوة وطاف بالكعبة .. عله يجد لأزمته الروحية فرحا ، ولكن دون جدوى !

وهذا نموذج من شعره عنها فى الحرم :

وقفت أناجى الله عند المشاعر | وقد خشعت نفسى وجاشت خواطرى
فقلت له قد شفها فاذا بها | ضنى دب حال من العمر ناضر

وحاقت بها الأحداث شتى شكولها ... فلم تلقها إلا بايمان صابر
أخ فأخ ثان فثالث ... تهاووا دراكا كالنجوم الزواهر
تلقت على ضعف مصيبات فقدهم ... فناءت بفداح من الخطب صاهر
وزالت كطل الفجر لم تخل ورضة ... تعاهدها من عبقرى المآثر
وقلت له يا رب أقسم صادقاً ... وأنت عليم ربنا بالسرائر
فما برمت يوماً بداء ولا شكت ... لغيرك ما قدرته من مقادر

ويقول فى قصيدة أخرى :

يذكرنيك كل جليل أمر ... وكل يسيره فتذوب نفسى
إذا سكب الصباح فأنت همى ... وإذا وقب المساء فأنت أنسى
جمعت على الهوى طرفى نهارى ... كأنى لم أرع بنواك أمسى
رعاك الله ما فارقت روحى ... وإن فارقت بعض الوقت حسى
ذكر القصر ذا الابهاء تعلو ... قواعده على كرم وترسى
يرف رفاهه وسنى ويشرا ... كما زفت عروس يوم عرس
فما زالت صروف الدهر تجرى ... بمكروه من الأقدار نحسى
فماتوا كالنجوم الزهو خمسا ... وما كانوا وحقك غير خمس
حملت مصيرهم فعييت حزناً ... فرحت شهيدة تفديك نفسى

من وحى المرأة

لاشك أن حباً عظيما ذلك الذى استطاع أن يخرج للأدب العربى هذه الآيات الخالدة من الشعر والنثر ، فهذه القصائد والصور التى أخرجها بالشعر عزيز أباظه وعبد الرحمن صدقى وبالنثر سعيد العريان لجديرة بأن توحى إلى النفس الثقة بوجود المرأة الملهمة فى مصر .

... لم يكن عبد الرحمن صدقى بالشاعر المنتج ، وإن كانت له قبل الفاجعة بعض مقطوعات وقصائد كان يقولها بين آن وآخر .

ولكنك تعجب ، حين ترى صدقى يسرف فى إبداع الشعر ، إسرافاً عجيباً ، بعد هذه الفاجعة ويكتب بضعاً وسبعين قصيدة فى فترة لاتتجاوز العام .

وهى قصائد جيدة ممتعة رائعة — كقصائد عزيز أباظه — وهى جيدة السبك ، دقيقة الأداء ، مشرقة الديباجة ، واضحة الملامح تصدر عن نفس صادقة فى ألمها وجزعها .

وتسأل صدقى عن سر ذلك فيقول لك : إن النثر لم يشأ أن يطاوعه فى الأداء بعد هذه الفاجعة ، واستجاب له الشعر .

كان يرى صدقى فى زوجه حاجة العقل والحس والنفس والروح ، ورفيق الرحلة وخير سمير للحديث ينضد ، ويجلسان للأشعار يدرسانها معا . ويمتازشعر صدقى بأنه يصور آلام نفس صادقة الحس ، وأحزان روح مفعمة باللوعة ، ولكنه يتعالى عن الصراخ .

وقد تسامى صدقى بالحزن حتى جعله مادة فنه ، ونفس عن الألم بالصورة الرفيعة ، يقول فى وصف زوجه :

تأملتها زوجى فمنظرها الغض	ومعقولها الرأسى ومخبرها المحض
بدائع خلق قد تآلف نظمها	فما أن يوفيهن نظم ولا قرض
لقد دنت بالحب الذى انتظم الدنى	فلاقت كمالات به بعضها البعض
إلى أن دعا داعى المنون بزوجتى	وصار إلى عقم الفلا ذلك الفيض
وعنى على هذى الكمالات كلها	وهيل عليها الترب واستوت الأرض
توليت كالمجنون أعول منكراً	إلى أى حد راح بالقدر البغض
مضى العام لا أقضى التعجب مذ قضت	كأن البرايا منذ آدم لم يقضوا

ويقول فى قصيدة أخرى :

أيا غرفة مرموقة لصق غرفتى	مطفأة الأنوار رهناً بظلمـــه

رى بابك المطروق بالأمس موصداً — ويخدع زوجى أنت بل أنت جنتى
فأدعو بزوجى وهى جد سميعة — لا بمعرى ولكن الصدى رجع دعوتى
لقد كنت يازوجى لدى الصبح موقظى — وكنت حسيبى فى خروجى وأوبتى
فما لى لا ألقاك يومى وليلتى — وبابك من بابى على قيد خطوتى

تحت الرماد

ثم يجىء دور الرثاء فى النثر ، هذ الرثاء الرائع الذى كتبه سعيد العريان ونشر منه فصولا فى الصحف سنة ١٩٤٠ ، سنة[1] ١٩٤١ .

يتمثل فى هذا الرثاء الإيمان والصبر والحنين والحب الدافق العميق ، فقد كانت مأساة الأستاذ العريان — تتمثل له فى كل لحظة فى صورة الطفلة التى تركتها أمها فى يومها الأول .. استمع إليه فى يوم الذكرى الأولى لوفاتها :

« هذه الشعاعات المنبعثة من شتى جهات المدينة ، وضواحيها صاعدة إلى السماء ، تلتقى وتفترق .. وتأتلف وتختلف . لكأنى رأيتها قبل الليلة .. وفى مثل هذه الليلة ، عم تبحث فى حواشى الأفق وتتبعها عيناى ..

إن لى فى السماء ضالة أنشدها .

... وأغمضت عينى فرأيت حفيف الشجر فى الحديقة حفيفاً أعجم ليس له جرس ولا معنى ، كان « شيئا » .. يتخذ طريقه من خلال العصون المتشابكة ، واستروحت عطراً الفته منذ سنوات ، واسكرنى الشذى فضرب على عينى وايقظ وجدانى ... أيها الطيف الذى أنعم بالوداد فى أول ليلة من ليالى رمضان ، ليتنى وليتك ... ليتنى وإياك لم يكن لنا فى هذه الحياة تاريخ .. لا .. بل سيخلد هذا التاريخ ويبقى .. إننى لأضن به على النسيان .. »

وفى قطعة أخرى يصور قصة تاريخية لطفل يتيم فيقول :

وقف عزرائيل يوما بين يدى ربه فسأله الله سبحانه وتعالى . ألم تأخذك الشفقة يوما بمخلوق أمرت أن تقبضه ..

---

(١) مجلة الثقافة (الادب فى أسبوع) بقلم (قاف) .

قال . لك الحكمة يارب .. سألتنى مرة أن أقبض أمرأة ، جاء أجلها وأنها لعلى الطريق فى مغارة موحشة ليس فيها صوت ولا صدى وبين يديها جنين قد وضعته لساعتها ، لم يفتح عينيه على نور الحياة بعد ، ولم يلقم ثدى أمه ، ليس بينه وبين الأحياء سبب إلا هذه المريضة النفساء . . قد حان أجلها . . . فداخلنى يارب مما رأيت رأفه ووجد .. وأوشكت — ولك العصمة — إن أعترض ولكنى صدعت بأمرك ..

وخلقت فى الصحراء حيا على صدر جسد هامد » ...

وبعد فهذه قصاصات مما كتب العريان فى موضوعه ، فى أزمته النفسية ، أزمة فقده لزوجته ولكن ماذا نعمل وسعيد لايزال يضن على الأدب العربى بكتابه « تحت الرماد » الذى صور فيه مأساته ، ويقينى أنه من أروع الكتب فى فنه وبابه وموضوعه .

أشترك عزيز أباظة ، وعبد الرحمن صدقى ، وسعيد العريان فى مأساة الزوجية المحبة الصادقة الود التى ملأت فراغ نفس صاحبها الكبير النفس ، ثم عاشت معه .. أياما أو سنوات كانت من أيام الفردوس ، ثم مضت إلى ربها .. وخلفت فى قلب الشاعر أزمة عاصفة .. نفس عنها قلمه البارع بفن رفيع سيخلد على الأجيال .

اضواء على نفسيات الادباء

أردت بهذا الكتاب فى اجزاءه الثلاثة — وهذا أحدها — أن القى بعض الاضواء على حياة الادباء المعاصرين وأن اتناول هذه الحياة وفق أسلوب الدراسة النفسية الحديثة وأن أربط بين الأدب والاديب ، وبين الكاتب والانسان .

وان أبحث عن نفسية الكاتب فى أدبه . وأجعل من هذه الدراسة مقدمه لدراسة أخرى أكثر استيعابا وشمولا . وأكثر موضوعية وتركيزا : هى دراسة « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر »

وأشهد أننى منذ عام ١٩٣٠ على وجه التحديد، بدأت أجمع موادهذه الدراسة وجذاذتها وكل مايتصل بها حتى بلغت الآن أكثر من ثلاثة آلاف جذاذه ، وما أراها أوفت على ما أريد أن أصل بها إليه وأنى لارجو أن أتابع هذا البحث حتى يصدر شاملا يراه القارىء والاديب والباحث فى تاريخ الأدب العربى المعاصر دعامة لاسبيل إلى تجاهلها أو تجاوزها أو انكارها .

وقد كان على أن اتصل بادبائنا الاحياء وأن أجرى معهم الكثير من الأحاديث لاربط بين الاسانيد التى بين يدى وبين الأشخاص أنفسهم . وأن أكمل ماقد يكون هناك من نقص فيما عندى من أبحاث . وقد أتاح لى هذا اللقاء فهما عميقا والقى الكثير من الاضواء على هذه النفسيات وأمدنى بفيض من المعرفة الحقة للانسان الكامن وراء الأديب

لقيت العقاد مرات ودارت بينى وبينه أحاديث واستمعت إليه فى صالونه يوم الجمعه وقابلت سلامه موسى مصادفه فى الترام وتحدثت معه عن أثاره . واتيح لى أن امضى مع الاستاذ الزيات لقاء خاطفا فى الأزهر يوم كان يحرر مجلته .

أما تيمور فقد صاحبته طويلا والممت لديه بهذه النفسيه العذبه الهادئه الرقيقة .

وأمضيت مع فريد أبو حديد سهرات فى داره الريفيه فى الزيتون وحدثنى طويلا عن حياته وأدبه واقيت توفيق الحكيم فى دار الكتب ومضى يحدثنى ساعات .

أما طه حسين فقد عشت معه أمسيات حلوه عاطره فى صالونه الأدبى فى الزمالك وصادفت هيكل مره فى دار الاتحاد النسائى وحدثته عن ما كانت تروى الصحف اللبنانية عن تهريب بعض مؤلفاته الاسلامية إلى حدود تركيا ولقيت غير هؤلاء من أدبائنا الشباب وكتابنا الاحياء

وقد كان حبيبا إلى نفسى أن اتناول بالدرس شخصيات أخرى لمعت فى محيط الأدب فتره ثم أنطوت أوهى تحولت من ميدانه إلى ميادين أخرى كالدكتور منصور فهمى . كما فرقت فى هذه الدراسة بين الأديب والصحفى بالرغم من أن هناك صحفيون لهم أسلوب أدبى . وبالرغم من أن أدبائنا كانوا صحفيين فى الأغلب .

ولقد أتيح لى أن اسجل بعض المذكرات عن بعض هذه المقابلات . ومنها مقابلات(١) الدكتور طه حسين الذى حدثنى عن أساتذته ممن اتصل بهم فى أول الشباب فى محيط البحث العلمى ، أنه يرى لهم عليه فضلا كبيرا لا يقدر ، من هولاء لطفى السيد والشيخ سيد المرصفى وأحمد زكى باشا . وقد دله لطفى السيد عن « قيمة الاشياء » وفتح له باب التفكير الأوربى الحديث . وفتح له سيد المرصفى باب انشاء « الذوق الأدبى الكلاسيكى » . وهيأ له أحمد زكى باشا التمرن على البحث العلمى وتحقيق النصوص . ولم ينس فضل الشيخ الخضرى وحفنى ناصف والشيخ محمد المهدى

---

(١) فبراير ١٩٥٢

وفى مقدمة من اتصل بهم من المستشرقين الاجانب وأولهم وأهمهم « نالينو » الايطالى « وجويدى » الكبير فى أول العهد بالجامعة . « مليونى » الذى عرفه بالتاريخ القديم للبابليين والاشوريين ولم يكن قبل ذلك معروفا . و « سانتلانا » الذى درس له الفلسفة الأسلامية .

أما فى أوربا فقد درس تاريخ الرومان على جسوستاف بلوك وتاريخ اليونان على جلوتى وعلم الاجتماع على دركاين

ولقد سألت عميد الأدب رأيه فى الأدباء المعاصرين فرفض أن يتحدث عن الأدباء الاحياء ولما عرضت عليه إسماء بعض من افضوا إلى رحمة الله قال: أن أقربهم إلى نفسى : مصطفى عبد الرازق

.. لم نكن فى الشباب زملاء ، ولكن المودة وحدث بيننا على أختلاف السن ، ثم أصبحنا زملاء لاسيما عندما قدمت استقالتى من الجامعة . . وهو صاحب ذوق فى الأدب ممتاز. ومتأثر بالقديم بحكم تعليمه وتربيته وتأثير والده. وهو من أشد الناس حبا للبهاء زهير . وقد الف فيه كتابا . وله شعر يغنيه أهل مدينة المنيا .

وهو يحب الأدب المصرى القديم . ثم أحب الأدب الكلاسيكى بعدعودته من أوربا ، وانشأ له أسلوبا خاصا فى الكتابة .

وهو مقل بطىء . يكتب على مهل . ويعاود كتابته بالصقل والتهذيب حتى يصح أن يوصف بانه كاتب صناع . ويرجع هذا إلى حكم المهنة باعتباره من أساتذة الفلسفة الأسلامية ولم تخرجه الابحاث الأوربية عن التأثر بالقديم، ويكسب الأدب المصرى كثيرا لو أن أسرته نشرت مذكراته فقد كان لاينام قبل أن يكتب مذكرات وافية عن يومه كله . .

* * *

فلما سالته عن الدكتور زكى مبارك . قال كان يذكرنى دائما بابى حيان

التوحيدى . فقد كان أبى حيان عالماً ممتازاً وكان رائع العبارة . ولكنه كان لا يبالى الحق ولا يبالى الباطل وقد أنهى أبى حيان حياته بأن أحرق كتبه كلها . وغاية القول فى زكى مبارك أنه فلاح أزهرى سافر إلى أوربا ولم يستطع مقاومة الحضارة الحديثة ، واندفع وراء اللذات البسيطة السهلة .

وكان قد بدأ حياته الأدبية بمقالات يتهمنى فيها بأننى سرقت محاضراته وقد كان تلميذى فى الجامعة المصرية القديمة . وكانت سنه أكبر من سنى . وكان يكتب إلى « حضرة والدنا الدكتور طه حسين » وسألت الدكتور طه عن قصة « أحمد الله إليك » التى كتب عنها الدكتور مبارك فصلا فى الرسالة سنة ١٩٣٨ فنفاها وقال إنها من أكاذيبه .

* * *

وسألته عن المازنى فقال : أن العلاقة بينهما لم تكن على صفاء كبير وكانت كل كتاباته تصدر عن طبيعته ونفسيته « ومما كان بينى وبينه أنه عندما صدرت جريدة الاتحاد وكنت رئيس تحريرها كان يعمل معى . وكان يكتب فى الاتحاد نهاراً ويشتمنى ليلا فى جريدة الأخبار . وكانت آخر مناوشة بينى وبينه حول شعر عزيز أباظه .

ولما رشح المازنى للمجمع . كنت أول من انتخبه . ولكنه على طريقته لم يصدق . وتكلفت كثيراً حتى أقنعته .

وهو كاتب ممتاز يجمع بين الأسلوب القديم والسخرية اللاذعة . يكتب بأسلوب عبد القاهر ويمثل العقلية القاهرية . وشخصية ابن البلد . وقد احتفظ بالمزاج المصرى تماماً . . وكان يحب ابن الرومى .

* * *

وحدثته عن عبد العزيز البشرى فقال أنه كان مرحاً متفائلا دائماً . وكان لا يرى إلا ومعه حافظ ابراهيم . . عرفته فى خان الخليلى وفى ربع السلحدار بالذات . مع على عبد الرازق ، وكان طالباً معى فى الأزهر . وكان على

عبد الرازق يخرج من بيتهم فى عابدين فيحضر دروس الصباح ، وكنا أنا وهو نحضر دروسنا معاً . لا سيما البلاغة ودروس الكامل على الشيخ المرصفى . ودروس الأصول والمنطق .

ولم يصبر عبد العزيز علينا . ولم ينتظر معنا أكثر من ثلاثة أيام ، فقد اجهدته « الفتعلة » والفتقلة اصطلاح عن الأبواب التى تبدأ بكلمة « فان قيل قلت » .

وكان عبد العزيز يغشى صالون آل عبد الرازق ويملأ الجو بنكاته وحكاياته . وعبد العزيز ممتاز فى كتابته جداً وأهم ما اعجبنى منه مقالته « فى الطائرة . . »

* * *

وسألته عن الرافعى . وكنت أحس كأنى أسبب له حرجاً لما كان بينه وبين الرافعى من خصومات . . ولكنه أجاب مبتسما . أنه قابله فى حياته مرتين : أولها عند ما انتقد — أى الدكتور طه — كتاب حديث القمر . وكان قد أرسل إليه برقية يقول فيها « أن الكتاب ظهر منذ أسبوعين فلا تطل انتظارى » فكتبت له أننى لم أفهم الكتاب . وكان الأستاذ سعيد العريان جالساً فأخذ يحدثنى عن الفصل الذى قدمه الدكتور.. غير أن الدكتور منع سعيداً من أن يتم الحديث ! . »

وختمت حديثى مع الدكتور طه بأن سألته عن نقطة التحول فى حياته فقال : إنها ثلاث نقط لا نقطة واحدة : الأولى هى السفر إلى أوربا لأنه حولنى من التقليد إلى التجديد والثانية هى الزواج لأنه اخرجنى من وحدتى وأسعدنى بنعمة الحب والثالثة هى إنجاب الأبناء لأنه جعلنى أشعر بالحنان وبقسوة الحياة وتبعاتها .

* * *

وهذه ساعة مع توفيق الحكيم سجلتها فى مذكراتى(1).

أبرز ما لفت نظرى فى هذا الكاتب الفنان براءته وبساطته . وطبيعته الهادئة الرقيقة . وعند ما تحدث عن نفسه كنت أعرف سلفاً كل ما قال إذ كان قد دونه فى كتابه « فن الأدب » الذى قرأته منجما فى « أخبار اليوم » .

وكان أهم ما سألته عنه : هذه القصص التى كتبها . وهل لها صلة بشخصيته فقال : أن الفنان لا يستطيع أن يكتب دون أن يكون لقصته أو لأبطالها صدى فى نفسه . وهو ليس كالمؤرخ أو الباحث الذى يستطيع أن يكتب فى كل موضوع . إنه يبحث عن أوعية وعن قوالب . يصب فيها أفكاره وآرائه ورغباته . ولذلك فهو يلجأ إلى الأساطير لأن شخصياتها « منفسحة » وتستطيع أن تطوى تحتها ما يشاء الفنان أن تطويه من آراء .

وقال عن كتاب الرباط المقدس أنه قصة واقعية حقاً .. ولكنها لا تتصل به شخصياً وأنه سمعها من بعض أبطالها . وكنت قد قلت له : أن البعض يرى أن هذه أول تجربة وجدانية للمؤلف .

وحدثنى عن الخلق الفنى فقال : أن الخلق لا يكون من غير أصل قديم . وأن الله سبحانه خلق آدم من الطين . ثم نفخ فيه من روحه . فمهمة الفنان هى أن يعطى هذه المادة الجامدة . . الحياة من روحه هو . ولذلك فان أسطورة ما .. قد تتناولها عشرات الكتاب فيختلفون فى تصويرها وإبرازها باختلاف تأثرهم بها . وبحسب قدرة كل منهم على استلهامها أو منحها من فيض ارواحهم .

* * *

ومما قاله لى أنه بدأ يكتب عام ١٩١٦ غير أنه لم ينشر مؤلفاته إلا بعد عام ١٩٣٢ . وقد أتاح له اتصاله بالبيئات النيابية إجادة الحوار وأنه كتب قصة « الضيف الثقيل » عام ١٩١٨ .

---

(1) ١٠ مارس ١٩٥٢

وقال أنه متهم بأنه من أصحاب البرج العاجى ومعنى هذا أنه يسكن فى « عش » مرتفع عن الناس ، فلا يتصل بهم . والواقع أن هذا محض افتراء وأن من قرأ مقدمة كتابه « البرج العاجى » يعلم أنه كان يقصد البرج العاجى السياسى .

وأنه شخصياً قد اتصل بالبيئات المختلفة . أيام كان محققاً . كان يعيش فى قضايا الناس ومشاكلهم وجرائمهم . وكان يحقق معهم ويعرف ما تضمره نفسياتهم .

وقال أنه يعتبر الأدب هوايته فكما يلعب بعض الناس البلياردوا مثلا يلعب هو بالأدب ويرى أن الأدب قد فشل تماماً عن توجيه الناس والأمم ، فمنذ عهد بعيد ورجال الفن والأدب بيدعون للإنسانية روائع آياتها . وما زالت الأمم تقرأ هذه الآثار فلا تفيد منها شيئاً يحولها من الشر أو يدفعها إلى الخير وقال : « إننى اؤمن بأن الأدب لم يستطع أن يكون موجها . وأنه اكتفى بأن يكون مجرد لوحات تعجب الناس فيقرأونها .

أما محمود تيمور فقد حدثنى فى جلساته المتعددة عن حياته وفنه . حدثنى طويلا وإنى لأذكر مما قال أن استثارة الإلهام تحمله على أن يجعل أربعة أشياء قريبة منه حين يتناول القلم لتكون خط دفاع يعين الخواطر والأخطار على أن تمضى طليقة فى تحويمها آمنة فى سربها ، لا تفزعها الطوارى وهذه الأشياء هى : قدح قهوة ولفافة تبغ وسبحة وزجاجة نشادر .

* * *

وبعد فليس مكان هذا الحديث فى الواقع هذا الجزء من كتابنا عن الحياة الوجدانية والنفسية لأدبائنا المعاصرين . وإنما مكانه فى الجزء المقبل(١) الذى تضمن الحديث عن الأدباء الذين أفضوا إلى رحمة الله وهم : ابراهيم

---

(١) نساء فى حياة أدبائنا .

عبد القادر المازنى . وزكى مبارك ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد أمين ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد السباعى ، ومصطفى عبد الرازق ، وجرجى زيدان ، وجبران خليل جبران ، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم وجميل صدقى الزهادى ، ومحمد إقبال والكاتبه « مى »

ولقد عرضنا لحياة هؤلاء الكتاب وفق الأسلوب الذى سرنا عليه فى هذا الجزء ولكننا أردنا أن نجعل من كل كتاب وحده مستقلة .

واتماما لهذه الدراسة سنقدم بمجموعة ثالثة(1) قد اكتملت فعلا إبحاثها وأصبحت صالحة للنشر عن الأدباء الذين جاءوا بعد هؤلاء الرواد والذين كانوا ثمرة النهضة الأدبية الجديدة والذين بدأت آثارهم تظهر فى الصحف فيما بين سنة ١٩٣٠ وما بعدها وهم : على أدهم وإبراهيم ناجى وزكى عبد القادر وفتحى رضوان وسعيد العريان وعلى الطنطاوى وعبد الرحمن صدقى والصاوى وفكرى أباظة ومحمود كامل وزكى أبو شادى وأمير بقطر وأبو القاسم الشابى وصديق شيبوب وإبراهيم المصرى ومن الكاتبات والشاعرات جميلة العلايلى وبنت الشاطىء وأمينه السعيد وفدوى طوقان وجليلة رضا .

وأمامنا بعد هذا ثبت طويل من الكتاب والكاتبات نرجو أن يتاح لنا التوافر على الدراسات النفسية والوجدانية الخاصة بهم حتى نقدمهم فى هذه السلسلة ونتمنى لو اعانونا على هذا وفى مقدمة هؤلاء : خليل شيبوب ومحمد عبد الغنى حسن وسعيد عبده ومحمود محمد شاكر ووداد سكاكينى وجاذبية صدقى وسهير القلماوى وغيرهم .

وإنا لنرجوا أن يتاح لنا إتمام هذه الموسوعة على الوجه الذى يرضى الأدب والفن والتاريخ .

---

(1) وراء النوافذ المغلقة في حياة الادباء .

المنفلوطى



لاشك أن كبار «الرواد» الذين أقاموا صرح الأدب العربى المعاصر ، قد فتحوا عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب . .

هـذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن ، حتى كان الثالوث « طه حسين وأحمد حسن الزيات ، ومحمود زناتى » يترقب المؤيد كل خميس ليقرأ له فى اعجاب .

« اشرق(١) أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد أشراق البشاشة ، وسطع فى أنديه الأدب سطوع العبير ، ورن فى اسماع الأدباء ربين النغم ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يرو فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة فاقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد الوحيد العذب » ويبدو المنفلوطى فى رسائله وقصصه فى صورة قاتمة ، حزينة ، فهو قادر على أن يرسم صورة الألم الممض ، فيحول الأجواء كلها إلى عواصف ودموع والآم وبكاء ونواح

ولا يزال أدب المنفلوطى ـ بعد ثلاثين عاما ـ قويا حيا يبعث فى النفس أثاره دون أن تقضى عليه الألوان الجـديدة التى جاءت بعده

---

(١) أحمد حسن الزيات ـ وحى الرسالة ج ١ .

وإن لم يكن من أدب القوة إلا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من القوة والجرأة والحماسة .

بدأ حياته الأدبية ١٩٠٨ ناثرا وكاتبا ، وإن كان قد سبق فنظم الشعر وكانت له من بعد قصائد شهر فيها بالاحتلال وسجن من أجلها . وكان هذا الاتجاه الشعرى الباكر مصدر تلك الثروة اللفظية ، واللون الوجدانى فى نثره .

والمنفلوطى من المنشئين ، الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء انتاجهم ، فهو ليس من الكتاب العقليين ، أو أصحاب المذاهب الفكرية ، بقدر ما هو من كتاب المعانى التى تتصل بالحب والحرمان والألم والبؤس ..

وان كان قد أخفق فى دراسته الأزهرية ، فقد فتح له ذلك - شأن من كانوا على شاكلته - بابا لقراءة متصلة واسعة فى الأدب العربى القديم وروائع الشعر والنثر مما أتاح له أن يكون مجدداً فى الأدب ، وأن يبدأ فجر النهضة الأدبية بهذا اللون الذى لم يسبقه به أحد من قبل .

ومهما يكن من رأى بعض كتابنا فى المنفلوطى(١) فان أثر اسلوب المنفلوطى يبدو واضحا فى كتابات الرافعى وطه حسين والزيات وعبد العزيز البشرى .

وقد استطاع المنفلوطى أن يظفر من ناقديه بأنه « أحد(٢) أولئك الأدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى .. »

غير أن المنفلوطى وأن جدد فى أسلوب التعبير ، الا أنه ظل محافظاً فى ميدان المعانى فقد تمسك بالقديم وحمل على قاسم أمين وكان يعلن أنه لايثق بالأطباء وأنهم لا يغنون عن القدر ولا يرفعون نازله القضاء ..

فأذا أردنا أن نصل إلى جوهر نفسه أمكننا أن نعتمد فى ذلك على مصدرين كانا وثيقا الاتصال به . أما أحدهما فهو الزيات « .. كان صحيح الفهم فى بطء . سليم الفكر فى جهد . دقيق فى سكوت ، هيوب اللسان فى

---

(١) العقاد فى مراجعات فى الادب والحياة . (٢) نفس المصدر .

تحفظ ، ولذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليديه فى الاسرة ونظام التعليم الصامت فى الازهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس »

أما الجارم فيصفه قريبا من هذا حيث يقول « .. كثير الحفظ والروايه سريع الخاطر ، دقيق الحس ، نبيل العاطفة ، جذابا إلى اقصى حدود الجاذبية جم الأدب ، كان الحياء أبرز صفاته فلم تكن تتفتح نفسه وتبدو على سجيتها الا بعد معاشرة ومخالطة . وهو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ويجيد تصوير معناه »

واتصل المنفلوطى بالشيخ على يوسف .. وكتب بالمؤيد ، فصول النظرات التى اشتهر بها .. وأذاعت اسمه فى كل مكان .. وابتدع بها هذا الفن الجديد فى الكتابة العربية الجذلة السهلة الرائعة ..

واتصل بسعد زغلول» ودافع عن مذهبه السياسى ، وكان صديقا لحافظ ابراهيم وامام العبد وأحمد نسيم واحمد فؤاد .. يساهرهم فى قهوة افندية

ولم يسلم المنفلوطى من متاعب الخصومة السياسية ، فقد هاجم فى فصول النظرات « عبد العزيز جاويش » فى مقال « طبقات الكتاب » .. اذ كان جاويش خصما للمؤيد واسعد ..

ولعل مما يذكر هنا ان طه حسين كان قد افتتح حياته الادبية بالهجوم على المنفلوطى ينقد « النظرات ثم عاد فصحح رأيه فيه عام ١٩٤٩

ويرى طه حسين فى هذا أنه تحول من أسلوب فى النقد إلى أسلوب آخر فقدكان حريصاً فى مطلع الشباب على النقد الذى يتصل بالألفاظ والعبارات .. ثم اتجه إلى النقد الموضعى بعد أن ارتفعت به السن .

كما اتصل المنفلوطى بالشيخ محمد عبده ، وقال فيه شعراً . وترجمت له بعض القصص الأوربيه ، فصاغها فى أسلوبه العربى البليغ فجاءت آية من آيات

---

(١) الهلال .

الإبداع . ومن ذا الذى ينسى «ماجدولين» .. «والعبرات»وذلك الطابع الحزين الذى يغشى صحائفها . والحق أن آثار المنفلوطى تكشف عن نفسية تغلب عليها « العاطفة الحزينة » .. وهو يصف نفسه عندما بلغ الأربعين « . . الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة. والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى إلى المصرع الأخير هويا . .

سلام عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحاً للآمال والأحلام وكنا نطير فى أجوائك البديعة الطليقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء فى آفاق السماء ، لانشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم .

. . وما أنا بآسف على الموت يوم يأتينى ، فالموت غاية كل حى ، ولكنى أرى أمامى عالماً مجهولا . لا أعلم مايكون حظى منه ، واترك ورائى أطفالا صغاراً (١) »

. . ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى « . . أما من ورائى فالله يتولى السائمة فى مرتعها ، والقطا فى أفحوصتها ، والعصفور فى عشه ، والفرخ فى وكره . .

وداعا أيها الشباب فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر .. »

هذه المعانى تعطى صورة الرجل المحب للحياة ، المشفق من الموت ، الذى يستقبل الغيب على نحورة من الخوف والتوجس .

وتبدو صورة المنفلوطى وهو يحب الحياه ويقبل عليها ويحرص على المتاع بها فى هذا الخطاب الذى ارسله إلى « الموسيقار » حسن أنور بعد عودته من راس البر . « . . وصلت إلى مصر وقد شعرت عند وصولى إليها بشىء من

---

(١) النظرات — (الاربعون)

الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عند القاء القبض عليه واعادته اليه .
وسأظل زمنا طويلا متمثلا فى ذهنى جمال تلك الأيام التى تمتعت فيها بنعمة الحرية والطلاقة — لا يقيدنى مقيد ، ولا يسيطر على مسيطر من النظم والتقاليد اجلس فى كل أرض ، وافىء إلى كل ظل ، وأسير تحت كل سماء . وأتحدث بكل ما يحول فى خاطرى من جد وهزل ، وصواب وهزيان . كأننى أعيش فى عزلة منقطعة لا تقع على فيها عين ، ولا يطرق سمعى صوت ، كما لا أنسى ماحييت جمال ذلك المصيف البديع ومناظر كثبانه ورماله وسمائه ، وبره وبحره ومواقع غزلانه ومرابع جآذرة ، ومنظر لسانه العذب الرطيب وهو يمتد ساعه الأصيل فى غمار الماء ، ينهل منه النهلات الباردات .
. . فليت ذلك دام لى ، ولكنه لايدوم ، لأن السعادة فى هذه الحياة بوارق لامعة تخفق فى ظلمه الليل ثم تختفى (١) . . »

هذه صورة نفسية للمنفلوطى فيها صراحه ووضوح بعيدة عن التكلف الذى تفرضه كتابات الصحف ، وهى أيضا تعطى صورة لأسلوب المنفلوطى حين يكتب لاصدقائه ، ويرسل نفسه على طبيعتها يصور المعانى التى تزدحم بها نفسه ، هذه النفس المحبة للحياة ، الحريصة على المتاع واللذة . . . الخائفة المتوجسة فى نفس الوقت من نهاية السعادة حين يرى أنها ليست الا بوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى . .

وبعد فالمنفلوطى يأخذ مكانه هنا لأنه علم على رأس مرحلة من مراحل الانشاء الأدبى وعلى رأس « طريقه » فى الأدب وأسلوب فى التعبير ومدرسةفى البؤس والحزن والحرمان والارجح أن يكون مرجع هذهالوجدانية التى نراها فى « ماجدولين » و « الشاعر » إلى أشواق نفسية فى أعماق الكاتب نفسه وجدت مكان الافضاء عنها فى تلك الصور الشعرية التى رسمها بقلمه بعد أن ترجمت له .

---

(١) الهلال — مارس ١٩٣١

ليس من شك أن المنفلوطى شاعر النفس ، وأنه أحب ، وهذا هو سر قوته الوجدانية ، ويبدو أن المنفلوطى لم يجد فى مقدوره الكشف عن صور حبه فى صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة . وجملة القول فيه أنه أديب الآلام والحزن والحرمان ، يصورها بأسلوبه البيخ فتجد لها فى كل نفس صدى ، وفى كل قلب أثر

خرج المنفلوطى عن الأسلوب التقليدى ، فادخل إلى الأدب المعانى والصور بعد إن كان الزخرف هو كل شيء . فهو مرحلة بين المويلحى من ناحية وبين الزيات والرافعى من ناحية أخرى . وهو وان كان قد عاصر المدرسة المهجرية الا أنه تحرر منها وظل محتفظا بطابعه الخاص .

وهو يحرص أحيانا على أن يكون ضخما فخما فى أسلوبه وقاسيا مؤثراً فى معانية ، يبعث الألم والحزن ، حتى لتضيق به أحيانا ، ولا تحتمل قسوته حين يصل بأبطاله إلى أبعد حدود الآلام المتخيلة ، فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والعرى والحرمان ، وهو إلى ذلك كاتب وطنى واجه الانجليز بقلمه فى عنف ، ومقالة فى الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الخديو معروفه .

أحمد أمين



يمثل « أحمد أمين » مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الأدب المعاصر فى مصر، فهو الأزهرى الذى تخرج فى الأزهر واتجه إلى دار العلوم والقضاء الشرعى .. وانتقل من القضاء إلى التدريس فى الجامعة ، ثم انتقل إلى حياة التأليف والكتابة ، وتعلم اللغة الإنجليزية بعد أن ارتفعت سنه ، وترجم منها . .

واستبدل العمامة بالطربوش ، وسافر إلى أوربا وإلى الشرق ، وظل مع ذلك « الإنسان » المحافظ فى آرائه وأفكاره وحياته ، والمنطوى على نفسه ..

لم يتصل أحمد أمين بالحياة . . ولم يجر فى تياراتها المختلفة ، بل ظل يعيش فى حيوات الكتاب والمفكرين وأعمالهم . ومن ثم كان لأسلوبه ذلك الطابع الجاف . . الذى ليس له سمت خاص يتميز به ، وخلا أدبه من العاطفة والوجدان . وكما خلا من تلك الروح الفنية الجذابة ، التى تهز النفس وتأخذ باللب والتى نجدها عند أزهريين آخرين كطه حسين والزيات وزكى مبارك ..

. . ويرجع هذا إلى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين ، وهو إلى العلماء أقرب منه إلى الأدباء ، ويرجع هذا الاتجاه إلى الدراسات والدوافع الأولى . .

فقد نشأ أحمد أمين فى بيئة محافظة ، دينية ، كان لها أثرها فى نشأته وكانت التربية الأزهرية بعيدة الأثر فى أهدافه واتجاهاته . فلما أراد أن يندمج فى الحياة الجديدة ، اندمج فيها على طبيعته وبكل مقوماته لم يدع منها شيئاً ، ولم يستطع أن يتحول أو ينتقل على الطريقة التى تحول إليها طه أو مبارك أو على طريقة الزيات ومصطفى عبد الرازق ، فهؤلاء يختلفون عنه لانهم سافروا إلى أوربا وأمضوا مراحل دراسة طويلة هناك . .

وإنما ظل هو ، كما هو « النفس المنطوية » التى تزهد فى الناس ، وتجنح إلى العزلة . وتعتكف على المطالعة والبحث والدراسة .

* * *

صحيح أن هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج إنتاجاً عقلياً غاية فى القوة والوفرة ، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا . . فاذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة ، غلبت عليه الأفكار المثالية وجعلته غريباً عن المجتمع إلى حد ما .

ويغنينا أحمد أمين فى تصوير اعتزاله للمجتمع حيث يقول « .. لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذى نشعر به خجل قبيح ، وضعف فى الحرية الشخصية ، وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد فى متعتها . وعدم تفتح النفس لمسراتها . . وكان أبى يكثر من ذكر « الموت » وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لوناً من الحزن والقناعة فى طلب المجد ، ولكن بجانب الجد فى الحياة والصبر على المكاره والترفع عن صغائر أمور الدنيا لأن كبارها قليلة القيمة .. »

* * *

ليس فى أدب أحمد أمين شبح للمرأة على الإطلاق ، وعلى أى صورة من الصور ، حتى ليخيل للباحث أنها لم تؤثر فيه مطلقاً . وقد ظل يتحاماها ، حتى التقى بالإنجليزية التى علمته اللغة ..

« . . وعشقت(١) مرة مدرسة لى إنجليزية ، كنت أتبادل معها الدروس العربية والإنجليزية ، وأحببتها حباً يائساً لأنها كانت متزوجة ، سعيدة بزواجها ، ولكن جمالها وجمال عينيها ، جعلنى أتمنى يوم درسها وأعده عيداً . . ولولا أن الدين والعلم كبلانى لكنت أمام المحبين .

رأتنى شاباً فى السابعة والعشرين ، أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشى فى جلال ووقار ، واتزمت فى حياتى ، فلا موسيقى ولا تمثيل ولا شيئاً حتى من اللهو البرىء ، وأصرف حياتى بين دروس أحضرها ، ودروس ألقيها ، ولغة أتعلمها ، ورأتنى مكتئب النفس ، منقبض الصدر ، ينطوى قلبى على حزن عميق ، ورأتنى لا أبتهج بالحياة ، ولا ينفتح صدرى للسرور ، فوضعت لى مبدأ هو « تذكر أنك شاب » ، تقوله فى كل مناسبة وتذكرنى به من حين إلى حين .

والثانى أنها رأت لى عيناً مغمضة ، لا تلتفت إلى جمال زهره ولا جمال انسجام وترتيب ، فوضعت لى المبدأ الآخر « يجب أن تكون لك عين فنية . . » فكنت إذا دخلت عليها فى حجرتها ، وبدأت آخذ الدرس وأتكلم فى موضوعه صاحت فى « ألم تر فى الحجرة أزهاراً جميلة تلفت نظرك ، وتثير إعجابك فتتحدث عنها » .

ويقول أحمد أمين أنه لازمها أربع سنوات واستفاد كثيراً من عقلها وفنها ثم يعقب على ذلك « . . ولكننى لا أظن أنى استفدت كثيراً من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائماً أننى شاب » .

* * *

ثم تزوج أحمد أمين ، وظل على طابعه المنفرد ، ذلك الطابع الذى يتمثل فى الوحدة وفى الحياة بين الأسفار . وقد أنكر أهله منه هذا ، ولكنهم

---

(١) كتاب « حياتى » .

قنعوا به أخيراً .. « وقد صدمت زوجتى بعد قليل إذ رأتنى هادئاً غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت فى بيت مرح .. فظنت أنى لا أقدرها ، وإنى نادم على الزواج بها . وأكدت لها أن هذا طبعى كسبته من بيئتى فلم تصدق ولم تطمئن .. إلا بعد طول العشرة ، ووثوقها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها .

وهى تحتمل الصباح وحدها لإعداد ما نأكل . . وتنظيف ما ينظف .. ولكن كيف تحتمل المساء أيضاً وحدها ، وأنا فى غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والأيام هى الأيام الأولى لزواجنا » .

ولعل هذه الأضواء على الحياة الإجتماعية لأحمد امين تعطينا مفاتيح أدبه .. وترسم لنا صورة « مالك الحزين » التى رسمها له الأستاذ طاهر الطناحى حين وصفه بأنه يضع على عينيه منظاراً أسود .

يقول الأستاذ أحمد أمين فى تصوير نفسيته « رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان ، سواء كان جمالا طبيعياً ، أو جمالا صناعياً ، أو جمالا فنياً ، ولى حاسة قوية فى سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة » .

« أحب الخير للناس وأفرح لنجاحهم ورقيهم ، ولكنى مع هذا الحب غيور فبجانب هذا الفرح ، أغضب إذا أنا حرمت مثل ما نالوا »

* * *

ولكن لماذا آثر أحمد أمين خطة الانطواء فلم يتصل بالأحزاب اتصالا مباشراً ، ولم يغامر فى السياسة مغامرة كبرى . . ، وظل بعيداً عنهما ، فلم يبرز بروز كتابها . . .

هل رأى نفسه لا يصلح لها ، يقول : « أعرف أنى جبان بقدر شجاعتى فى قول الحق . أخاف التعذيب وأخاف السجن ، وأخاف الشنق . وربما كان هذا هو السبب فى أننى أفضل العلم على السياسة . وربما كان هذا هو

السبب فى أنى تخلفت عن زملائى السياسيين حيث تقدموا إلى أن كانوا رؤساء وزارات . . »

* * *

سافر أحمد أمين إلى العراق وسوريا والآستانة والحجاز ، ثم جال فى أوربا جولة غير قصيرة . . ، ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق ، ومزيد العلم والخبرة ، فقد عاشها على نفس الصورة التي يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحث ، لا استمتاع بها ولا تطلع إلى خفاياها . .

وليس فى آثار أحمد أمين أى فصول عن هذه الرحلات إلا ما كتبه عنها فى كتاب « حياتى » .

* * *

يصف أحمد أمين طبيعته فى وضوح ، هذه الطبيعة الحزينة المنطوية حين يقول : « ما أحوجنى إلى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوى بها جوى . ضحكة حية صافية ، عالية .. ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء .. ولا هى ضحكة صفراء ، لا تعبر عما فى القلب ، وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى . وأفحص منها الأرض برجلى » .

هذه الطبيعة هى التى يرسمها اتجاه أحمد أمين إلى العلم وإلى الدراسات العقلية التى تصل إلى ذروة قوتها فى « فجر الإسلام » وهو « الكتاب الذى أتعبه لأنه الأول من نوعه » .

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكراً ، كتب فى السفور سنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفور فى قوة ، ودافع عن رأى قاسم أمين ،.. وقال عن الجامعة أنها أزهر بقبعة .. لقد كره الأزهر منذ رأى الطلاب وهم يعرضون الخبز للبيع ، وعاد إلى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هذا أول ما شاهده فى الأزهر ولكن بالرغم من نفور أحمد أمين من الأزهر وكراهيته له واتجاهه إلى الثقافة

الأوربية ، هل استطاع حقاً أن ينتزع نفسه من الأزهر .. كلا ، « إن كل ما فيه من خير إنما مرده إلى الأزهر » كما قال عنه الإمام المراغى .

لقد أكسبته طبيعته هذا المزيج من البيئة والأزهر : طابع البطء فهو « يحب أن يتحرك على مهل ويتذوق على مهل ويستطعم ما يأكل . وهو يحب النظام حباً شديداً .. »

إنه لم يصنع نفسه ، على حد قوله ، .. « لقد عمل على تكوينى إلى حد كبير ما ورثت عن آبائى .. والحياة الاقتصادية ، والدين ، واللغة ، وأدبنا الشعبى ونوع التربية .. أن نفسى من صنع الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة » .

الرافعى



« وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً فى الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ثم لا يدفعنى إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحانى . دون فطرة الشر والحيوانية . ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة أكبر منها ، غير أنه هو منها .. »

إذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح ، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية فى ذروتها وقوتها . فان ذروة أدب الرافعى ومفتاح شخصيته ، وعقدة حياته الفكرية والأدبية هى شىء واحد هو « الحب » .

فكرة واحدة ، أو حب واحد قام فى حياته فلونها كلها وأحالها إلى دنيا كاملة ممتدة فى أدبه وكتاباته وفنونه ..

ماذا كان الرافعى قبل هذا الحب ، وماذا كان أدبه ، . . هل كان يتأدب لهذا الحدث ، ويستعد لهذا الدور الذى لعبه القدر فى حياة كاتب رصين العبارة ، بليغ الأداء ؟

أكاد أقطع حين أضع يدى على قصة الحب التى عاشها الرافعى ، إن خصوماته الأدبية ، وكتاباته الفنية ومؤلفاته . . ومذاهبه فى الإعجاب والخصومة . . وهذه الحلقات المترابطه الممتدة فى كتبه « حديث القمر ، رسائل الأحزان ، أوراق انورد ، وحى القلم » . . إنما هى حلقات من قصة واحدة . .

وأصدق ما يقال عن « الرافعى » أن نفسه ممثلة فى أدبه ، وأن ملامحه الروحية واضحة فى آثاره وأن حياته مرسومة فى فنه ، ببساطتها وتعقيدها ، ومرونتها والتوائها ، فهو يعيش فى أفكاره وأحلامه ورؤياه ، ويبدو من وراء معانيه قائماً ، يعرف حين يغضب وحين يرضى . .

فاذا بدا هناك بعض الضباب ، فانما هو نتيجة للعوامل النفسية التى تتصل برجل أصم ، لم يتصل بالناس إلا قليلا ، ولم يصل لمكنون أعماقهم إلا فى حدود محدودة ، ولم يلتمس لغوهم إلا عن طريق قصاصات من الورق تكتب له . .

وليس الدفاع عن الدين واللغة فى ذاته إلا جزء من كيان هذه الشخصية وجانب من التعبير عن النفس فيها .

وآثار الرافعى كلها تكشف عن نفسية مضيئة مشرقة ، تفهم الحب فهما دقيقاً ، وتصوره تصويراً قل أن يتاح إلا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه ، ومس شغاف قلبه .

* * *

ليس للرافعى تاريخ إلا قصة حبه . . فقد بدأ حياته شاعراً ثم تحول إلى النثر . وكاد أن يقصره على « فلسفة الحب والجمال » يصور به عواطفه ويرسم مشاعره ، بل أننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول أنه فى سبيل الحب ، أقام خصوماته الأدبية ، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها . وكان عنيداً فى صراعه وفى خصومته .

ويبدو هذا الصراع قوياً حين يتصل بشخصين ، هما طه حسين والعقاد

ثم يتبلور الرافعى فى صورته النهائية القوية ، حين يتصل بالرسالة ويكتب فصوله « وحى القلم » .

وللرافعى أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه ، وهو مالم يتوفر لكثيرين ، ويتميز هذا الأسلوب بالعمق والغموض ، . .

وقد تأتى له هذا الأسلوب البليغ العميق الغامض ، من بيئة العلم والفقه والدين ، التى نشأفيها حين تفتحت حياته على كتب الأدب القديم ، إذ أتاحت له آفته أن يعتكف ، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه . . فانقادت له حتى استطاع أن يصاول أقطابها وإذا به يرى مدافعاً عن القديم ، وهو الذى تعلم فى مدارس الفرير، على حين وقف بعض الأزهريين فى صفوف المجددين .

* * *

كان الرافعى يحس بالنقص الطبيعى فى حاسة سمعه فكان يعوض ذلك بالتبريز فى ميدان الحياة بالحب وفى ميدان الأدب بالصراع .

يرسم الرافعى لنفسه فى رسائل الأحزان صورة واضحة . . « أما هذا الصديق فأعرفه أسلوباً فى الكبر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن على نفسه . كأنما فتحت أفواه عروقه حنيناً ، وملأتها الوراثة من دم ملك كان فى أجداده . مستصعب شديد المراس اجتمع فى تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قداستفاضت مسائله فى فصول وأبواب . جف القلم منها على نيف وأربعين جزءاً كلماتها فى حوادثها . وأن السطر منها ايرعد فى صحيفة من الغيظ وأن الكلمة لتبكى وأن الحزن ليئن أنيناً يسمع .

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين . ونذهب غير مخيرين . إن طوعا وإن كرهاً . فمد يدك بالرضا ، والمتابعة للأقدار أو انتزعها إن شئت فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف فى مذاهب القدر . إذا أنت أقبلت أو أدبرت أى وجهيك هو الوجه فقد

تكون مقبلا والمنفعة من وراءك . أو مدبراً والمنفعة أمامك .. »

ويرسم صورة حبه « .. بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم أو كما يقول الفلاسفة فى تعليل ذكاء الأذكياء إنهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه ، لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا ، غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه قد هدم بعضها بعضاً ..

كانت حياة صديقى ليلا طويلا انبسط على فنن من الظلام كأنه مورق بالسحب والغمائم السود لا ينقشع بعضها عن بعض . حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ، ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها .

هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، كانا فى الحب جزءين من تاريخ نشر منه ما نشر وطوى ما طوى . هدمت الأقدار هذا الصديق فجاءت هى تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقيده بسحرها بناء جديدا » .

فاذا تعرض لفلسفة الحب ، رسم صورة جبارة ، لا أدرى كيف افلتت من معارضيه دون سجال وصراع .

« .. وذو الفن لايفيد من الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله ، فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف ، ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ، ومن ثم ترى مجاهدة اللذة فى الحب هى اسمى لذاته . ويعرف بها فى نفسه ضربا آلهيامن السكينة تولية القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ويعرفها ويبدع فيها عمله الفنى العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل إذا كان زوجا وعشق ، أو كان عشيقا وتزوج بغيرمن يهواها ، استطاع أن يبتدع لنفسه فنا جميلا من مسرات

الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة . مثل هذا المفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة ، كما يحتاج إلى العشيقة فهو فى قوته يجمع بين لزامه هذه وقدسيه تلك ، لأن احداهما توازن الأخرى وتعدلها فى الطبع . وتخفف من طغيانها على الغريزة وتمسك القلب أن يتبدد فى جوه الخيالى . . »

* * *

وللرافعى فلسفة فى الحياة ، تحمل طابع التشاؤم ، كانما ينظر صاحبها إلى الحياة بمنظار أسود . .

« ما آتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثل كل منا فصلا من معانى الشقاء فى تلك الثياب التى هى ملك لصاحب المسرح لانخلعها ونلبسها . . بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر ، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها . . وضعها ذلك القلم الأعلى . .

والمشكلة الإنسانية الكبرى أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية وممثلها البكر ، والقوم والقدر والموت كالشىء الواحد . . »

* * *

هذه الفلسفة منبعثة من أحساس بالحرمان من الحب . ومن ألم صادع مصدره ذلك الشقاء . . . الذى ظل الرافعى يحمله فى أعماقه طوال حياته . . منذ . . . ذلك اليوم الذى ذهب إلى صاحبته ، فرآها قدجلست إلى « شاعر » تحدثه ويحدثها . .

فلما طال انتظاره ، مضى على وجهه وأرسل كتاب القطيعة .

وأرسلت صاحبته تعتذر له . ولكن الرافعى مضى فى طريقه . . وأصر ، ثم أحس بعد أنه كان مسرفا . . . ومن يومها ، عاش الرافعى فى غمره من الشوق والألم والبغض لا تنجلى عنه .

« وما(١) عرف إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ، وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان ، وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفليسوف وكبرياء المتكبر . وظل وظلت . . وبينهما البعد البعيد ، على هوى وحنين ، حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء . . »

ويصف هو هذا الحب . . « كان حبى إياها حريقا فى الحب فمثل لعينك جسما تناول جلده مس من لهب فتسلع هذا الجلد هنا وهناك من سلخ النار . وظهر فيه من آثار الحرق لهب يابس أحمر ، كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم .

والحب — إن كان حبا — لم يكن إلا عذابا فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق . ليس حالة منه فى عذابه إلا وهى دليل على شىء منها فى جبروتها .

ولما رأيتها أول مرة ولمسنى الحب لمسة ساحر ، جلست إليها أتأملها واحتسى من جمالها ذلك الضياء المسكر الذى تعربد له الروح عربدة كلها وقار ظاهر ، فرأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى فوقها الآدمية ساكنة وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى . . »

ويصف الأستاذ سعيد العريان حب الرافعى فى أكثر من موضع فى كتابه حياة الرافعى « أن الحب عند الناس هو حيلة لإيجاد النوع ولكنه عند الرافعى حيلة النفس إلى السمو والأشراق والوصول إلى الشاطىء المجهول . هو نافذة تطل منها البشرية إلى غايتها العليا وأهدافها البعيدة . . »

---

(١) سعيد العريان فى حياة الرافعى

« كان يحبها حبا عنيفا جارفا لا يقف فى سبيله شىء ولكنه حب ليس من حب الناس . حب فوق الشهوات . وفوق الغايات الدنيا . لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح وقد وجدهما ولكن فى نفسه لا فى لسانه وقلمه .

وأحس وشعر وتصورت نفسه الآفاق البعيدة ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذى يصف نفسه ويبين عن خواطره .

لقد أحبها جهد الحب ومداده . حبا أضل نفسه وشرد فكره وسلبه القرار ولكنه حب عجيب ليس فيه حنين الدم ولكنه حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر وخلوه الروح إلى الروح . .

و . . كان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة . . وجد فى كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضىء بها فكره . وكان آخر حبه الألم . وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة . . »

* * *

وظل الرافعى يحب صاحبته « أنه ليس معى إلا ظلالها . . ولكنها ظلال حية تروح وتجىء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كائن لا يفنى »

وكان يحس بلذع الحب بعد مضى ثلاثة عشر عاما طوالا . . فيقول « انها حماقتى وكبريائى . . ليتنى لم أفعل . . ليت »

وأنشأ الرافعى رسائل الأحزان وفى وقدة الحب وغمرته ، ثم أنشأ أوراق الورد بعد أن تحول الحب إلى حزن مقيم فى أعماق النفس ، وكان حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبته ، ولعل من آثار هذا الحب هذه المعركة الضخمة التى اندلعت بينه وبين العقاد ، وامتدت آثارها إلى المدرسة الحديثة . .

« لقد[1] وضعك حسنك فى طريق موضع البدر ، يرى ويحب ولا تناله ولا تعلق بنوره ظلمه نفس ، ولكن كبريائك نصبه الجبل الشامخ كأنه ماخلق ذلك المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه »

« .. ومحت[2] صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف لتملأ هى نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ، وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير « مصيف » مشغله فى الليل والنهار

ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم .. وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لوانها .. كانت زوجته .. ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء .

وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعينى العاشق . وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتحل العقدة ..

« ثم جاءت كبريائه لتخط الخاتمة » .

* * *

ولكن الرافعى بعد أن فقد صاحبته تفتح للحب ، فعاش له ، كان يحاول أن يملأ فراغ نفسه ، ولكنه فيما يبدو لم يستطع .. فقد أراد أكثر من مرة .. أن يعيش فى حب جديد ، ولكنه كان أبداً مشدوداً إلى حبه الأول

عاش الرافعى حياته للحب ، كانت « مى » هى المنار القوى السامق الذى يبدو له من كل مكان ، وهو بين عواصف البحر ولجه .. « ورأى فى وجهها من النور والصفاء ماجعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى فكل مافى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها . . وكل مافيها من ظلمات الحزن هو نفسه[3] .

* * *

(١) الرافعى (٢) سعيد العريان (٣) الرافعى

ولعل فشل الرافعى فى حبه .. هو الذى دفعه رأيه إلى أن يسوء فى المرأة «.. والمرأة من هؤلاء لايمشى أمرها فى الناس ولا يتصل عيشها إلا إذا كثرت ثيابها ، فهى تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل . فينبعث منها الغضب .. وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث منها الرضى وهى فى أشد الغيظ .

« فهى تبرز حين تخرج من بيتها لا إلى الطريق ولكن إلى نظرات الرجال وتظهر حين تظهر بصورة لا يتلوين نفسها بما يجوز وبما لايجوز ولكن يتلوين مرآتها بما يعجب ومالا يعجب . . »

وقد أثير سجال فى « الرسالة » بين تلميذين من تلاميذ الرافعى حول حب الرافعى قال فيه الأستاذ حسنين مخلوف أن الرافعى أراد أن يحدث فى اللغة العربية لونا من الفن الممزوج بالفلسفة الاجتماعية التى تقوم على إيجاد المرأة على النحو المستفيض فى الأدب العربى فطلب الحب لذلك . . أما الأستاذ كامل محمود حبيب فيرى أن الرافعى شعر بخفاف قلبه لشدة تدينه فطلب الحب ليندى به قلبه ويرق أسلوبه . ويرى الأستاذ سعيد العريان أن الرافعى بكبريائه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يخلق للحب . ولكنه أحب . فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام وصراعا دائما . ومقطع القول فى كل هذا ما أوردناه فى أول هذا الفصل عن فلسفة الرافعى فى الحب وهى إيمانه فى الجمع بين الزوجة والحبيبة .

* * *

والرافعى إلى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين . فهو إذا أتحدث عن الأديب أو المفكر الذى يصر على العزوبة قال أنه يكون رجلا قد طغت فيه الحياة طغيانها العصبى الشديد المجتاح ، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الخيالى العنيف التمرد . وهذا لا يصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له . فانه إنما يريد المرأة المغلة ، كأنها ضيعة من الفن الحى ، تغل عليه من

ثمراتها . وقد أبى الشيطان لعنه الله إلا أن تكون المرأة المغلة فى الفن امرأة محرمة .. ومتى كان الشيطان فى الأمر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حده . ومن هنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة . وهذا سر تعزبهم وانصرافهم عن الزواج أو انصراف الأزواج عنهم وهولاء بركة على الفن ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة . ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقرى فيهم هو من ناحية أخرى الحيوان العظيم .. »

* * *

فاذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعى على ضوء هذه الصورة وغيرها من صور حياته وجدناه مثلا لعزة النفس وكبريائها .. وقد عاش طوال حياته فى حدود دخله الضيق . ولم يفد من الإنتاج الأدبى فائدة تذكر . فقد كان أدبه من ذلك النوع الذى لا يؤدى إلى الثراء ..

بل لعل إنشاء هذا الأدب الجديدة الذى كتبه فى الرسالة ، إنما جاء نتيجة للاضطرار حين أراد أن ينفق على ابنه فى بعثته فى الخارج .

لم يسافر الرافعى إلى خارج مصر ، وإنما عرف بحبه للانتقال بين المدن المصرية . وكان يجد فى الإنتقال لذه يعذى به عاطفة ويمد أدبه . .

وهو يؤمن برسالته الأدبية « .. القبلة التى إتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا مايبعثها حيه ويزيد من حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة . ولذا لا أمس من الآداب إلا نواحيها العليا . ثم أنه يخيل إلى دائما : إنى رسول لغوى للدفاع عن القران ولغته وبيانة .

وقد قرأ الرافعى فى فجر شبابة جمال الدين ومحمد عبده وصروف وغوستاف لوبون وتأثر بهم . ويرى أن كتابه أوراق الورد هو خير كتبه « لأنى لم أتعب فى شىء مثل تعبى فيه وربما بيضت الرسالة الواحدة فى أربع ساعات لأن

الغرض هو أعطاء العربية هذا الكنز الذى ليس فيها .. »

وقول الرافعى أنه إنما يريد ابتداع لون جديد من فلسفة الحب والجمال فى الأدب العربى إنما هو تبرير لنشر هذه الرسائل فى الوقت الذى كانت فيه الكتابة عن الحب معدودة من المحرمات ، أو مما لا يليق بكتاب الدين والأدب الرفيع .

وقد استطاع الرافعى تحت هذه الظلال أن ينفذ إلى غرضه وإن يترك ثروة ضخمة من هذا اللون الذى تحرز من الكتابه فيه من كانوا فى نظر القراء أقل محافظة وأكثر جرأه ..

وليس من شك أن الرافعى كان مخلصاً لامانته وفنه، فقد كان يسكب روحه على الورق. ويصدر عن نفس مؤمنه ، عميقة الإيمان والإقتناع ، ولعل النقص الطبيعى فى حاسة سمعه ، كان يدفعه إلى أن يداور المعنى ليسلس له أو ليجعله أشد وقعاً فى إذن القارى وفى نفسه .

ولقد عرف « الرافعى » بالقسوة البالغة فى ميدان النقد حينما يتصل ذلك بأدبه ، عرف ذلك فى موقفه من العقاد وطه حسين وزكى مبارك وقد داعبه «الزيات» فى هذا حين كتب رده العنيف على « عفيفه السيد » إذ قال إنه حين أرادأن يمسك قلم أوراق الورد ليكتب رده ، أخطأ فامسك قلم « على السفود» .

وإذا كان المؤرخون يأخذون على الرافعى شيئاً فانما يأخذون عليه ترحضه فى كتابه « على السفود » .

ولكن يبدو أن « طاقة » الرافعى الناقدة كانت ضخمة جداً لوانه أستطاع أن يجد المجال لها ، وفى خطاب منه إلى الأستاذ محمود أبو ريه[1] « كل ماأتمناه من زمن بعيد هوان أتفرع لمقالات فى النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحية الضعيفة وتبنى عليه أدباً جديداً »

---

(١) رسائل الرافعى

وكان رايه فى الصحف سيئا .. «(١) لوعرفت يا أبا ريه الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفاً ولكنها حوانيت تجارة .

والرافعى سىء الرأى فى المنفلوطى« .. فان حياة هذا الرجل كانت كلها موت له فصارموته كانه حياة تبعث على الرغبة فى قراءة ما كتب« ولكن الرافعى على شماسه وعصبيته كان حريصاً وكان يعرف مايطلقون عليه اسم الكياسة واللباقة . يبدو هذا فى خطاباته إلى الأستاذ محمود أبو ريه :

« .. وأعلم إنى لو نظمت رثاء الشهيد فريد بك كما يجب أن ينظم وفى المعانى التى تليق به ارأيت فى الصحف خبر نقلى إلى قنا أو مادونها فترك الشر ساكناً أجمل بى .. »

وقوله :« دار الكل .. فان أتقاء الضرر كجلب المنفعه فاجعلها قاعدتك »

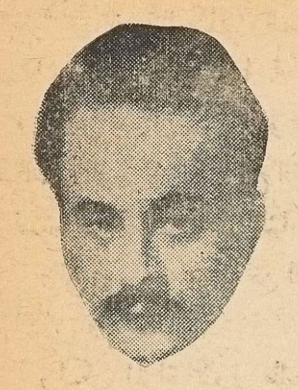
* * *

وغاية القول فى « الرافعى » إنه كان على رأس مدرسة جديدة لا شك فى جدتها وقوتها ، فى إنشاء هذا اللون الوجدانى ، وجديدة فى قوتها وصراحتها وجرأتها فى النقد .

---

(١) نفس المصدر

جبران



عاش جبران خليل جبران حياة يلفها غموض وسحر وبريق ولهب وحب .. هذا النحيل الذى كان يرسم ويكتب. ويطوف ببلاد أوربا وأمريكا. ويكتب بالإنجليزية والعربية . ويعيش فى برج عاجى فى قلب بلاد المهجر. ينشىء فناً جديداً من فنون الكتابة فى الأدب العربى يتحرر به من قيود اللغة والأدب . ويضرب فى سبيل جرىء .

هذه الحياة القصيرة ، التى عاشاها جبران ، ثمان وأربعين عاماً . كان الحب والألم عنصراها الخالدان . ومنهما استمد الأدب عنده حياته وحرارته .

وأحب أول ما أحب فى هذه الدنيا « أمه » . أحبها بعنف وحرارة غير معهودة ..

« أمى . إن أعذب ما تنطق به الألسنة هو لفظ الأم ، وأجمل مناداة فى الوجود هى «يا أمى» كلمة صغيرة كبيرة . مملوءة بالأمل والحب والانعطاف. الأم هى كل شىء فى هذه الحياة . هى التعزية فى الحزن والرجاء فى اليأس . والقوة فى الضعف .. هى ينبوع الحنان والرأفة . فالذى يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه ، وعيناً تحرسه ، كل شىء فى الطبيعة يرمز

ويتكلم عن الأمومة ، فالشمس هى أم هذه الأرض ترضعها بحرارتها . وتحضنها بنورها . ولا تغادرها فى المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر . وترنيمة العصافير والسواقى ، وهذه الأرض هى أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها .

وعاش جبران للحب . وعرفه بكل ملذاته وآلامه .. « الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية فتجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل . وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

ولقى فى حياته موكباً من النساء . فى باريس . وبيروت . وبروكسل . ولندن . وبوسطن ..

ولكن المرأة الأولى ظلت تقيم فى أعماقه لا تبرحه .. « سلمى كرامه » المرأة التى أحبها فى سن الثامنة عشرة .. المرأة التى علمته عبادة الجمال . وأرته خفايا الحب .. وختمت قصتها بالمأساة . حين أرغمت على الزواج برجل آخر . وماتت وهى تضع أول ثمرة من أحشائها .

« .. « سلمى كرامه » ، المرأة الأولى التى أيقظت روحى بمحاسنها . وعلمتنى عبادة الجمال . وأرغمت على الزواج برجل آخر .. »

* * *

كان فى قلب جبران وعقله شىء واحد .. هو الفن : على صورة من الرسم أو ورقة من الكتابة . كلاهما سيان عنده . ولما قصد إلى بيروت ليدخل مدرسة الحكمة ويتعلم العربية .. وأحس بالفشل . ذهب إلى باريس ليدرس الفن . .

شاب فى العشرين من عمره . يرتاد متاحف اللوفر . . ويشاهد آثار ميكلانجو ورمبرانت وروبنسن . . وفى العام التالى (١٩٠٤) عاد إلى بوسطن حيث وجد أمه وأخوته فى أشد حالات الألم . ومات بطرس وماتت الأم بالسل .. وبقيت أخته مريانا تنفق عليه من إبرتها .

وتقاذفته عواصف الحياة . واندفع يعب من تيارها . « إننى أمشى دواماً على هذه الشواطىء بين الرمل والزبد . يجىء المد فيمحوا آثار قدمى وتهب الريح فتثير الزبد هباء ولكن البحر والشاطىء باقيان إلى الأبد .. »

وعرف الحب فى صورة أخرى غير صورة سلمى كرامه . وقال عنه « إنه كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل . وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

عرف « مارى هاكس » .. ووجد فيها ذلك الملاك الذى كان يفتش عنه منذ سنوات . وجد الصورة الحية فى أعماقه . أعجبه فيها ذوقها وفهمها للفن . كانت تحبه متجردة للحب . لم تكن تتمنى إلا أن تأخذ بيده إلى المجد . كانت تؤمن أن لكل فنان ملهمة . فأرادت أن تكون ملهمته . يقول ميخائيل نعيمه « ولم يخطر له ولا لمارى هاكسل أن الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه العظيم خطى حياتهما ، ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الأزل على منواله السرمدى »

وعرف ميشلين . كانت فى عينه ملاكا فى صورة امرأة . فى العشرين من عمرها . فيها طهارة الطفل وابتسامة الزهر . « جميلة تمشى كان فى رجليها أجنحة وفى قلبها سلطانها . لا عقلها . بلا ادعاء ولا كبرياء » وربط الحب بينه وبينها بالروح والجسد . ورمته بالأنانية لأنه رفض الزواج بها واتهمته بأنه لا يعرف إلا نفسه .

وظل حبها يصارع حب مارى هاكسل فى نفسه . وكان صراعاً طويلا جباراً وصفه بقوله : كان حبى للاثنين خالصاً وفياً . أحببت مارى هاكسل لتجردها من الرذائل وكرم نفسها . وذوقها السليم فقد أحبتنى ولم تطلب منى شيئاً . وأحببتها ولم أطلب منها شيئاً وأمدتنى بالمال فى وقت حاجتى لها . ولم تكن لها أمنية إلا أن ترانى أرتقى مدارج الشهرة والمجد والكمال الفنى فى الرسم .

أما المرأة الثانية فقد أحببتها لجمال روحها وجسدها . أحببتها لوفائها وأنوثتها وطاعتها . كانت مارى أكبر منى ومشلين أصغر منى سنا »

* * *

وعرف أميلى .. كانت زميلته فى المدرسة . كانت آية فى الجمال والروعة لقد فتنه منها أنها قالت له عند ما رأت لوحته عن البحر : الفن هو أن تأتى بضمير البحر لا أن ترسم أمواجاً مزبدة أو مياهاً رزقاء هادئة . وكانت مثال البساطة والصراحة تغلب العقل ولا تعرف الشهوات .

وأحب « مى » دون أن يراها أو يعرفها . كان يحس أن روحها أخت روحه « سكب كل منا روحه فى رسائله إلى الآخر .

وأرسلته مارى هاسكل إلى باريس على نفقتها . وعاش طالباً فى البوزار فى الحى اللاتينى .. يفكر فى المرأتين اللتين تركهما وراءه . . ويقول يا ليت روح مارى كانت فى جسد ميشلين ، وجاءته ميشلين . . من وراء المحيط . ولكنها سرعان ماتختلف معه وتهرب عند ما ترى أنه لايريدها إلا حظية له ..

وأمضى ثلاث سنوات زار خلالها رومه وبروكسل ولندن ومتاحفها وآثارها الفنية وعاد إلى أمريكا ليبدأ حياة جديدة غير واضحة المعالم ، وكان خلال إقامته فى باريس قد أنشأ كتابيه عرائس المروج والأرواح المتمردة ..

كان يطمع من أن يفتح الفن والأدب أمامه آفاق الحياة فيريح مريانا من الإبرة . وكان ما يزال يحب مارى . وكانت هى تقدر مواهبه وتفهم أشواقه ومطامحه . ففكر فى أن يتزوجها ليضع لحياته قاعدة تدفعه إلى التفرغ لعمله .. وقد وصف ميخائيل نعيمه حبها بقوله « كانت تحبه حتى لتحس بخمر جديدة تدب فى أفكارها عند ما تجلس إليه » فلما عرض عليها رغبته فى أن تتزوجه قالت له: وهل أنت نظيف .. « وانقلب من حمل وديع إلى أسد جريح . كان يظن أن حبها له أرفع من محبة الذات » . . وتقاطعا وبدا أن

حبهما قد تحطم . . ولكنها مع ذلك ظلت تبعث إليه بالحوالة ذات الخمسة وسبعين دولاراً .

وفى ضوء هذه الحياة المليئة بالحب والعواصف والآلام والمتاعب أنشأ جبران أدبه . كانت قراءاته فى الأدب الغربى ورحلاته المتعددة . وحياته المضطربة ، هى التى صنعت أدبه المتمرد . الملىء بالحرية والصراع والثورة . .

لقد أحب نيتشه وفتنته دعوته إلى الإنسان الأعلى . وكادت معرفته له أن تطغى على معرفته لجميع الأدباء والشعراء . حتى لقد قال أن معرفته لنيتشه قد جعلته يخجل من إثارة الأخرى التى قدمها قبل أن يعرفه .

وفى هذا الإتجاه يقول « أن الدموع إنما تليق بمآقى النساء .. أما أنت فدعك منها » واندفع يحرر نفسه وأدبه من الدين ، حتى رمى بالكفر ، لقد أنكر الأديان واتجه إلى الإنسانية العليا . .

« لقد حررت عواطفى من عبودية الشرائع لأحيا بناموس المحبه، وحولت وجهى نحو الشمس لئلا أرى جسدى بين الجماجم والأشواك . أن شرائع الزواج كما يطبقها الناس هى من صنع الرجل . أما الحب الذى يريدون أن يجعلوا الزوج تاجاً له واكليلا . فهو من صنع الله . فالكاهن الذى يبارك لن يطرد الحب من قلب يقيم فيه . ولن يدخله إلى قلب خلى » .

وهو منذ شبابه ثائر متمرد ، لايحب الإعتدال « أحب من الناس المتطرفين. أحب القادرين على الهبوط إلى لجج الحياة والصعود إلى أعاليها . أحب الذين يميلون بكليتهم إلى وحدانية الأمور فلا يقفون مترددين بين نقيضين . أحب النفوس الطامحة بمرام كاتب قوى ثابت . وأهوى الإرواح البسيطة .

« أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين . المستسلمين إلى عواطفهم المنصرفين إلى مبدأ خاص . المتحولين عن اختلاط الأفكار إلى فكرة أو اية مجرده . ترتفع بهم إلى ما وراء الغيوم وتنحدر بهم إلى أعماق البحار » .

وهو فى الحب يبغى التطرف . « من يعتدل فى حبه لا يشرب من كاسات

الحب خلداً مبرداً ولا امرأ حاميا . ومن يعتدل فى دنياه يبقى حيث ولدته أمه . فلا يتراجع إلى الوراء ولا يخطو إلى الأمام . أحب الذين احرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة اشعلت قلوبهم » .

وكان جبران بهذه النفس الثائرة العاصفة يحب العواصف والأعاصير والأمطار المنهمره والأشجار التى تتمايل وتضطرب أغصانها »

وكان من جرأة رأيه أن حرمته الكنيسة من حقوقه وحكمت عليه بالنفي لأنه كان إنسانياً فى الدين فلا يراه فى حدود الطقوس والمزامير .

وهو غال فى رأيه ، يميل إلى الغرابة ، ويكره السهل واليسير والرأى المطروق . وطبيعته لا ترضى بالطريق المسلوك ...

« أريد أن أنصب تمثالا للجمال لا للحرية . لأن الحرية هى التى يشعلون الحرب تحت قدميها . أما الجمال فهو الذى يمد الناس أيديهم إليه رمزاً للاخاء والحب » .

* * *

ومضى جبران يشق طريقة . ويكتب رسائله . ومن أبرزها فى هذه الفترة كتاب «النبى» الذى صوره فيها على هيئة « زرادشت» التى خلقها نيتشه . وإن كانت شخصية النبى هى خلاصة أفكار جبران ذاته .

يقول مخائيل نعيمة أنه بعد سنة ١٩٢٠ أشرف على فجر حياة جديدةوأن العواصف التى أثارها نيتشه كانت قد بدأت تهدأ . وإن جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنه بجمال الحياة وحكمتها قد عاد يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقة .

وأخذت الشهرة وعلامات المجد يملأ حياة الفنان الكاتب . فتزايد زوار صومعته وتكاثر المعجبون به وأكثرهم من الجنس الآخر . وبدأت علامات

الثراء تغمره وانطوى منه الأدب الجرىء وبدأ أدب المجاملة حيث يصفه نعيمة بقوله « ولما أحس بالمجد والعظمة على السنة الناس لم يعد فى استطاعته أن يكوى تلك الألسنه بنار نقمته وسخريته بل صار يبذل كل جهده ليكون عند حسن ظن الناس . وكلما ازداد توفيقاً فى هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهره التى يعرضها على الناس وروحه الباطنه التى كان يسترها عنهم » .

وكان قبلا « يصفع الناس بيد ويصافحهم بالأخرى . ويثور عليهم عند ما تثوب إليه روحه المتألمة من كل شفاعة وقسوة وظلم . ويسالمهم عند ما تثور عليه نفسه الطامحة إلى المجد والعظمة وهكذا انقسمت نفسه على نفسه » .

ومضى جبران يعمل وينتج . كانت روحه القوية تنازع الداء وتصارع الألم . . .

وظل الحب عنوان حياته وقوامها .. كان يحب ويدعو إلى الحب ويتسع حبه للعالم كله وقد شرب كاس الحب حتى الثمالة .

يقول « عندما تتوثق عرى الصداقة بين رجل وامرأة فيذوقان معاً كأس الحياة مترعة . تكون منهما ذاتية واحدة . وأصبحا كمن حمل وولد ولداً ، له أمل فى البقاء والتناسل أو أنهما نظما قصيدة أو أنشودة لا تموت . هناك فى عالم الخالق شىء لن يموت لأننا صديقان » .

والحق أن المرأة كانت هى أروع فصل فى حياة جبران . هى روح تلك الحياة . ومنها استمد الضياء والفن والإلهام .

تقول برباره ينج صديقة جبران ومؤرخته : لم يشهد العالم كله أغرب كجبران . شرب الكأس حتى الثمالة مره وشهده . وليس ثمة عاشق يعتد به فى الوجود يتحدث عن كأس الحب الذى شربه ..

كان هناك صنفان من المرأة فى نظره . المرأة التى كانت تحبه وتخلص له وتتفانى فى ولائها ، لأن هذا الحب كان وليد الإقرار بالفضل والاعتراف بالجميل .. كان حباً خالصاً ، لا يتطلب منه مجهوداً أو بذلا . وهناك المرأة التى كان يصف حبها بقوله « تعتقدين أننى أحسن مما أنا حقيقة . تحبيننى شاعراً ورساماً . وتصبو نفسك إلى شىء منى كشاعر ورسام . أما أنا بالذات فلست تعرفيننى ولا تحبيننى » .

* * *

وعاش جبران حياة البوهمية المطلقة . يحس أحياناً كأنه هبط إلى هذه الدنيا من أحد الكواكب . وأنه إنسان يعيش على هذه الأرض بغير أمس . وبغير ماض . وكأنما كل ما حوله من مظاهر البشر وأشكالهم وأصواتهم غريبة عنه .

يقول « عند ما قذفتنى أحشاء الغيب فكرة هيولية اجتمعت الكائنات حولى لتخرجنى هيكلا ينبض بالحياة ، قبلتنى النجوم بأشعتها فاستيقظت ، ونفثت أزاهير الفصول الهاربة طيباً فى فمى فتنفست . وأنشدت الحياة والأعاصير أغنيتها فى أذنى فتحركت ، وسرت هينمة النسيم فى مفاصلى فاختلجت . وظلت موسيقى الكائنات تهدهدنى بين أنغامها المنعشة إلى أن تكونت » .

هذا هو أدب جبران يصوغ المعانى صوراً هائمة ، حالمة ، وقد عرف بهذا اللون الابتداعى الخالص .

وفى كتاب « النبى » يصور المحبة على هذا النسق الموسيقى الحالم .

« جوهر الحياة واحد وهو المحبة . وهذا الجوهر يدفع ذاته لكل الناس على السواء . ولكن بعضه لا يسمعه ولا يبصره . أما الذى طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية . ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع

و يبصر من الحياة إلا جوهرها الصافى . وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها . بل يحبها بكليتها .

الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجريئة والفردية والزمانية والمكانية ، وهى قطرة الماء مثلها فى الاقيانوس . وفى ذرة الرمل مثلها فى الجبل » .

* * *

ولما ارتوى جبران من الجمال والحب والمجد . . بدأ يحس بالانطواء ، وأخذ يكره الحضارة والمدنية الصاخبة العجاجة ، ويحلم بالجبال ، « لقد اتسعت دنياه ولكنه أحس بفقر آحد نابا من الفقر القديم . ولوجده أقسى ملامس من تلك التى طالما ساورت أيامه ولياليه . فقد أقفر قلبه من الحب فى حين أن النساء كن يحمن حوله ، حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما إليها من بخور الإعجاب ، قد تخدر القلب حينا ولكنها لا تطفىء عطشه ولا تسكن جوعه ولا تؤنس وحشته . . فكيف به إذا كان قلب شاعر وفنان » هكذا يصفه ميخائيل نعيمه . .

لقد جمع جبران فى أدبه بين المتناقضات . ولكنه كان صادقاً . إن أدبه مرآة نفسه ، فى تطوره من الشباب العاصف إلى الشخوخة المتمردة . . ومع ذلك فقد كان يرى أنه لم يصل القمة فيقول « إن كرمتى لم تثمر غير الحصرم ، وشبكتى ما برحت مغمورة بالماء » .

وعاش حياته . ثمان وأربعين عاما . فى صراع مستميت مع نفسه ليكون مثالا أشبه بالتمثال المصنوع من المرمر . وترك تراثا أدبياً خالداً . هو لون جديد من الأدب العربى الجرىء الحر : الجرىء على قيود الأسلوب واللغة والخيال . الحر فى أفكاره وأدائه . ولقد صدق جبران حين قال « جئت لأقول كلمة . وسأقولها . وإذا رجعنى الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد .

فالغد لا يترك سراً مكنوناً فى كتاب اللانهاية » .

وعاد جبران إلى الأرض التى أحبها . ولكنه عاد جدثاً كريماً حيث ثوى قريباً من المكان الذى أحب . . . كان ذلك سنة ١٩٣١ . كنت طالباً فى المدرسة الإبتدائية . وإنى لأذكر ذلك كأنه وقع الآن . وكان الأهرام يصل إلى بلدنا فى الساعة الواحدة ظهراً . وكنا فى إحدى حصص بعد الظهر حيث لمحت اسم جبران فى الصفحة الأولى ينعى إلى القراء . وساءلت نفسى من يكون جبران خليل جبران . إن اسمه الموسيقى قد ملأ نفسى فرغبت إلى أن أقرأ له . وصادفنى أول ما صادفنى له كتاب الأجنحة المتكسرة فرأيت عنده فى ذلك الوقت الباكر شيئاً جديداً لم يكن معروفاً فى أدبنا العربى . هذه الطلاقة وهذه الألفاظ المتموجة كأنها لحن موسيقى أكثر مما هى كلام مكتوب . . .

وبدأت أعرف الأدب المهجرى وأقدر مكان جبران فى أدبنا . وأخذت أدرس هذا الطابع الجديد الذى تميز به أدباء المهجر ولكنى كنت دائماً أرى جبران قمة من القمم العالية . كنت أحس أن وراء معانيه روحاً ثائرة متمردة منفعلة . بها مرارة واضحة . كأنما يريد جبران للشرق أن يلحق بالحضارة فى دفعة واحدة ، ولا يقدر التطور الطبيعى . فهو ثائر ، أغلب ثورته على الطقوس والتقاليد الموروثة باسم الدين والتى يسيطر بها الكهان على الناس . . وهذه فى عقله الباطن ترجع إلى قصته مع سلمى كرامه . يوم وقفت هذه التقاليد حائلة دون زواجه بها بعد أن أحبها . وكأنما كان هذا الموقف مقطعاً فاصلا فى حياته وتفكيره وعقيدته . فهو قد اندفع فى الحياة يكافح ولكنه لم يأنس ما بقى من حياته إلى امرأة على كثرة ما عرف من النساء . وكأنما وقف ذلك الحب القديم حائلا بينه وبين ممارسة هذا الفن الجميل ..

ولعل اندفاعه فى سبيل المجد قد حال دون أن يتم حياته فى هذه

الناحية كأى فنان ، وجملة القول أن جبران فى مجموعه علماً على الصراع بين الشرق والغرب . وبين لبنان وأمريكا . وبين ظلال التقاليد وحرية الحضارة فى ميادين الأدب والمجتمع والحياة فهو أحد ضحايا التطور . وأحد روادنا الأوائل. وقداتسم أدبه بهذه الحيرة ، اتسام حياته بها . فقد كان أدبه صورة نفسه وحياته . لقد حاول أن يعيش فناناً فى قلب أمريكا ، مع ذلك فقد ظل ذلك الإنسان الشرقى الـكامن فى أعماقه يراوده ويصارعه ويضايقه . . ويبدو أنه كاد يستسلم إليه فى آخر أيامه عند ما خفت حدة الصراع ودخل فى دور الشيخوخة .

« مى ... »



كانت قصة « مى » فريدة فى موضوعها ، لم يتح لها أن تتكرر فى تاريخ الأدب العربى المعاصر ، فهى مرتبطة أشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على أثر صيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال أن « مى » فكرة أكثر منها أنثى ، وعلامة من علامات الطريق أكثر من أنها كاتبة عاشت فى القاهرة. وكان لها صالون تستقبل فيه أعلام الأدب أمسيات الثلاثاء .

برزت فى الوقت الذى كانت المرأة فيه ماتزال محجبة ، وكان إلهامها لأرباب الفكر وأهل الأدب يكاد يكون معدوما . فكأنت « دره » مفرده ، يلتقى فى مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى واسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن .

ولعلنا لانستطيع أن نخلى آثار هؤلاء الأدباء من طيف مى ، وروحها اللطيفة . فقد أجمع هؤلاء جميعا فيما كتبوا عن « مى » أنها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة ، بارعة الحديث ، سيدة صالون بحق ، قد أعادت فى قاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولادة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والأدب والشعر والفن ، وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها

تدير الحوار فى براعه، وتنقل المحدثين من فن إلى فن .

* * *

قرأت آيات الأدبين الفرنسى والعربى إذ فتحت عينيها على مكتبة والدها الأديب الصحفى ، واكسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنيا ، فانشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية ، وأسلوبا يدل عليها وتعرف به ، فكان أدبها صورة نفسها فى أحزانها وأفراحها وآمالها وآلامها ...

وكان أدبها إلى ذلك صورة الأدب النسوى العربى فى طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية ، وقد كانتا شاعرتان أكثر منهما ناثرتان ، ولذلك عدت « مى » الرائدة الأولى للأدب النسوى الخالص .

وقد أتاحت لها هذه الحرية فى الكتابة والحياة والانطلاق بيئتها اللبنانية الأولى التى تفتحت عليها نفسها وعواطفها ، فهى قد ولدت فى الناصرة ، وقضت أيام طفولتها فى كسروان وعين طورى . ثم جاءت إلى مصر فجمعت بين روح الجبل وروح النيل ، وبين أدب الانجيل وأدب القرآن ، وبين بيان الضاد وبيان الفرنسية . فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذى أتاح لها هذا القلم الرشيق الأنيق ، وذلك اللسان اللبق البليغ . وهما قلما يجتمعان لأحد إلا فى النادر فقد عرف أن الكتاب البارعين لا يكونوا محدثين إلا فى القليل ...

* * *

ونحن إذ عدنا إلى « مى » وتصورناها تعيش فى القاهرة ، وقد أخذت تذيع أدبها فى الهلال والمقتطف والأهرام ، وتفتح صالونها للأدباء والأقطاب رأيناها أشبه بروح جميل ، تنشر الضياء والشذى . . من حولها إلى كل مكان يمكن أن يصل إليه ، وإلى أبعد مكان يمكن أن يصل إليه ، فقد كان جبران خليل جبران يعيش فى المهجر ، ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون

من الحب الروحى الغامض لمى ، وكان الرافعى وهو يعيش فى طنطا يحس أنه مرتبط الأواصر بها ، بل أن الأمر ليبلغ بالرافعى حداً ، أن تكون هذه الرابطة أعظم خطراً من ، علاقة صداقة مجردة . . فقد لونت « مى » أدب الرافعى كله ، وأثرت فى أيام حياته كلها منذ عرفها إلى أن قضى . .

والحق أن « مى » قد أوحت إلى الكثير من الأدباء المعاصرين ، وأمدت أدبهم بالهامها وتركت روحها وراء كلماتهم .

. . .

ولكن « مى » التى كانت تلتقى بالأدباء ، وتفتح صالونها لأقطاب مصر ومفكريها ، كانت فى صميم حياتها الخاصة منطوية على نفسها ، كانت حريصة على أن تعيش طويلا فى « برجها » الخاص لاتبرحه . كانت محافظة كثيرة الحيطة والكتمان والاحتراس ، تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك فى مرح الرجال .

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقى البعيد المدى ، الذاهب فى جذور النفس ، والذى لم تتخلص منه حين تخلصت من مظاهره . ولكنها إلى هذا كانت مصرة على أن يظل لها جوها الخالص ، وكانت لاتقبل النصح أو التوجيه فى تغيير أسلوب الحياة . وفى رحلتها إلى أوربا وعودتها ، كانت تعكف على نفسها وتنزوى فى ركن من أركان المركب ، لاتشارك فى رقص ولا طرب ولا مرح .

أنها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المنطوية ، الذى استقبلت الحياة على صورة لم تسبقها إليها أنثى فى زمنها ، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيه على شجرة ، أوفنن . .

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا ، هناك نفوس حيرى كانت تتصل

بها ، وتكاشفها بالعاطفة ، ونفوس أخرى طوت أضالعها على شوق أو إعجاب . وتلقت هى رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعى وعشرات آخرين ووجدت فى هذه الرسائل آمالا ومعانى ، تتصل بالنفس الشاعرة ، وكتبت « مى » إلى هؤلاء ، ولكن إلى أى حد مضت هذه الخطوط . .

من أحبت « مى » صادقة من هؤلاء ، وكيف رسمت فى نفسها صورة المستقبل ، هذا هو الجانب الغامض فى حياة مى . وهنا سر حياتها وموتها ومصدر أزمتها التى أنهت حياتها بمأساه .

كانت « مى » روحا لطيفا ، وكانت تحب حبا وجدانيا خالصاً . ولكنها لم تلبث أن بدأت تصارع عوامل مختلفة متعددة فى حياتها فقد ارتفع بها السن وبدأ ان الحياة لابد أن تأخذ طابعاً أكثر استقراراً . . . وفيما تمضى مى فى طريقها إذا بها تتلقى عدة صدمات فى وقت واحد فقد مات أبوها ، ثم ماتت أمها بعد فترة قصيرة . . فزلزلت الحياة أمامها زلزالها . ثم لم يلبث أن نعى لها جبران وكانت تضمر له وداً خالصا وتصطفيه .

. . .

استقبلت « مى » الحياة على غير الصورة التى تستقبلها بها الفتيات ، كان للصالون والشخصيات التى التقت بها أثرها فى نفسها ، وفى تكوين « عقدة » ما لقد كان شبلى شميل ويعقوب صروف وهما عالمان كبيران ، انصرفا إلى العلم وحده ، كان كل منهما يضمرا لهـا عاطفة حفية ، وهما فى هذا السن الكبير ، حتى أن شبلى شميل العالم الطبيعى الذى لم يعرف غير مقاييس الاجرام والجاذبية ، تتفجر نفسه يقول الشعر فى حب مى .

أما يعقوب صروف فقد كانت « مى » تبادله عاطفته وهى تكتب إليه .. « اكتب اليك والشمس تنزل درجات الأفق ، وقد سبحت غيوم

المساء كما فى بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت فى جميع أطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة وتلك الحرارة . ما أجمل الشجيرات التى أنبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم ، تبسم بأزهارها الكليلة على جانبى شارعنا .. هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، أم اكتفيت بالسير فى شارع عماد الدين !

ربما كنت الآن سائراً فى الخلاء تنظر إلى هذا الغروب الساحر وتفكر
أما أنا فلم أخرج من البيت فى هـذه الأيام التى كثرت فيها المعاكسات .
لو كنت اليوم فى لبنان لقضيت فريضة الحج إلى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتى الكبرى هـذا الصيف أن أزور البقعة الصغيرة الكبيرة التى بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتى إلى تأدية الواجب نحو كبار رجاله .

. . .

وثمة عاطفة أخرى بينها وبين أمين الريحانى . الذى يصف أدبها بعد أن قرأ كتابيها « الصحائف » و « أشعة وظلال » بقوله . . « ادهشنى فيك وأنت فى حذرك ، وفى قدس أقداسك شرقية لا تزالين — أدهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لا تعرف يسراها ما تصنع يمناها . فهى لا تسمح لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها فى مفاوز الشوق ومروج الحب بغير نظره تذكرها بما فى الحياة لفاسفتها ، وبما فى الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة وأدغال مدركة منعشة وأنت يا مى مدركة السر فى الاثنين . بمتعة بالجانبين . . »

وهناك صورة أخرى من صور العاطفة الجياشة بين انطون الجميل ومى .. ولعلها واحدة من العوامل البعيدة الأثر فى أزمتها ومآساتها .

لقد التقى الجميل ومى وعلى صداقة روحية أمتدت من عام ١٩١٥ إلى ١٩٢٨ حوالى ثلاثة وثلاثين عاما . كان كل منهما فى الشباب الغض ، وتطورت هذه

صداقة إلى عاطفة وحب عذرى . يقول لها فى بعض كتبه : يلذ لى يا مى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب .. لأن كل وصف قليل إذا قيس لصفاتك ، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك ، ،. بلغت إلى البحر زودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ، ذات الفضل العميم على فى مثل هذه الساعة . فأقف طويلا عن الكتابة ضائعا فى بحار الذكريات بل أن الكلمات تعصانى فأبحث عنها فلا أجدها ..»

* * *

وهناك صورة أشد قوة ولوعة وحيويه ، هى صورة مصطفى صادق الرافعى .

لقد أحب (مى) من أعماقه ومن كل قلبه . ثم حكم الزمن بالقطيعة . هذه القطيعة التى لونت أدب الرافعى بعد ذلك ورسمت له طابعه وإتجاهه .. فقد عاش الرافعى على هذا الحب ، وظل مشتعلا فى قلبه ، متوقداً بين جوانحه إلى آخر أيام حياته . وكان يطمع فى أن تصل الأيام بينه وبينها مرة أخرى : ولكن هل كانت مى تبادله هذا الحب ؟

إن هذه الكلمات التى كتبتها « مى » للرافعى تعطى صورة واضحة لحب قوى « سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر . وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ، وسأدعوك أخى وصديقى . أنا التى لا أخ لى ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

« سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وأمالك . حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأتسمع إلى جميع الأصوات علىأعثر فيها على لهجة صوتك . وأشرح جميع الأفكار وأمتدح المصائب من

الأراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك . وسأبتسم فى المرأة ابتسامتك فى حضورك . سأتحول عنك إلى نفسى لا فكرفيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لافكر فيك .. »

وكتب إليها الرافعى « .. أى بليغ يراك ولا يعرف منك فناً جديداً من حسن معانية ومبانية ويعرفك ولا يرى فيك أبدع البديع فيما يعانية من أفتنانه . لله الحمد الذى جعلنا نتلقى الماء ولم يحشمنا أن نصعد من أجله السماء » .

* * *

هذه صور التقت فيها « مى » مع بعض من عرفت من الكتاب والأدباء على عاطفة غير واضحة ، أو ذات ظلال ، ولكن كيف كانت نهاية هذه الصور فى نفس « مى » .. لقد فكر الرافعى وفكر أنطون الجميل فى الزواج فماذا الذى صرفهما . لقد مات جبران أن قبل يراها وقد واعدها على لقاء لم يمهله الموت ليتمه ..

الحق أن هذه اللوحات تعطى صورة النفس الحزينه المتمرده ، التى تدفعها عاطفة قوية فياضه ، ثم تردها طبيعة جبلت على الحرص وإقامة الحواجز والحق أيضاً أن واحداً من هؤلاء الذين أستغرقت عاطفتهم حب « مى » فيما يبدو لم يفاتحها فى صراحة فى الزواج .

هذا فضلا عن انها ما أن فقدت أباها وأمها .. وبدأت خطوب الزمن تتناشها ، حتى أنصرف عنها هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها أمسية الثلاثاء . لم تجد أحداً منهم يدفع عنها ، غائله بعض الأهل الذين كان لهم فيها مطمع قريب أو بعيد .. إنها كانت تنظر إلى هذه الصداقات فى حرص وحذر ، وكانت تريد أن تجد منها واحدة تدعوصاحبها أباها وأمها ، تطلعه على ضعفها واحيتاجها الى المعونه ، وتجد فيه الرجل الذى تتمثل فيه قوة الأبطال ومصارعة الصناديد .. لم تجد ذلك إلا فى الرافعى ، الذى غلب عليه كبريائه حين رأها تؤثر شاعراً معروفا بالحديث دونه فأنتفض انتفاضه المجروح ومضى .. وحاولت مى أن تعتذر له فلم يستمع ثم عاش حياته نادما ، وقد سبقته إلى الموت !

أما « مأساة » مى فمجمل[1] الرأى فيها أن بعض أقاربها حاربوها بعد موت والديها ، وكان لهم فيها مطمع ، لم يجدوا دونه منالا ، فادعوا أنها قد أصيبت فى عقلها ونقلوها إلى مستشفى العصفورية فى لبنان ... حيث أصيبت فى جو هذا المستشفى بمتاعب نفسية ، أضيفت إلى حالتها الخاصة في هذه الفترة ، حين خلت حياتها من عطف الوالدين ، وحدث هذا فى نفس الوقت الذى أخذت تتخطى فيه الشباب إلى بواكير الشخوخة وليس من حولها واحه لها ظلال ..

يقول سلامه موسى أن مى تزعزعت عقب وفاة والدتها ، « وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا أنه متمدين ، فهو لا يزال شرقيا .. »

ولما سافرت مى إلى لبنان ، لم يذكرها أحد من أولئك الذين كانوا يتصلون بها وهم صفوة أصحاب الأقلام ، أن أحداً منهم لم يحاول أن يدافع عنها ، فلما عادت لم يزرها منهم إلا القليل على قبيل المجاملة .

ويقول سلامه موسى أنها عندما عادت من لبنان « كانت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين » لقد قاست فى المستشفى كثيراً ، ثم عادت فلم تجد أحداً ينتظرها أو يترقبها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى ، وكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تنشج بالضحك » .

ثم ماتت مى ...

. . .

لا شك أن « مى » قد سبقت الزمن ، حين ظهرت على هذه الصورة ، .. فقد كان أصدقائها يعجبون من صالونها ، وكانوا يحبون فيها صورة المرأة التى يقرأون عنها فى الأدب العربى ، فقد كانت المرأة المصرية إذ ذاك لاتزال

---

(١) روت لى هذه القصة السيدة جميلة العلايلى تلميذة (مى) الأولى فى مصر والشرق

محجوبة عن الحياة الإجتماعية المصرية (١٩٢٢ — ١٩٣٨) ويبدو أنه لم يكن من الممكن أن يتزوجها أحدهم ؟ فقد كانت غلبة الطابع الشرقى التى لا تزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك .

ولقد حاول الرافعى ان يتزوج « مى » ولكن شيئاً كان يقف فى وجه هذه الفكرة هى أن « مى » على هذه الصورة التى ترضاها لحياتها ، لا يمكن أن تكون لرجل واحد ، ولا يمكن أن ترضى طبع الشرقى الحساس الذى يريد أن تكون المرأة له وحدة .. .

* * *

هذه قصة حياة « مى » ، أما أدبها فقد كان لوناً جديداً ، ولا شك أن « مى » أنشأت مدرسة أدبية نسوية فى الأدب العربى المعاصر ، تتلمذت عليها الكثيرات وفى مقدمتهن جميلة العلايلى ، والكاتبة العراقية « مليحه » وهند سلامة وغيرهن كثيرات ...

وأبرز مايتميز به أدب «مى» هو الحزن العميق ، الذى يبدو من وراء هذه الصور الشعريه المشرقة .. كانت يقول « ..أن مبالغتى فى التفائل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم » .

كانت حياتها تجهما وعبوساً ، كانت حادة صارمة، فلم يكن أدبها إلاوسيلة للتنفيس عن النفس المكتئبة على صورة تريح الأعصاب .

« العيون(١) .. تلك الأحداق القائمة فى الوجود كتعاويذ من حلك ولجين تلك المياة الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن بالشواطىء وأشجار الحور .

تلك التى تذكرك بصفاء السماء ، والتى تريك مفاوز الصحراء ، والتى تعرج بخيالك فى ملكوت أثيرى كله بهاء .. وتلك التى يتسع سوادها أمام من تحب ،

---

(١) أشعة وظلال أصدرته مى سنة ١٩٢٣ .

وتنكمش لدى من تكره . وتلك التى تثور بلحظه : أنت عبدى والتى تقول : بى حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ وتلك التى تبتسم وتتوسل . وتلك التى تقول ألا تعرفنى ؟ !

العيون . جميع العيون . ألا تدهشك العيون .. »

يدأت مى حياتها الأدبية بتحرير فصول فى جريدة أبيها « المحروسة » تحت عنوان « يوميات فتاة » .. كان ذلك سنة ١٩١٥ ، ومن أجمل هذه الفصول مقال « غرفة فى مكتبة » تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب فى إحدى غرف الجامعة المصرية .

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية ، غير أن بعض المحيطين بها نصحوها(١) بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ، ثم أخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لها ملكة عربية شجعتها على الترجمة .. فترجمت ابتسامات ودموع .. وغيرها .

« وبعد(٢) ذلك بدأ يجتمع عندنا شبه « صالون أدبى » كل يوم ثلاثاء مكث أعواماً تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا صبرى فاقتبست منه تهذيباً عربياً بما كان يلقى فيه أثناء الحديث باللغة العربية الفصحى .

. . وقال لى الأستاذ لطفى السيد أثناء الحديث معى « لا بد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم ، لكى تقتبسى من فصاحة أسلوبه وبلاغته » فقلت له « ليس عندى نسخة من القرآن » فقال « أنا أهدى لك نسخة منه » وبعث لى به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربى وما فى القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى .. »

وفى خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ودرست تاريخ الفلسفة وعلم الأخلاق على المستشرق دى جلارزا ، كما درست تاريخ الأدب العربى والدول

---

(١) أهم حادث أثر فى مجرى حياتى بقلم « مى » . هلال فبراير سنة ١٩٣٠ .

(٢) نفس المصدر .

الإسلامية » ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ « باليقظة الأدبية والخلق الجديد » .

وكان أول كتبها فى اللغة العربية عن « باحثة البادية » صدر سنة ١٩٢٠
« وعلى ذلك أستطيع أن أقول أن أهم ما أثر فى مجرى حياتى الكتابية ثلاثة أشياء : أولاها النظر إلى جمال الطبيعة ، والثانى القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة ، والثالث الحركة الوطنية التى لولاها ما بلغت هذه السرعة فى التطور الفكرى .. »

* * *

لقد تركت « مى » عدداً وافراً من المؤلفات والكتب والآثار المنشورة فى عدد من الصحف والمجلات . وهى فى مجموعها تعطى صورة واضحة للأدب النسوى الجديد فى أولى صوره الكاملة .

وتعد «مى» بحق رائدة الآداب النسوى المعاصر ، وما أظن إلا أن الكثيرات ممن جئن بعدها قد اتبعن طريقتها فى تصوير النفس ورسم صورة العاطفة . لقد كان أدب « مى » خالصا للفن لم تعتوره عيوب المناسبة السريعة ، أو النزعة الصحفية .

١

« مي »

ومأساتها

* « .. قد يبوح المرأ للناس بأعظم أمانية . ولكن الأمنية العليا تظل سراً مكتوما بينه وبين نفسه . ولو هو فقد كل شيء آخر لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى مايخفى من قدس أسراره .. »

* «ماء السيل يتدفق على الجلاميد القاسية ويتشعب بين النواتى الوعره ، وينصب فى شلالات مضطربة وانحدارات مرتعشة . يحشر فى أغواط سيئة المضاف .. فينزع إلى مزاولتها ، إلا أنه يفشل .

ثم يمضى فى جريه قرب الشواطىء الباسمة ، ويتغلغل بين الحدائق الغناء فيرتاح إلى ظلالها . ويهيم فى صمتها الشامل الذى لاتقطعه غير أنشودة الناعورة الساذجة ..

ثم يسترسل السيل فى مجراه وقد تلقى إليه يد متأنية بزهره زرقاء هى شارة الحب فلا يحاول تعرف تلك اليد . أما هذه الزهرة النحيفة التى يحملها عبابة فعبثا يسعى للاتحاد بها والتوحيد واياها .. »

* « .. فى بعض الساعات الألم تشعر بأن للزمن كهفا تخفره الضوارى وأنت وحدك فيها سجين والناس فوقك شامتون ، يرقصون ويمرحون .. »

* * *

« أن مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباة تحت أكاليل العزم والجهاد . وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة

وحلت محلها نظرة لم تعد عبدة المجتمع ولا عبدة الحاجة ولا عبـدة الرجل ولا عبدة قلبها . وهو أعظم جائر مستبد .

* * *

هـذه « مى » فى بعض خواطرها الطليقة تعطيك صورة الأنثى المشوقة المحرومة الطامحة المتطلعة إلى الغيب ، التى كان الأدب بالنسبة لها افضاء وتنفيس ، فكانت بذلك مصدر الوحى لعدد من الكتاب والأدباء .

روحى على دور بعض الحى هائمة   كظامىء الطير تواقا إلى الماء

أن لم امتع بمى ناظرى غدا   أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وما أظن أن « انسانة » فى تاريخ الأدب المعاصر تستطيع أن تحتل مكانة « مى » ، فقد برزت فى الأدب فى الوقت الذى كان الحجاب فيه لا يزال مضروبا على المرأة ، وكان لها فى ذلك الوقت « صـالون » يرتاده الأدباء والفلاسفة والمفكرون .

وكانت هى جميلة ، ومحدثة ، ولبقة . . . وقد انتهت حياتها على صورة مزعجة لم يتمكن بعد أحد من الذين عاصروها ، من تصويرها !

ولاشك فى أنها قد أحبت ، ولاشك فى أن الذين عرفوها قد أحبوها . . وما من أحد منهم يتحدث عنها إلا ويصور هذه العاطفة .

ولا استبعد أن يكون مرضها العصبى ، وجنونها ، وموتها فى النهاية نتيجة لصراع بين العاطفة والتقاليد والعرف والدين ، لم يستكشف بعد على صورة واضحة .

وهذه أضواء من كل مكان على حياة « مى »

يقول العقاد « كانت قاسية على نفسها ، كثيرة الانطواء على داخليتها ، وكان يخيل إلى أن احتراسها المفرط خصلة عميقة فى سريرتها لازمتها فى ريعان الشباب لأنها كانت قليلة الامن والطمأنينة إلى الناس . وكانت على دماثتها

لاتدع الحواجز بينهم وبينها ، ولا تفتأ تعيش وراء صورة من الحيطة والكتمان.

وكنت أشفق من فرط احتراسها وكلفتها ، فقلت لها يوما مجترئا على مصارحتها : أنا لست على رأيك ياصديقتى فى نفع الحذر وجدوى الاحتراس ، بل عندى أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا من ترك الحذر وقلة المبالاة . فلا تبالى ولا تحترسى وانطلقى فى حياتك فذلك أخف الضررين .

ويقول الزيات «كان لمى ولصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات . ألهمت صبرى ، وأوهمت الرافعى ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواء المداد صورا مختلفة الألوان ، متنوعة الافنان ، أضافت بها إلى ذخائر الفكر الإنسانى ثروة ثم تقدم العصر وطوت « مى » أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس ، وورد أبواها متعاقبين حياض المنون ، فاستكانت للحزن وأخلدت الى الوحدة . فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع ، وانحدرت مى فى طرق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة ... هى فتــــاة بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وفى كل حديث وتختصر للجليس سعادة العمر كله فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة . »

ويقول زكى مبارك «كنا جماعة من المحرومين لانعرف الجمال إلا إذا قرأنا كتاب تزيين الأسواق أو مصارع العشاق وفى إحدى الأمسية جاءت الآنسة مى عن الحجرة التى تلقى فيها دروس الفلسفة العربية ولأنى كنت قد نشرت كتابا عن حب عمر بن أبى ربيعة الفاجر الملعون فقد تجنبتنى ولم تجد أوفى من الشيخ أبى درة فى لحيته المستديرة وقفطانه الفضفاض لتسأله وكانت المحاورة

— أين حجرة الفلسفة العربية يا أستاذ ؟

— نعم يامولاتى ، نعم يامولاتى

فتقدمت إلى الآنسة فدللتها على السبيل وعدت إلى أبى درة فقلت له : فضحتنا ياسيدنا الشيخ ، ماهذا الهذيان ؟

وانتظر الشيخ أبو درة حتى أفاق من أغمائه ثم قال :

ــ سبحان الله أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال .

وسألنى الأستاذ اسماعيل رأفت عن معنى كلمة « مى » فلم أعرف الاجابة فقال لى ، أن مى معناها الخمر وهى كلمة فارسية .

وكتب أمين الريحانى إلى « مى »

« أدهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لاتعرف يسراها ما تصنع يمناها . فهى لاتسمح لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها مفاوز الشوق ، ومروج الحب بغير نظرة تذكرها بما فى الحياة لفلاسفتها ، وبما فى الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة ، وأدغال مزهرة منعشة . وانت يامى تذكرين السر فى الاثنين . ممتعة بالجمالين . وأشكر الله أنك كاتبة فلا تستأثرين بما تتمتعين ، وأشكر الله انك صديقى فتذكريننى مع من تذكرين »

زكى مبارك



لا شك أن «زكى مبارك» من الشخصيات الأدبية القوية ذات الأثر الواضح فى هذه الفترة التى نؤرخها . فقد شغل الصحف بانتاجه على صورة من الحيويه والتدفق لفتت إليه الأنظار بقوة ، كما أصدر طائفة من المؤلفات الضخمة التى أثارت الكثير من المساجلات ، ويتميز أدب زكى مبارك بمزيتين غاية فى الوضوح : العاطفة والصراع .

فهو كاتب عاطفى متدفق ، تغلب عليه الطلاقة والجرأة والحرية فى عرض مسائل الحب وقضايا الوجدان على وجه يكاد يتفرد به .

ويرسم هذا الأدب لمبارك فى نفوس النقاد صورة الرجل الذى تعصف به النزوات والعواطف إلى أبعد حد .

ويتصل بهذا حديثه عن نفسه الذى يكاد ينتظم أدبه كله ، والكتابة الذاتية لاعيب فيها ولا يغض من شأنها إلا أن تكون حلقات دائرة من المدح والثناء والدوران حول معنى واحد ، بل هى أصدق ألوان الأدب .

وعندنا طائفة من الكتاب الذين يطوون عاطفتهم طيا فلا تستطيع أن تلمح أرواحهم ولا ذاتيتهم .. مما يجهد الباحث أو المؤرخ إذا أراد استعراض ملامح أرواحهم وشمائل شخصياتهم .

أما الصراع فيرجع فى الأغلب إلى أن زكى مبارك رجل نقل طبيعته الفلاحة إلى الأدب ولم يتخلى عنها . فضلا عن ذلك الشعور الذى ملأ نفسه وهو احساسه بالظلم فى مجتمعه . يقول الزيات « . إن زكى مبارك لون من الوان الادب المعاصر لابد منه ولا حيلة فيه ، وهو الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة ، والرياضة كما تعلم ضرورة من ضرورات الحياة اللازمة للعقل والجسم . أما عنفه وشماسة فهما الصنيع المميز للونه . . على أنه هو أول الشاهدين على أن صفارتى قد بحث من طول ما أهابت به وهو فى قفازة السنتريسى يهدر فى المجال بين الحبال مغضيا بعض الأغضاء عن قواعد الملاكمة .

« والحق أن حياة زكى مبارك الأدبية حلقات متصلة من الصراع والمعارك فمنذ فجر شبابه أصدر كتاب الأخلاق عند الغزالى الذى تناوله العلماء ورجال الدين بالنقد ومضى يصارع فى عنف فتناول طه حسين والرافعى واحمد أمين والعقاد وعبد الله عفيفى والسباعى بيومى . .

وكانت هذه المعارك تدور فى الأغلب من جانب واحد ، هو جانب زكى مبارك حتى شاء الله أن تدور المعارك ضده من جانب واحد هو غير جانبه على التحقيق عند ما بدأ الغمراوى ودرينى خشبة وغيرهما يناقشون نظرية وحدة الوجوه ويتناولون بعض ما كتب عن القرآن فى كتابية النثر الفنى والتصوف الاسلامى . .

وعجز زكى مبارك عن المصاولة فجأة . . وألقى سيفه وطوى ردائه وانسحب من الميدان متعللا بأعذار واهية وكان هذا فى الواقع نهايته الأدبية ، وإن عاش بعد ذلك سنوات يكتب تلك الفصول المفككة التى كانت تنشرها البلاغ . .

. . .

بدء زكى مبارك حياته الأدبية على نفس الصورة التى بدأ بها طه حسين والزيات ومصطفى عبد الرازق واحمد أمين . « مجاورا » معمما ، وكان فى مطلع شبابه شاعرا غزلا . . جاء من أعماق الريف . . وظل طوال حياته

يفخر بأنه فلاح ، ثم أتيح له أن يتصل بالبيئة الحديثة التي كانت تدور حول محورين هما « الجريدة » .. « والجامعة المصرية » التي كانت بدعة العصر إذ ذاك .. وجاهد زكي مبارك حتى استطاع أن يتم دراسته في مصر ، وسافر إلى باريس ليحصل على أرقى أجازاتها العلمية ، وبذل جهدا مضنيا ، وكافح كفاحا مستميتاً ، كان ينبعث بلا شك عن طموح قوي وإصرار مؤكد .

وتتلمذ على المرصفي والمهدي ، ومال بطبعه إلى شعر الغزل والنسيب وقرأ العباس بن الأحنف والشريف والمجنون وعمر بن أبي ربيعة وظلت هذه الرموز الأدبية تسيطر على طابعه الأدبي طوال حياته . واشترك في الثورة المصرية ١٩١٩ واعتقل في الأسكندرية وقال « لقد أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هياب . »

* * *

ورسم زكي مبارك جهاده في سبيل الظفر باجازاته العلمية من باريس في مقدمة كتابه « النثر الفني » في صورة اخاذه « .. فأن رأوه — أي الكتاب — أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكروا اني الفته في أعوام سود لقيت فيها من عنت الأيام مايقصم الظهر ويقصف العمر ، فقد كنت أشطر العام شطرين أقضي شطره الأول في القاهرة ، حيث أؤدي واجبي ، وأجني رزقي . وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء واستلهم المؤلفين ، إلى أن ينفذ ما أدخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت . »

وغلبت النزعة الوجدانية على رسالته التي تقدم بها لاجازة الدكتوراه « النثر الفني » ، وكان هذا من العيوب الذي أخذت عليه .

كما أنه نزعه الصراع غلبت عليه وهي في ميدان البحث الجامعي فاصطدم باستاذه « مرسيه » إذ قدم في رأيا يعارض به مذهب الأستاذ . يقول « .. وقد نصحني

مسيو ماسنيون وأفهمنى أنه ، أى مرسيه — رجل صعب المراس ، وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة ، وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال ، ولكن ، كتب الله أن لا أنتصح . فابتدأت رسالتى التى قدمتها للسربون فى فى نقض أرائه من الأساس . فغضب الرجل وثار . . وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لايوائم الروح الفرنسى فى البحث . وصممت على إبقاء الفصلين . وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره فمضى يعادينى عداء خفيا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف وقد قابلت خصومته بلدد اقسى واعنف ، ورأيت الحرص على أرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فابقيت الفصلين اللذين أغضباه »

. . .

وقد أوتى زكى مبارك أسلوبا قويا ، لاشك فى قوته وبلاغته . وقلمه طليق عاصف ، وهو من النوع الذى لايعرف الوسط والذى يحب بكل قواه ، ويبغض من أعماق نفسه .

يقول « .. كنت فى مطلع حياتى الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد . ثم شاء الله عز شأنه أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى وأن أقبل بنوع خاص على ماكتب النقاد الفرنسيين الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تشوق الحواس . هناك جمال النفوس الصافية والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة » .

ويصف طريقته فى الكتابة بأنه إذا كتب خطابا فى المساء « فاتركه

بلا تظريف لتسهل مراجعته فى الصباح ولتبق الفرصة للحذف منه والاضافة إليه، فمن المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات. وقد تنكر فى بياض الصبح بعض ما كتبت فى سواد الليل..»

ويقول أنه لم يعرف الفرق بين التسويد والتبيض «. ولا استبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع، وكنت أعجب حين أسمع إن من الكتاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحيته لمواجهة القراء. كان رأبى ان جرى القلم على القرطاس هو جرى الجواد فى الميدان وهذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضنى لكثير من الجراح لأنى لا أملك صده حين ينطلق. فما بال الأقدار تروضنى بعد الجموح وتفرض على أن أتلفت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجرى فى ميدان البيان(١) ..»

...

ولعل أبرز مايلفت النظر فى أدب زكى مبارك صورة المرارة التى تنتظم أدبه كله، فهو يصور نفسه بصورة الرجل المظلوم الذى صارعته الأحداث وشقى بها، فتحس بعنف الخصومات والمتاعب الذى صادفها فى حياته يقول «مانبغ نابغ فى الشرق لهذا العهد، إلا بقوة ذاتية حمته وعصمته من كيد المخذلين والمعوقين فهم كالأشجار التى تنبت فى الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير»

ويحرص على أن يصور نفسه فى صورة الرجل الفرد المعتزل «قضيت دهرى بلا نصير ولا معين، وسأظل كذلك لاقيم الدليل على أن من يستعز بالله لا يخفق ولا يضيع»، ويصور مدى ضيقه بالناس ورغبته من مجتمعهم..

«لقد أقمت دارى على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ولأنسى أننى موصول الأوامر بهذا الخلق، ولاناجى موات البادية حين أشاء.. »

---

(١) الرسالة : ٢٠ يوليو ١٩٤٢ .

ثم تقع الأزمات وتسود الدنيا من حوله ويبين له غدر من كان يثق بهم فيكتب « لقد علمتنى التجارب أن الإنسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الإنسان . فهناك قوة ربانية تؤيد المجاهد فى سبيل الرزق الحلال . . » ويتحدث عن الصداقات . . « لقد كنت أنظر فى رعب وفزع إلى الصداقات التى تهدمت من حولى فى الأعوام الأخيرة ، وهى صداقات أنفقت فى بنائها ما كنت أملك من كرم الوفاء فى عنفوان شبابى » .

ويصف نفسه فى مرارة تدل على مدى الألم الذى يغمر نفسه من تصاريف الحياة « . . نحن قوم كونتنا صروف الأيام والليالى ، فان اكتوت أيدينا فسنملك من السيطرة على القراء أكبر مما نملك ، وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا وهو عندنا غادر جحود . وقد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن فى سعة من العيش وسيرتقى ذوقك فتدرك أن الخواص لا يشكون جوع البطون ، وإنما يشكون جوع القلوب » .

ويصور مبارك رسالة الأديب وصلته بالحياة حين يقول : « . . لكم أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء فسترون أن أبلغهم أثراً فى أنفس الجماهير وأقدرهم على أسر القلوب وغزو القلوب وامتلاك النفوس . هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء وعرفوا كيف تقسو الحياة وكيف تلين ؟ أولئك الذين يكتبون وفى كل حرف أمر ظاهر أو غرض دفين . . » وحين يتصل قلم زكى مبارك بالخصومات يبدو غاية فى الشراسة والقسوة « . . إن[1] الذين يعادوننى لا يعرفون عواقب ما يصنعون . إنهم يجهلون أن العدو يفسد أمعائى ويحوجنى إلى زيارة الطبيب . ، وسترون إن امتدت الخصومة بينى وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحتف وإن اعتصمتم بشاهقات البروج . .

---

(١) البلاغ — الحديث ذو شجون : يونيو ١٩٣٥ .

لقد بدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعاً لا يسمعون منه غير أنغام الحنين . ولكن لؤم اللئام حولنى إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر والطير والحيوان ، ولا أذكر الإنسان فما سمعت بأخباره فى هذا الزمان .

أما بعد فلله نعمه فى كل شىء ، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه ويرهف وجدانه ويقهره على حمل السيف . وقد جربت ذلك فى نفسى وفى قلبى . وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم فى اليقظة والمنام .. »

* * *

ويبدو « زكى مبارك » فى صورة عاصفة من الحيرة إذا اتصل الحديث بنفسه .. « وأعود إليك ياصديقى فأقول إن الأزمة الباقية هى أزمة القلب ، فقد فهمت كل شىء وعرفت كل شىء . فان قلت لك إنى أشكو خيبة فى الحب أو إخفاقاً فى المجد ، أو غدراً من الأصدقاء . فاعلم أن هذه محرجات هينة ، تنزعج لها النفس لحظة ثم تزول . وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم : وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما فى أنفسهم من القلاقل والثورات . وأنا لم أنجح فى شىء من ذلك لأن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات . أو حزب من الأحزاب . فأنا بين المؤمنين ملحد وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار . وفاجر عند الأبرار . وأنا فى كل بيئة أجنبى وفى كل أرض غريب . وهنا يكون الفزع الأكبر إذ أعود إلى قلبى وجها لوجه ، وهو قلب خطر ، والموت عندى أهون من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب . فليت شعرى أين المفر وأين يكون الفرار .. »

ويقول عن نفسه « ما رجعت إلى نفسى مرة إلا تهيبت اقتحام ما فى

شعابها من وعور وصخور وأشواك . وقد وقفت مرة على ساحل النفس فى ظلمات الليل فرأيتنى عندها من الغرباء .. »

وقد ظل — بالرغم من اتصاله بالأوساط الأدبية الأوربية — ريفى الطبع بدوى أسلوب الحياة وكان حريصاً على أن يقول كلمة الحق مهما كانت مريرة أو جارحة ، فكان لذلك أثره البعيد فى تخلفه وقيام الأحقاد من حوله وثورة العواصف فى وجهه وقد لقى من ذلك شططا وكان يستطيع أن يوفر على نفسه ذلك كله لو اصطنع شيئاً من اللباقة التى لا تحول بينه وبين الإفصاح عما يريد.

وهو يبغض النفاق أشد البغض ، ويحتقر الحظوظ التى يحصل عليها الناس من وراءه « .. فليظفر من شاء من طيبات الحياة تحت ستار التقى والدين . فتلك حظوظ سافلة لا يفرح بها إلا الضعفاء الذين يعرفون أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض به غير الأقوياء .. »

ويمضى فى رسم هذه الصورة الجريئة « .. لو كنت أتجرت بالتراب لصرت من كبار الأغنياء . ولكننى شغلت نفسى بما لا يفيد . فذرعت فضاء الله فى فرنسا إلى أن سبحت فى بحر المانش ، وذرعت فضاء الله فى العراق إلى أن سبحت فى شط العرب وألفت اثنين وأربعين كتاباً . . . واشتغلت بالتدريس عشرين سنة . . وكانت صراحتى تقطع رزقى » .

* * *

وقد لون زكى مبارك هذا الطبع الجرىء بأدب القوة .. والفتوة « إن الرحمة شىء جميل . ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على أساس الرحمة . والطبيعة نفسها لم يقم فيها وضع واحد على أساس الإشفاق ، وإنما قام كل شىء فى الوجود على أساس القهر والغلبة وسيطرة القوى على الضعيف » ..

ويصل إلى أروع معانى القوة حين يقول « .. الشجرة لا تحفظ الأيدى التى تتعهدها بالرى والعناية . وإصلاح التربة والصيانة من العواصف وأضرار الرياح . ولكنها تحفظ اليد المعتدية التى تأخذ خنجراً وتحفر اسم صاحبها

على ساقيها بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها » .

ويبلغ الدكتور زكى مبارك قمة القوة والإنصاف من النفس حين يتحدث عن الغزالى . ويذكر ماضيه معه . وكيف هاجمه ثم عاد فاعتذر إليه .

« إليك(١) أعتذر أيها الغزالى . . فى سنة ١٩٢٢ كنت أقضى أكثر الوقت فى تحرير كتاب الأخلاق عند الغزالى . وكان ذلك فى أعقاب أعوام شداد واجهت فيها نار الثورة المصرية واكتوت يدى بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية . فأثر ذلك فى عقلى وتفكيرى إلى أبعد الحدود . وحملنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين .

ثم مرت أعوام راضنى فيها الدهر بعد الجموح فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وإنما كان من الحكماء . . . »

* * *

وقد عرف زكى مبارك بأنه من ذوى الصبر والجلد على مراجعة الأسانيد وأطروحاته الثلاث(٢) تدل على مقدار ما بذل من جهد فى التوفر على دراسة موضوعاته .

لقد قضى حياته الأدبية عاكفاً على الورق ، وشغل نفسه بالدرس ايامه ولياليه ، حتى حالت بينه وبين « اقتناص الفرص الشوارد » . . وقد يمضى العام ولا أعرف طعم السهر فى مغانى القاهرة » . . وسجل فى بعض آثاره أنه لم يعرف الأجازات فى صيف أو شتاء . . ولا يذكر أنه انقطع عن الدرس فى يوم من أيام المواسم أو الأعياد ، حتى أيامه فى البواخر كانت أيام قراءة وكتابة .

---

(١) الرسالة ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠ .

(٢) الاخلاق عند الغزالى ، والنثر الفنى ، والتصوف الاسلامى .

وقد هاجم زكى مبارك كتاب مصر جميعاً بعد عودته من أوربا سنة ١٩٣١ واتهمهم بأنهم انتهبوا آرائه أثناء غيبته . وأذاع عن نفسه أنه يحفظ ٣٠ ألف بيت من الشعر . وقد أغرم بالنظم ، ونشر ديوانا ضخما ، وحسب نفسه فى عداد الشعراء وهو من الكتاب الذين يحسنون التعبير بالترسل أكثر مما يعبر بالقريض ومثله فى هذا المازنى والعقاد .

. . .

أحب الرحلات والأسفار ، وكانت عماد مجده الأدبى سواء فى باريس أو العراق « .. (١) رحلت عن مصر خمس مرات . وكنت فى كل مرة أغمض عينى عن صفير الباخرة حتى لا أودع شواطىء الاسكندرية ولا أفتن النفس بفراق هذا الثغر الجميل ، وكان سر ذلك أنى كنت أشعر دائما بأنى أعيش فى وطنى عيش المغبون .

كانت الآمال التى بددتها الليالى تتمثل لخاطرى كلما حان الرحيل فاتجلد وأتكلف الصبر على فراق الوطن الغالى » .

ويقف فى حديقة باريس يناجى الطاووس فلا ينسى غربته .. ولا ينسى حرمانه « أيها الطاووس .. كلانا غريب فى هذه الديار ، ولكن الحسان تنسى إليك إسرابا إسرابا فى الضحى والأصيل . أما أنا فاتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب . من بستان إلى بستان . ثم أعود وليس لدى ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقاله المعذبون من شعراء الوجدان .

. . بك بعض مابى أيها الطائر الجميل . وليس لدى بعض مالديك من آيات الحسن والاشراق .. أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق وأنا أملك

---

(١) زكريات باريس : ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٣ .

ذلك القلم الأســود المقصوف .. فيا بعد بينى وبينك حين تقوم النفائس والأعلاق[1] » .

. . .

تزوج زكى مبارك مبكرا ، وكان لذلك أثره فى اتجاهاته الأدبية والعاطفية جميعا . وأن عد من أجرأ المتزوجين إذ لم تحل هذه القيود بينه وبين المجد ، فهام على وجهه وجاهد ، حتى وصل ..

وهو يصف زوجته « بالريفية الفلاحة » .. التى عصمت قلبه من الصراع الذى يقع فيه الناس[2] ، ولكن الصراع النفسى بين حياته الخاصة ، ومثله العليا كانَ قد أنشأ له « عاصفة » أخرى لعلها هى التى حطمت حياته فى النهاية .

يقول « زكى مبارك » أنه صير الكتابة عن الحب فنا من فنون الأدب وقد سبقه « الرافعى » إلى إنشاء هذا اللون وهما مختلفان فى أساليبهما وأهدافهما وفى الطريقة التى يعالجان بها هذا الفن . أما « الرافعى » فيرى الحب فنا روحيا خالصا ، لا اثم فيه ولا فاحشة وإنما يراه زاداً وجدانيا يمد النفس الإنسانية بالقوة والحيوية .

أما « زكى مبارك » فيرى الحب على الصورة الطبيعية التى يلتقى عليها الرجل والمرأة ، بما فيه من صراع وماديه ..

وإذا كان الرافعى ومبارك يختلفان فى الأسلوب والهدف ، فانهما يصدران عن طبيعة واحــدة ، تكاد تتشابه حظوظهما فى الفراغ النفسى والعاطفة العاصفة والحياة الاجتماعية التى قصرت عن أن تعطى النفس العبقرية كل

---

(١) البلاغ : ١٩٣١

(٢) « ويسرنى أن أسجل عترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وأختها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال » .

حاجتها فظلا ظامئين إلى الحب والجمال .

« حديثى[1] عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به مايتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع بها ظلمات الزمان .

الحب لايغزو إلا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود فى أوقات الحرب ..

أن التوتر الذى يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع مابيننا و بين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لايهتفون بغير أوطار القلوب[2] » .

. . ويصور زكى مبارك فتاة ، لاشك كانت بعيدة الأثر فى مشاعره وحياته فى باريس . . « وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد . وهى أرق من الزهر وأكثر أشراقاً من الصباح .

.. أتكون هذه الفنانة شبيهة بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب . . . أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يساعده القدر المجنون فيملأ جيبه بالدراهم ولو كان من الأغبياء .

لك يارب حكمة فى أذلال هذه الروائع الفنية التى زينت بها الوجود . . »

. . . وهو يصور أزمته النفسية فى خطاب أرسله إلى « محمد السباعى » وهو فى باريس . . .

« بقى ياصديقى أن أعترف لك فى صراحة واخلاص ، انى أصبحت أحقد أشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة ، وهما الأدب والمرأة . .

أحقد على الأدب لأنه لايستقيم له حال إلا إذاحمل صاحبه على المخاطرة فى

---

(١) زكى مبارك : ١٩ فبراير ١٩٤٠ الرسالة .

(٢) كتاب « ليلى المريضة بالعراق » هو عماد المذهب الادبى فى الحب لزكى مبارك .

ظلماء الوجود ، ولن تجد فى العالم كله أديبا ذا مكانة الأوله فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لايؤمنون بوجود الأديب إلا إذا رأو أحشائه تحترق بين السطور .

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن تراها تلتمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك .

أضف إلى هذا ، ياسيد سباعى ، أن هنا إنسانة فى الحى اللاتينى لا الحى الحسينى — إنسانة من بنات حواء ، حواء المذكورة فى التوراه والقرآن . حواء التى نقلت أبانا آدم إلى صفوف المناكيد . . »

وتصور السيدة جميلة العلايلى مأساة الدكتور زكى مبارك على هذه الصورة « عرفت أن الرجل إنسان وشاعر . وقد كافح وناضل وتعلم حتى بلغ أرقى الشهادات . فكان من المفروض أن يصل إلى مركز يعادل إن لم يفضل مراكز أقرانه وزملائه . ولكنه ظل حتى وفاته موظفاً فى وزارة المعارف .

وقد تزوج فى الصغر بامرأة دونه فى العلم والتفكير . فلما نضج حسه وعقله وجد قلبه فى حاجة إلى قلب وعقله فى حاجة إلى إلهام فأحب . . وكان بينه وبين من يحب حاجز من الفضيلة لا يمكن اجتيازه .

إذن كان الرجل مظلوما محروما . وأى رجل مظلوم محروم ؟

زكى مبارك صاحب القلب الكبير والعقل الناضج النافذ ، والذكاء الحاذق .

فكيف يتأسى وينسى ؟

وكان يحب أن يغالب الظلم بالاحتمال ، والحرمان بالصبر والنسيان . فلم يجد أمامه غير الشراب ليخرج من دنياه إلى دنيا مظلمة لا تكشف له آفاق العدالة ومفاتن الجمال . ويقينا لو نال حقوقه العادلة وارتوى قلبه لظل حافظا لكيانه وقواه حتى ساعة الموت . . »

---

(١) مجلة (الاهداف) فبراير ١٩٥٢ .

ظل زكى مبارك أكثر من عشرين عاما يكتب بعنوان « الحديث ذو شجون » وقد تنقل به من البلاغ إلى الرسالة إلى المصرى .. ثم عاد به إلى البلاغ مرة أخرى.

وعاش زكى مبارك حياته مقتحما . أحدث ضجة فى الأزهر ، وفى الجامعة وفى باريس وفى بغداد . وظلت آرائه فى الغزالى والقرآن ووحدة الوجود موضع السجال والنقد ..

ولعله كان يستر بهذا الصراع عاطفته المشبوبة ، ويدارى نفسه المحترقة الملتاعة . . وكتاباه عن باريس وبغداد غاية فى الجودة وهو لايبالى فى سبيل الصراع الأدبى ما يكون من نصيب صداقاته . . ولكنه كان يبدو من وراء كتاباته نقى الصدر .

يقول زكى عبد القادر « .. ما من أحد من الناس كان يشعر بموجده نحو الدكتور زكى مبارك حتى هؤلاء الذين هاجمهم . فقد كان رحمه الله طلق النفس ، رقيق الطبع ، كان فنانا أصيلا . .

. . لقد أحب الحياة بشرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها أعمق مايكون الحب ، فكان يرى فى بأسائها النعيم . وفى نعيمها طيف من أطياف الجنة . غناها وشكاها . تألم فيها وتوجع . صبر عليها وصابرها . ولكنه لم يبغضها قط . . . »

وقال « الزيات وهو يصور شماسه وعناده « أنه لو استطاع أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة . . »

وهو لايعق فطرته ، حين دعى إلى كتابة القصة قال « من رأيى أنه لا يجوز للكاتب أن يعق فطرته فيكتب فيما لا يحسن من الفنون وأنا مفطور على النقد الأدبى وقد تفوقت فيه . . »

ومن كلماته الصريحة :

« الاثم الجارح أسلم عاقبه من التقى المصنوع »

« نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ »

« كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل ولو عاشوا فى رحاب عشيرتهم الأقربين »

ويدافع عن الاتهام الذى طالما وجه إليه بأنه يدور حول نفسه فيقول « أن تصوير هموم النفس ، وما يحيط بها من مخاوف وآمال . هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء . فما العيب فى أن يكون الحديث عن نفسى من خصائص أدبى . وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسى . وهل كانت روائع الأدب فى جميع الأمم الا أحاديث نفسية . . »

ويبدو زكى مبارك وهو يتناول الشريف الرضى أو عمر بن أبي ربيعة أو مجنون ليلى كأنما يتناول شخصيته هو . .

وهو بين هذه الصورة من الحب المحروم ، والعاطفة المكتوبة ، والاحساس بأنه دون ما يستحق من مكان فى عالم الأدب والحياة . . يبدو صوفيا زاهدا وليست هذه الصوفية والزهادة الاغشاء لاشواق عنيفة تطوف بالروح ، وطموح متوقد يتصعد فى السماء . .

مأساة زكى مبارك

لماذا تحطمت حياته ؟

« أنى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلته . . لقد استهلكت انشاءاتى الكمية الوزنية للعقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة فى مختلف الفنون . أجل استهلكت دراساتى ومؤلفاتى، ما كان لدى من ذلك قبل الأوان وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنى أريد مواصلة البحث والدرس . ولكننى لا أجد لدى قدرة على ذلك . وماذا يكون الكاتب أو المفكر إذا كف عن الانتاج . هل يكون شيئاً أكثر من ذبالة إنسان وهل أرضى بمثل هذه المكانة؟ إذن ليكن لى فى الخمر مخبأ وملاذاً أقضى فيه ما بقى من ثمالة العمر دافعاً ثمن العلم الذى حصلته .

هذا ختام حياه . . هذه الكلمات التى تقال فى ختام المأساة فى مسرحية حياة قبل أن ينزل الستار .

لقد عرفت زكى مبارك فى عنفوان شبابه وأحببته . وكتبت عنه فصولا وكلفت بادبه . ثم فجعت عند ما رأيته يتحول . والأزمة النفسية تهد كيانه وتحطم معنوياته .

وعندما وقفت فى تلك الساحة الواسعة انتظر وصول جثمان زكى مبارك لتشييعه . . كان يجول فى نفسى خاطر غريب . . فكنت التفت يميناً وشمالا . . أبحث ، أبحث عن ماذا ؟

كنت أعتقد أن « انسانه » لا يعرفها أحد ، تقف بعيداً ، فى مكان ما لترى جثمان هذا الرجل الراحل . . وهو يتوارى . .

كنت أعتقد أنها وقفت لتلقى نظرة الوداع على الرجل الذى تحدث عن

الحب ، كأنه كل شيء فى حياته ! وظنى أن هذه الانسانة قد أرسلت دموعها . ثم مضت ، واختفت خلف السحب !

كذلك كنت أتصور زكى مبارك ، انسانا أعطته الحياة كل شيء وحرمته مع ذلك من أعز شيء .. كان حائرا .. لأن الصورة الروحية التى كانت فى أعماقه لم تتحقق على وجه أو آخر .

كان زكى مبارك قد تزوج مبكرا .. ولم يدع مقالا .. ولا مناسبة ، دون أن يتناول المرأة والحب والجمال .. وقصصه ، ولياليه فى العراق ، وفى الزمالك وفى مصر الجديدة وقصائده عن حب ليلة الثلاثاء غيرها .

كل هذة كانت صورا لنفسية قلقة مشوقة ، طامحة إلى الحب بعد أن بلغت غاية المجد بل أننى أى أن تلك المعارك التى كان يثيرها ويسقى فيها الكتاب ألوانا من الصاب والعلقم ، انما كانت مرآة من مرائى الحب المفقود .

كان زكى يحس النقص النفسى ، ويحس الفراغ العنيف ، ويخلق كل هذه الأجواء من حوله ليغطى على المتاعب النفسية والوحشة الروحية بذلك الضجيج .

كان زكى مبارك يحس بأنه فى حاجة إلى روح .. إلى انسانه ، فى مثل ثقافته وأهوائه .. وكانت تلك الصور التى يبتدعها حين يكتب قصة من القصص الخيالية ، انما يريد بها أن يرسم تلك الأعاصير التى تدور فى أعماقه !

فلما طال به الزمن .. ولم يجد الوسيلة إلى الافضاء ، أخذ يغطى على الضجيج النفسى بالخمر .. ثم أسرف فيها أى سرف .. فآثر الخمر الرخيص وبدت آراؤه بعد ذلك بالنسبة للمرأة غاية فى النقمة والعنف فكتب عبارته التى أثارت ضجة هائلة حين قال .

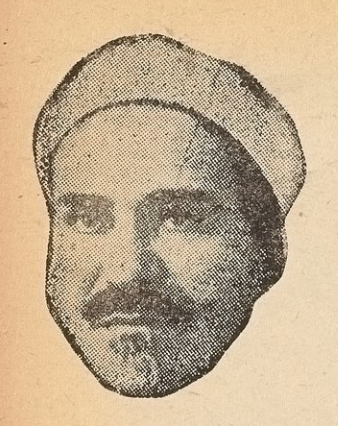
« لقد كان أبى يجرب نعله الجديد على رأس كل زوجة من زوجاته »

وهنا ثارت حوله عاصفة عنيفة أثارها الشبان والكتاب والفتيات .

ونظر إليه الناس فى سخرية وابتذال .. وقالوا ما هذا الذى يجىء فى الزمن الذى تقف المرأة فيه كالالة المطواع فيقول فيها مثل هـذا القول .
من هذه النقطة انحدر زكى مبارك وتردى .

ولكن زكى مبارك إلى ذلك كان معافى النفس ، كريم السجايا ، لا يغدر ولا يخون ولا يخفى مشاعره ولا يراوغ فيها .

مصطفى عبد الرازق



هل نستطيع أن نضع مصطفى عبد الرازق بين الكتاب والأدباء .. رغم قلة الآثار التى أنتجها . . حقا ، لقد عنى بدراسة حياة محمد عبده وجلاها وكان مرجعا هاما فى هذه الحياة . . وكتب إلى جوار ذلك ابحاثا فى الدين وبعض رجال الفقه ، ولكن ما علاقة ذلك بموضوع البحث الذى نحن بصدده .

إننا ندرس هذه الطائفة من الأدباء التى كانت الطليعة فى الأدب العربى الحديث . وهل يكفى كتابه عن الشاعر المصرى الرقيق « البهاء زهير » ليجعله من هذه الصفوة .

ولكن مهلا فقد كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصاً وفصولا منشورة فى الكتب والمجلات والصحف لاشك أنها تضعه بين طائفة الأدباء المقلين الذين لم يتفرغوا للادب كفن وحرصوا على أن يكونوا فى صفوف العلماء الذين عملوا فى محيط الجامعة . وكان لهم لفيف من الطلاب والمريدين الذين بهرهم حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة الطبع التى كانت من مميزات هذا الكاتب الإنسان .

ولكن ما هو السر الذى دفع مصطفى عبد الرازق أن يفرد للبهاء زهير

بحثا خالصا. انى أربط بين هذا العمل الأدبى الوحيد وبين حياته الخاصة. فالبهاء شاعر رقيق حي، هادىء النظرات، متئد، لا تطوف بحياته زوابع ولا عواصف، ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون المغامرات أو يدخلون حلبة الصراع .. وهـذا الطابع هو صورة من حياة مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئا متئدا. لا يصول ولا يجول، على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم من ذوى العمائم ومن الأزهريين.

وكان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحي المتوارى. وكان مثلا للأناقة والرقه والهدوء. كأنما الحياة عنده أغنية جميلة أو موسيقى هادئة. ولقد عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والاعادة والمراجعة والتغيير والتبديل فى الأثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس. وهو فى هذا يقول وكأنما يصف نفسه « أن الجزاله هى التطبع فى شعر البهاء، وأن الرقه هى الطبع »

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع اعجاب كل من عرفه أو لقيه أو تتلمذ عليه .. وما رأيت إنسانا التقى به أو عرفه إلا وهو محب له، كلف بهذا الحب، ولكن ماذا تعطى هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التى نقرأها لمصطفى عبد الرازق. هل يمكن القول بأن وراء شخصيته انسانا آخر. قد كان وحيه والهامه مصدراً لهذا الطابع المصقول ..

لقد بدا هذا الكاتب حياته فى الأزهر، هناك بين الكتب الصفراء التى تؤذى النفس وتذهب الصبر، وتمنح كل شيء الا هذه الرقة وهذا السمت الهادىء الإنيق المشرق الذى يخيل الينا أنه لايعرف الحزن ولا الألم.

.. ونشأ مصطفى عبد الرازق فى الريف من الصعيد حيث الحياة لا تمنح هذا اللون من الأناقة البالغة. وكل هذا من شأنه أن يصيب الأسلوب بالبلاغة ويصيب الشخصية بالجفاف.

ولعل مصطفى عبد الرازق يصور هذا المعنى حين يقول فى مذكراته عن

حياة الأزهر (١) « أصبحت لا أجد لما أحصره من دروس الأزهر طعما ولا أشعر بفائدة فى تكوين ملكه أو تهذيب ذوق لهذه الابحاث المجدبة التى أفنى فيها حياتى جاهدا .. ثم أن فى أعماق نفسى قلقا ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هذا الوسط . . ويا رحمتاه للمجاورين لا يفتأون يقبلون تلك الأيدى التى لا هى أيدى النساء الناعمة فتجىء فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هى مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها .. (٢) »

ولكن مصطفى عبد الرازق ، كان نسيجا وحده ، شخصيته صيغت وفق هذا الطابع من الرفق والهدوء والأناقة .

والا فهل قرأت مثل هذا لأديب نشأ فى الريف وتعلم فى الأزهر .

« المرأة هى المنبع الفياض لما فى الحياة الانسانية من حب هو أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن فى فطرة المرأة نوعا من السحر والخلابة والجمال هو الذى يسمو بخيال أهل الفن إلى ما يبدعونه فى آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى فى قلوب المستنيرين نار العشق العظيم وإذا كان جمال الحياة فنا وشعرا وحبا فان المرأة هى التى تبنى كل مافى الحياة من معانى الجمال »

فهذه الطبيعة الانسانية المشرقة ، هى طبيعة الأديب الذى يأخذ من كل شىء ولا يطغى عليه شىء من مذاهب القول أو الفكر . هذا الأسلوب الرشيق الذى يكتبه مصطفى عبد الرازق هو صوره نفسه المشرقة . هذه النفس الذى ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها

---

(١) مذكرات مصطفى عبد الرازق آية من الايات ولطالما طالب أصدقاء الكاتب نبشرها وحدثنى الاستاذ عبدالكريم الخطيب وهو من أهل العلم والفضل أنه راجع هذه المذكرات فعلا وأعدها للنشر ولا يؤخرها عن الظهور الامقدمة يكتبها السيد على عبد الرازق شقيق الكاتب . وأنا لنهيب به أن يفعل ويسرع ..

(٢) مذكرات مصطفى عبدالرازق — ٣ مايو ١٩٠٥ .

إلى آخر العمر . ولا يمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة . . .

« .. ثم يخرج إلى ساحة تبسم الانوار فيها والزهر . وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة . مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها . ومن حولها دكك متفرقة لمن ايسوا أطفالا . . ولمحت فى بعض النواحى سيدة بيدها خطاب تقرأة فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم . وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها . وكم يأوى إلى هذه البركة من باك ومبتسم . ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . رديدكم أيها الأطفال العابثون بالماء »

لقد دخل الشيخ مصطفى عبد الرازق باريس بين صديقين كريمين « وكان أحدنا يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معمما » وعاد من فرنسا عام ١٩١٤ .

وكان قد التقى فجر حياته بالشيخ محمد عبده الذى كان بعيد الأثر فى تحويل مجرى هذه الحياة . لقد كان ضيق النفس بالأزهر فلما كتب إلى الشيخ زاره فى دارهم ونصح له بأن يستمر على أن يتولى هدايته إلى مطالعات فى غير أوقات الدراسة يقول .

اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطرمت فى نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها الشيخ محمد عبده فى عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوح لم ترضينا معارفهم ولا مذاهبهم .

والحق أن مصطفى عبد الرازق . أخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل وتلك الطبيعة الثابتة التى لايتحول منها شىء سواء كان صاحبها فى القاهرة أو فى باريس ، فى الوزارة أو فى الازهر أو فى الجامعة .

وأخذ من الازهر اللغه والبيان والرصانة وأخذ من السربون التحقيق

العلمى ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظا بطابعه . وفى يوميات ابراهيم الفزارى التى كان يكتبها عن نفسه وتختفى وراءها قوله «فى الجريدة» . . إن حياتى ليست منطقية . ان الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة للمزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية . أما جو قلق لنفس هادئة . ومعمعة حرون لطبيعة مسالمة . فليس من المنطق فى قليل ولا كثير . . .

كان منذ شبابه الباكر يتطلع إلى المجد ويرنو إلى آفاق بعيدة . لم تكن واضحة وضوحا صريحا فى نفسه ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه وتصورها هذه العبارات التى كتبها فى مذكرات الشيخ الفزارى سنة ١٩٠٥ .

. أنا أستيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ إلى مشاركة رفيق فى مطالعة إلى انفراد بالدرس حتى آوى إلى مخدعى قبل نصف الليل فاتر القوة متنبه عصب الدماغ محتاجا إلى النوم غير واجد إليه سبيلا وليس لى من سلوه فى ثنايا هذا العناء المتتابع لامن لذه العمل نفسه ولامن ثمرته . . ثم ان فى أعماقى قلقا ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها فى هدا الوسط . . .

فى هذا السن كانت تغلب عليه طبيعة الحياء التى تعوقه عن ان يبث مافى نفسه للناس فكان يكتبه فى الورق . يقول

«كنت يومئذ شابا تتفتق عنه غلائل الطفولة . ولم تكن بنيتى قوية . ولا اعصابى متينة فضعفت من اثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعرانى سأم من الدراسة فى الازهر واشتد ذلك السام حتى صار الما ملازما . وكانت طبيعة الحياة تعوقنى فى ذلك الوقت عن ان ابث مابى إلى احد .

ولكن هل اذهبت اوربا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء . . كلا فقد بقى مصطفى عبد الرازق رمزاً لهذا المعانى العالية النبيلة من الخلق . .

يقول الاستاذ محمود الشرقاوى[1] . . أن مصطفى عبد الرازق عرف برقة العاطفة والحياء والتواضع وحب الخير والاعتداء بالنفس . . وان هذه الفضائل كانت سبباً فى متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ للأزهر. وتفسيرى بكلمة متاعب فيه كثير من التساهل . وعند ما يكتب تاريخ هذه الفترة سيعرف الناس أى ظلم وأى مضض لقيه الشيخ فى مشيخة الأزهر لبعد أو تناقض مابين طبيعته وبيئته اذ ذاك »

وفى ميدان السياسة كان لايعرف النفاق ولا الحيلة . كانت طبيعة العالم المترفع طابعه هى .. وكان فى نظر تلاميذه أحد الأساتذة القلائل الذين حفظوا معالم الحق والخير والجمال كحقائق يمكن التماسها فى صورة إنسان .

وكان فى دراساته الفلسفية يحدث طلبته عن هذه المعانى . يقول الدكتور عثمان أمين « كثيرا ما كان فى يحدثنا الأستاذ فيقول إن هناك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الإنسانى وثبتت على احداث التاريخ وهى فلسفة كرام النفوس . أولئك الذين عاشوا للعالم كله لا لأنفسهم . وظلوا على وفاق مع قانون المجد والسخاء . وكان أول من رسمها أنبياء الشرق ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء من سقراط إلى أفلاطون وارسطو . . والفارابى وديكارت وغاندى . . جميعهم قد استطاعوا أن يستشفوا جوهر الدين .

هذه الفلسفة تتلخص فى حالة نفسية يصح أن يطلق عليها الاسم الجميل الذى اختاره ديكارت : اسم « الأريحية »

وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى إلى اسعاد الغير مهما كابدت من عناء »

وصدق طه حسين حين قال أن مصطفى عبد الرازق كان كنزا من كنوز مصر ليس إلى استقصائه من سبيل . كان كنزا فى العلم وكنزا فى الخلق والسيرة والقدوة الحسنة لطلابه وأصدقائه والذين عرفوه من قريب أو بعيد .

---

(1) الرسالة ١٨ فبراير ١٩٥٢ .

وبعد فهل يمكن للآثار التى خلفها مصطفى عبد الرازق أن تعطينا سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التى نشرت فى الصحف على أنها «مذكرات قديمة»

هذه «عذراء الريف» تاريخها ١١ أغسطس ٩٠٦ نشرت سنة ١٩٣٦.

«خرجت أصيل الأمس إلى الخلوات أطوف فى أنحاء المزارع حتى انتهيت إلى فجوة فى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن. فألقيت عباءتى فوق تلك الحشائش العذبة. واستلقيت إليها. وكان معى الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبدربه وبهامشه زهر الآداب للحصرى. وجعلت أداول الكتابين فى القراءة. وأقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة. وبينما أنا مشغول بمحاولة الاجادة فى ما أشدو به متأثر النفس بمعانى الأغانى نفسها. إذ أقبل فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رؤوسهن ثم جلسن إلى جانب يسمعن غنائى. وكنت أراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن. ولما رأيت انسهن بصوتى غنيت من شعر أبى تمام.

.. ولم يكن يبدو على جاراتى مظهر الفهم ولكنى كنت ألمح فى أسارير صغراهن علامات التأثر كلما جعلت فى نغماتى أشبه أنين غرامى والتقت عينى بعينها عند منصرفى»

وفى اليوم التالى كتب فى مذكراته بقية القصة.

«.. رجعت اليوم إلى مكانى بالأمس فعادت وحدها، الآنسة الفتية. شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طوالا. نحيفة من غير إن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئا وما يهبط أهيف من جسم كأنما صب فى قالب. فلست ترى فى خطوطه عوجا. شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال. الجمال النسائى فى ثغرها. وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والإحساس الدقيق..

دنوت إلى الفتاة يدفعنى شعور بأن إلى جانبها حظا من سعادتى ويركبنى الحياء . ثم حييتها فردت من غير نفور . قلت : وحيده أنت اليوم . فأجابت أننى أحب الوحدة فى كثير من الوقت .

قلت ان الميل إلى العزلة نزعه النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى السلوان للأنفس المعذبة . . وليكون فى ظلام الحياة نورا . .

قالت : إذ كانت الوحدة ايه الألم النفسى فما بالك تحبها وإنت منعم . قلت ان من وراء هذا كله مواضع الألم فى قلب غير جامد . ولبثنا ساعة سكوتا نتبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ خفيف أوراق القصب تنحسر عن قادم فانتبهنا من تلك السكره الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى . . »

هذا هو مصطفى عبد الرازق فى مذكراته . قلب كبير محب . . هذه العاطفة الحلوة الصادقة كانت الضياء لحياء الرجل . ومادة لأدبه . كان وهجها النفاذ الكامن فى أعماق القلب يمنح أسلوبه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال . ويعطى روحه هذه السكينة والطمأنينة . .

السباعى

صورة محمد السباعى فى نفسى قريبة الشبه من جانب بالمازنى ومن جانب آخر بزكى مبارك . .

فيه هذه اللوحة التى حملها التاريخ القريب للأدباء الذين كافحوا فى سبيل الفن وعاشوا فى مسغبة وقلة ولم يخلفوا من وراءهم شيئاً . كان مدرساً موفور الرزق تتفتح أمامه أبواب المجد فى محيط التدريس والعلم ولكنه آثر الأدب وتجرد له . وحرر نفسه من قيود الوظيفة فأجهده ذلك غاية الإجهاد . . فلم يكن الأدب وحده صالحاً لأن يكون مورداً للأديب . . ولا يزال .

والأدب الرفيع صناعة شاقة . ومجهود موصول ، من غير جزاء ولا ثمن . ومتى كان ذلك .. كان فى عهد النحت والبناء .. ووضع القواعد وكانت صناعة الترجمة من الآداب الأوربية عنصر ضخم من عناصر النهضة الأدبية التى طلعت فى أوائل هذا القرن . وكان السباعى دعامة فى هذا المحيط . وكان متحرراً فى فن الترجمة من قيود الحرفية .. وكان كلفاً بكاتب واحد .. هو « موباسان »

.. ما فتحت البلاغ الأسبوعى مرة فى سنوات ما بعد ١٩٢٦ إلا رأيت آثاره وقصصه المترجمة . ثم عاصرت ذلك السجال الذى وقع بينه وبين زكى مبارك سنة ١٩٣١ ، لقد أحس فى آخر أيامه غدر الزمان ووجد ذلك الجهاد الطويل الذى عاش له مضيعاً عند الناس . وكان يتوق فى تلك السن إلى أن يحس بكلمة التقدير والإعجاب . يده فراغ . وقلبه مشوق إلى الحسن والعاطفة ولكنه لا يجد إلا ازوراراً ... فصرخ صرخته التى أدمت القلوب . .

« ..وأصبحت حرفة القلم عندى بعد ما كان لها من سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة . جافة جدبه . ناضبة مقفرة من الطرب والأنس . بل من العزاء والسلوى . وأصبح القلم فى يدى أشد بؤساً ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول . ترى نغمة أقرب إلى أنة الثكلى منه إلى رنة المسرور »

تلك هى أزمة السباعى النفسية التى كونت فلسفته فى التبرم بالحياة والسخرية منها وقد نصح للشبان أن ينصرفوا عن الأدب . « وإذا أمكن أن يكون هناك دواء يبغض إليهم الأدب وصناعته فليسألوا عن مكانه ويشتروه بأغلى ثمن » .

وليس شك أن من ينصح بهذا لابد أن يكون قد ذاق من الأدب الويلات . لقد كان السباعى يعتقد فى مبـــدأ حياته أنه يستطيع الاعتماد على الأدب ولكنه أخفق « انقطعت للأدب سنين عدة وأمكننى أن أعيش عيشة ليست أسوأ كثيراً من عيشتى الحاليه . وكنت أعتقد بادىء الأمر أنه سيجىء يوم أربح فيه من الأدب ما لا يقل عن راتب أكبر موظف فى الحكومة » . . ولكن هذا الحلم كان سراباً خادعاً .

واشترك السباعى فى تحرير الجريدة ومجلة البيان وجريدة البلاغ . وكانت الترجمة عصب أدبه . ترجم رباعيات الخيام نظما . وكتاب الأبطال لكارليل والمدينتين لديكنز والتربية لسبنسر وهو فى هذا يتفق مع المازنى

ويختلف معه ، فقد أبدع المازنى أدباً غير الترجمة . وكان المازنى يحب الترجمة الدقيقة ، ولكن السباعى كان يبيح لنفسه الترجمة بالمعنى ويعمد إلى توشية ما يكتبه بمحفوظة من النثر والنظم .

ولقد وصف زكى مبارك أزمة السباعى فقال : كان السباعى من أهل التضحية فى سبيل الأدب . ضحى بمستقبله وطمأنينته فى بلد لا ضمان فيه لحملة الأقلام . لقد ابتدأ عمله بالتدريس . ثم رأى مهنته لا تصلح لغير المتزمتين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين . فآثر حياة الكتابة على حياة التدريس . ولكن فى أى عهد كانت هذه المخاطرة . كانت فى عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من أشباه الخواص .

فاذا ذكرتم أيها الناس أن السباعى قضى أكثر من عشرين عاما وهو موصول الجد والكفاح فى إمداد الصحف بأروع آيات الترجمة والإنشاء فاذكروا بجانب ذلك أنه كان يحيا حياة العامل المسخر أو الأجير المغبون .

لقد كان السباعى من أهل المرح والطيش لا يرى العيش إلا فى منازلة الصهباء ومغازلة الظباء . فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء الحياة ولكنه فى أخريات أيامه استسلم إلى الحزن والابتئاس واطمأن إلى جذلة حلم يذهب ودنيا تزول[1] . . »

وقد أضافه زكى مبارك إلى كتاب مصر فى ١٩١٠ وهم محمد المويلحى وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ومصطفى المنفلوطى ووصفه بالبصر باللغة العربية وبالذكاء الحاد .

ويعد السباعى من أوائل من ترجموا من الأدب الروسى وحمل لواء الترجمة فى هذا العصر الذى كان الأدب العربى يتثاءب ليخرج من قوقعة

---

(١) البلاغ فى ٢٥ سبتمبر ١٩٣١ .

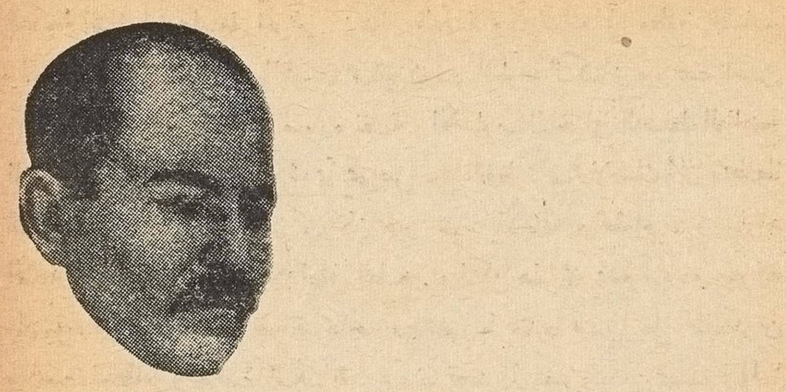
الجمود والتقليد ، وكان فى أشد الحاجة إلى أولئك الرواد الذين ينقلون روائع الأدب الأوربى والآثار والأفكار الغربية ويدين لهذه الطائفة بالفضل شباب الطليعة الذين جاءوا على أثرهم .

* * *

وبعد فليس فى حياة « السباعى » ذلك الصراع أو تلك الأحداث الضخمة الفاصلة التى نعرفها فى حياة بعض كتابنا ومفكرينا . وهى تتسم بذلك الطابع المتئد الهادىء ، وتتلخص فى أنه قد انفصل فى شبابه عن حياة التدريس واختار الصحافة والأدب . ورأى أنه بذلك قد حقق أملا كبيراً . ولكنه ندم فيما بعد على هذه الخطوة الجريئة وظل نادماً عليها طوال حياته فان الأدب لم يعوضه ما فقده ولم يحقق له ما كان يحلم به . .

وفيما عدا ذلك فحياة « السباعى » هادئة ليس فيها صراع ولا أحداث ولا مفاجئات . لم يكن من الذين يفترعون المساجلات فى الأدب ولا المغامرات فى حياته . وإنما كان يكتفى بهذا اللون الذى عرف به : الترجمة ونقل الآثار الأوربية إلى اللغة العربية .

زيدان



ظاهرتان فى حياة جرجى زيدان توحى بالعظمة وتلفت النظر إلى هذه الشخصية الضخمه التى تركت آثاراً قوية متعدده فى الاجتماع والأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتاريخ : انه هاجر فى مطلع شبابه إلى مصر والهجرة تعطى معنى القوة والثقة بالنفس والرغبه فى العلا والهروب من الواقع المر إلى الآفاق الواسعة . والثانية أنه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعدده حتى كسب قدراً من العلم أهله ليكون قائداً من قاده الفكر فى مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع إلى المجد فى نفس الشاب الذى عاش يكتب للناس ويدرس أسرار الوجود والأزليه . هذا البحث الذى شغل أوقات فراغه والذى قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول « لقد اكتفينا فى هذه الحياة بفخرنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الأخرى لعلنا ندرك من تلك الأسرار ما يشفى الغليل »

ولم يقف أمر طموح جرجى زيدان عند هذا الحد بل أولع بالاسفار ، فقد ذهب إلى السودان وسافر إلى الاستانة وأوروبا وفلسطين ولاشك أن

وحلاته قد أمدته بمزيد من الخبرة والتجربه . وتنقل بين دراسة الطب والصيدلة واللغات فدرس العبرية والسريانية والإنجليزية .

ولا شك أن طبيعة جرجى زيدان العلمية ودراساته فى مطلع الشباب واتجاهه إلى العلوم والطب واللغات هى التى كونت أسلوبه الكتابى ورسمت أسس كتاباته التاريخية وأسلوبه صوره نفسة ، الأسلوب التلغرافى البسيط الواضح الذى يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ . فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الأحاسيس ، وكان غير حفى بالأناقة والطعام . وأسلوبه الأدبى يعطينا صورة الاعتداد فى الطبع . ولكن هذا لا يمنع أنه ذو عزيمة ماضية ، وقلب وثاب . فهو قد هاجر من سوريا عندما ضيق على المفكرين ومنعت الخطابة وحرمت الكتابة ، عندئذ قصد إلى مصر مع من قصدوا إليها ليجدوا فيها مجالا لإعلان آرائهم .

وكانت حياة زيدان رمزاً على الجهاد الصامت والكفاح الدائب فى سبيل الفكرة . « ابتدأ[1] زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف . فكان فى أول سنه من سنى الهلال يقف إلى مكتبه وقوفا يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ويترجم رجلا مشهورا ويؤلف رواية تاريخية . ثم يراقب الطبع والتصحيح دائبا على العمل نهاراً وليلا . ثم توفى وكان قبل الوفاة ببعض دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته »

وصورة أخرى من طبيعته العلمية الراسخة ، أنه كان يواجه النقد والحملات بأسلوب الرياضى فلا يضيق بها ويمر بها كريما وهذه آية الدلالة على هدوء الأعصاب وضبط النفس والإيمان بالهدف .

* * *

ويعد جرجى زيدان من رجال الفكر . وأسلوبه أسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للمعانى . ولعل دراسته للطب فى مطلع حياته هى التى

---

(١) سامى الجريدينى .

منحته هذه الطبيعة العلمية . ويقف جرجى زيدان على إحدى القاعدتين اللتين أشرق عليهما فجر النهضة الفكرية فى الشرق قاعدة لطفى السيد الذى رسم صورة المصريه وفتح باب النقد الأدبى . وقاعدة جورجى زيدان الذى أدخل إلى الفكر العربى المعاصر الطريقة العمية المدينة بالبحث ووضع الخطوط الأولى للأبحاث التى جاءت بعده فى تاريخ الاسلام والأدب العربى(١) .

وقد تأثر بطريقته وأسلوبه سلامه موسى وأحمد أمين وعباس العقاد، ومضى جرجى زيدان يحرر الهلال منذ سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ أى أنه أمضى اثنان وعشرين عاما وهو مكب على القلم يكتب ويقرأ ويدرس ويتناول فصول التاريخ القديم وأحداث الحاضر حتى أتيح له أن يخرج هذا القدر الضخم من المؤلفات والروايات .

وكان هذا فى الحق جهداً غير طبيعى ، لايمكن أن يصدر عن انسان عادى مما أدى إلى أن يتحطم الرجل مرة واحدة .

ومهما يكن رأى النقاد فى بعض الوقائع التاريخية التى أوردها جرجى زيدان فانه قدم إلى الناس صورا للتاريخ الإسلامى فى أسلوب قصصى محبب إلى النفوس قريب إلى المتوسطين الذين لايستطيعون هضم المجلدات التاريخية الجافة . . .

ويقول الدكتور طه حسين أن جرجى زيدان هو « الذى نقل إلى الأدب العربى مذهبا من مذاهب الأدب الأوربى هو القصصى التاريخى »

* * *

وبعد فان الدراسات التى كتبها طه حسين والعقاد وهيكل ووجدى والجميل ومطران والبشرى والمنفلوطى وجبران على فترات متباعدة أو متقاربة من ذكراه ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب جميعا تتلمذوا أو اتصلوا

---

(١) ولا ننسى هنا أثر شبلى شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف .

من قريب بآثار هذا الكاتب . فضلا عن أن هذه الآثار كانت موجهة لفهم وأسلوبهم .

وأن منهم من كان يقصد جرجى زيدان ليسأله رأيه فى أمر من أمور الفكر والادب . يقول الاستاذ العقاد « . . ومرة أخر زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر . وأنا مشغول بقراءة شوبنهور لاسأله رأيه فى أصح النظريتين إلى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين »

ويصف طه حسين صاحب الهلال بأنه « من رجال هذا الجيل الساخط الطامح ، وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه . وجرجى زيدان لم يكن أرستقراطى الادب وإنما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع ، احداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الادبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة . والثانية النزعة الشعبيه التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه فصوله الثقافية العامة »

ويقول العقاد أن جرجى زيدان من كتاب «مايسميه هو بالحاسة الاجتماعية ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . . تقرأ جرجى زيدان فى جميع موضوعاته فاذا مطبوع بطابع السداد والاستقامة والاستواء . هى جدول وليست بشلال وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات »

وبعد فان آثار جورجى زيدان تعطينا صورة لرجل مفكر ، فيه نزعة علمية . ونظرة واحدة إلى إنتاجه تضع بين يدينا جوانبه العقلية جميعها ولكنها لا تضع أمامنا أى شىء عن عاطفته ..

ولكن عاطفته تبدو قوية حين نتصور هذا الإنتاج الضخم الذى أصدره فى السنوات القليلة التى عاشها منذ أنشأ الهلال ١٨٨٩ إلى أن توفى ١٩١٤ .

إن هذا الإنتاج يدلنا على أن جورجى زيدان لم تكن له صبوات . ولم

يكن ينفق وقته عبثاً . لقد عاش يقرأ هذه المراجع الضخمة التى استقى منها مصادر كتبه فى التاريخ وفصوله عن الأبطال والعظماء . وجعل منها مادة قصصه . لقد عاش يقرأ ويراجع ويستقصى ويكتب ويراجع ويصحح ويقدم آثاره الأدباء فى الشرق العربى كله ..

إنك من خلال إنتاجه تراه جاداً متجهماً ليس فيه عاطفه ولا نزوة ولا لمحة من لمحات الأشواق الإنسانية . كأنما وجه عواطفه كلها إلى المطالعات والدراسات . وقد كان جرجى زيدان إلى ذلك سوى الطبع والفطرة فقد تزوج وأنجب وكان يحمل عاطفة الحب لأولاده ويرسل لهم الخطابات فى أثناء سفرهم يوجههم ويدفعهم إلى الحياة الكريمة .

ومن هذه الخطابات تنكشف سرائر هذا الرجل الجاد المكافح فى إصرار عجيب وهو يرى أن الإنسان الممتاز هو الذى يعتاد الشىء سريعاً فان قوة إرادته تجعله يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه . وأن ذلك دليل القوة والحيوية فى الإنسان وأشبه شىء بالمرونة فى الجماد .

وليس فى حياته حوادث ضخمة سوى هجرته من سوريا إلى مصر ، وكان هدفه استكمال دراسته للطب فى مصر بعد أن ضعف أمله فى الحصول على أجازته من بيروت . وتظهر عصامية جورجى زيدان حين يقول فى مذكراته أنه حين أزمع السفر إلى مصر لم يكن يملك نفقات السفر ولكنه لم يوفق فى مصر إلى دخول كلية الطب واتجه إلى الصحافة والأدب .

وتبدو مظاهر العصامية فى كل مراحل حياته فهو قد كافح حتى تعلم الإنجليزية وكافح فى سبيل دراسة الطب وتعلم اللغات العبرية والسريانية .

ولعل طموحه هذا وتطلعه إلى المجد هو الذى حجب عن أدبه مظاهر العاطفة فقد غلبت عليه النزعة العلمية فى آثاره وبحوثه . ولقد ظل جرجى زيدان يكافح ويدرس ويكتب حتى قضى وهو على مكتبه مخلفاً هذا الإنتاج الضخم .

يقول خليل مطران أنه ما عرف رجلا أجمع للنقيضين : الكد والتواضع منه « لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكا دنياه بمحضر من أحد . ولا أنه تمنى على أحد شيئاً بأشارة أو مصارحة كما أننى لم أجده مرة مستفزا اللاخذ بثأره من متهجم عليه فى الصناعة التى هى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته » ويقول فى خطاب لابنه « فى سنك كنت جباناً ولكنى لم أكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهنى إلى نقص فى ولو وجد من ينبهنى إلى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح أعواماً ، فاستفد أنت من هذه الفرصة . إن العمل فى الدنيا يحتاج إلى جرأة وإقدام كما يحتاج إلى الثبات والصبر .

ولكن إذا نحن أردنا أن نحـــدد مكان جورجى زيدان فأين نضعه بين الكتاب والمؤرخين والصحفيين . ؟

لقد كتب بضعة وعشرين رواية قصصية جعل مادتها التاريخية من تاريخ الإسلام ، وألف عدة كتب عن التمدن الإسلامى وتاريخ مصر وتاريخ مشاهير الشرق . ولقد تناول النقاد هذه المؤلفات بالدرس . وهوجم جورجى زيدان وقال البعض أنه اعتمد على بعض الروايات الضعيفة أو المؤرخين الإسرائيليين أو رضى بعض المصادر ذات الهوى .

ونسى النقاد أن جورجى زيدان كان يقتحم ميداناً جديداً وأن أدواته بالطبع كانت أقل من أدواتنا الآن . وأنه فى حدود المراجع التى وجدها بين يديه استطاع أن يدرس تاريخ العرب والشرق باعتباره تاريخ الإسلام .

وليس من شك أن جورجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب عربى يكتب للعرب ، فلا عليه إن اعتمد على رواية دون رواية . ولا شك أنه فيما تناول من حياة المعاصرين كان دقيقاً ، لأن أدوات التاريخ كانت تعيش بين يديه . وهو لاشك أول من ابتدع من التاريخ الإسلامى

صورة قصصية لطيفة محببة إلى النفوس كانت سبيلا إلى عقلية للعامة لتقبل حقائق التاريخ الجافة .

ولقد كانت آراء جورجي زيدان وأفكاره ومذاهبه غاية فى الاعتدال . ولا عليه إن لم تكن معالم أسلوبه واضحة وضوح أسلوب الأدباء فهو عالم وباحث ومفكر . وقد عاش قبل نهضة الأسلوب البيانى وآمن بالأسلوب التلغرافى القصير الواضح الذى يصل إلى ما يريد أن يقول دون لف أو دوران .

وغاية القول أن جورجي زيدان قد أنشأ مدرسة واضحة الأثر فى الادب العربى الحديث هى مدرسة الهلال التى أبرزت بصورة واضحة فيما بعد فى أحمد أمين وسلامه موسى والعقاد ، ولا شك فى أن حديث الأربعاء وفجر الإسلام وضحاه فيهما ذلك الامتداد الواضح فى اتجاه جورجي زيدان .

البشرى



ما ذكر اسم « عبد العزيز البشرى » إلا أحس الذين سمعوا عنه أو عاصروه أنه لم يكن كاتباً بقدر ما كان من ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة .. وقد رويت عنه الفكاهات أكثر مما رويت عنه أمثال الأدب . ولم يخلف هو فى الأدب إلا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه « المختار وفى المرآة وقطوف » إذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة .

ولقد كان عبد العزيز البشرى صديقاً لحافظ ابراهيم لا يفارقه . وكان من زملاء طه فى طلب العلم فى الأزهر ومن رواد صالون آل عبد الرازق . . وهو فى خلال ليله ونهاره صورة من الابتسام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شىء . ولا يقلقه أمر . وكأنما هذه الدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أكدار .. ولطالما عرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية أن يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجريين الذين تكثر آلامهم ومتاعبهم . .

إن الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهرية الخالصة فقد

عاش فى أعماقها وخالط رجالها ونسائها .

ولكننا لا نستطيع أن نأخذ هذا القول كما هو . فان أسلوب عبد العزيز البشرى وحين يضع قلمه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته ، وإنما يبدو فى صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة ، والمعانى الإنشائية التى لا تخلص من العبارات الضخمة الرنانة . ويقينى أنه لو ترك قلمه على سجيته لجاءت معانيه أشد وضوحاً . ولكنها الطبيعة الأزهرية التى لم يستطع التحرر منها أو التخلص من آثارها .

وبعد فما هو مكان عبد العزيز فى الأدب العربى المعاصر :

أنه لم يتهيأ لكى يكون كاتباً أديباً ، ولكنه كصنوه المنفلوطى ، كره الأزهر واتجه إلى الأدب والقراءة والصحف . . . وكتب فى المؤيد واللواء والظاهر ، ولكنه آثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه ، وعرف فى المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر ، محدثاً فكهاً لبقاً بارع النكتة ، حلو الحديث . . كما عرف حافظ ، وإن لم يتأتى له أن يكون فى أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والإشراق الذى عرفت فى مجالسه كمحدث .

. . . ولعله كان يؤمن فيما بينه وبين نفسه أنه ليس بكاتب ، وإن كان قد ترك آثاراً ما تزال حية باقية وهو يصف طبيعته هذه « .. إن عادة لزمتنى من يوم ضبطت القلم ألا أحرص على شىء من آثاره المنشورة فى الصحف فاذا وقع لى شىء من ذلك أسرعت إلى إتلافه تمزيقاً أو تحريقاً .

وسبب هذه العادة أننى أول ما عالجت الكتابة كنت أدرك أننى ناشىء لا أجيد البيان فان كانت لى طبيعة فلن يتهيأ لى الإجادة إلا بعد شدة . إمعانا ، وطول تمرين ، وظللت على هذا دهراً ، وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يثبت الأنظار » .

وأمضى البشرى ثلاثين عاماً وهو يكتب ، ولكنه كان مقلا ، متأنقاً ،

لا يوقف نفسه على الكتابة ، وإنما يرسلها إرسالا فتأتى أحياناً على فترات متباعدة أو متقاربة .

* * *

وأبرز لون عرف به البشرى فى الأدب المعاصر هو تحليل الشخصيات « فى المرآة » . .وإن كانت الاعتبارات السياسية قد حالت بينه وبين توقيعها عند ماكان يوالى نشرها فى السياسة الأسبوعية .

وتعطينا هذه المرائى صوارة واضحة لعبد العزيز البشرى ، صورة الرجل الخبير بالناس ، الذى عاصر هذه البيئات وعاش فيها ، وعرف من أمورها الخطير والصغير ، وأحاط بما كان يجرى وراء الستار . .

ترسم لنا هذه اللوحات تلك الخبرة التى استطاع أنه يتميز بها عبد البشرى كما وصفه الدكتور طه حسين « . . كان رحمه الله من أقل الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الإمعان فى طريق واحد . ولكنة فطر فى حياته على حب التنقل فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فاذا صليت العصر رأيته فى حى أخر من أحياء القاهرة . فى قهوة من القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية ، فاذا صليت العشاء الأخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة . .

. . وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الأوساط والطبقات وقد أكسبه هذا اللون من الحياة خبرة واسعة بالمجتمع المصرى فى كل خصائصه ونقائصه . كما أفاده احاطة شاملة بما يؤثره أبناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع . سواء أكان ذلك فى البيت أو فى المقهى أو فى الشارع . وسواء أكان ذلك مما يجرى فى حياة الناس العامة ، أم فى خلواتهم الخاصه . ومن ثم

كان أروع الكتاب وأبرعهم ، إذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهرى ، وماطرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات ، وماجد فى حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات »

تعطيك « مرائى » عبد العزيز البشرى هذا الفهم وتملأ نفسك ثقة بخبرته هذه . فهو يتناول فيها شخصيات مصرية ، كانت لامعة اذ ذاك فى محيط السياسة والأدب والفكر ، يتناولها فى قوة وفى جرأة وفى سخرية . . إلا حين يتصل الأمر بسعد زغلول .

وقد صور فنه فى هذه المرائى فى عبارات واضحة . . « . . . والغاية التى تذهب إليها « المرآة » هى تحليل « شخصية » من تجلوه من الناس ، والتسلل إلى مداخل طبعه ، ومعالجة ماتدسس من خلاله ، لقنص هذا على القارىء فى صورة فكهه مستملحة »

وبرع البشرى فى تصوير المجتمع وأحداثه وكل مايتصل بالناس فيه ، ولقدرته على إيراد النكتة أو تشقيق السخرية مدى بعيد فى خلود آثاره تلك ، لولا ذلك التكلف الذى يبدو على أسلوبه بين حين إلى حين ، . . عندما يريد أن يحى لفظا ميتاً ، وهو فى هذا الجانب قريب إلى الرافعى . . كما يبدو قريبا إلى المازنى فى تناوله لحديث المجتمع ، مع قاهرية أصيلة واضحة المعالم حفظها له أنه . . ابن مصر . . اذ لم يخلط فنه بالآداب الأوربية . . وموضوعه عن « الشحاذون » والباعة المتجولون مثل لما نقول وهو عصرى الرأى ، بالرغم من ثقافته العربية الخالصة ، وحديثه عن أهل الفن والموسيقى والغناء والتمثيل ، يدل على صلة دائمة متجددة قائمة منذ عهد بعيد .

* * *

وكان فى مطلع شبابه صديقا لطه حسين ، ثم صاحب حافظ ابراهيم حتى لم يكن يرى أحدهما فى مكان ما ، دون أن يكون معه صاحبه وقد ظل طه

يحب عبد العزيز ويضمر له الود ، ويذكره راضيا عنه حتى إذا ماقضى أكرمه حين أصدر له مجموعة « قطوف »

« .. وأنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى . وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه . وحين يرتفع الضحى انقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهاته عن جد البلاغة و الأصول ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ونزعم لانفسنا أننا نغذى به العقول والقلوب وانى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن نصلى العصر ، نقرأ معاً كتاب الكامل للمبرد وكان مزاج عبد العزيز وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما يصرفنا عن ذاك »

.. ولعل هذه الصورة تعطينا تأكيدا بأن « عبد العزيز البشرى » كان فى آخر مراحل حياته شبيها به فى أول مراحلها . هذه النفس العذبة الصافية المحبة للفكاهة والطرافة والحياة .. المقبلة على جمال الحديث وتشقيقه ، المغرقة أحيانا فى السخرية . . الراغبة إلى الأدب تكتبه بين حين وحين وتتناوله على هذه الصورة من التكلف الواضح ، والمعاناه الطويلة ، ثم عشيان هذه المجالس التى يضطرب فيها الادباء والساسة .. وقد فرض عبد العزيز البشرى نفسة على الادب ، كاتبا من البلغاء ، ذى الديباجة الرصينة والاسلوب البيانى ، إلى صف الرافعى والزيات والمازنى .

ولو قد أتيح لعبد العزيز أن يوغل فى الصحافة كما حدث للمازنى أو المنفلوطى اذن لتحول أسلوبه إلى شىء من اليسر والتبسط .

ولست أوافق الدكتور زكى مبارك على رأيه فى أسلوب عبد العزيز البشرى « .. البشرى كاتب « على الطريقة البشرية » كاتب يذكرك كل سطر بانه

أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس . والكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك إلى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك دون أن يفكر فى حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية . ولو شئت لقلت أن الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب أنه من أصحاب الأساليب لأن الكاتب العظيم تصبح الكتابة عنده من وحى الفطرة والطبع .أين البشرى كاتباً من هذه المعانى ؟

هو رجل صخاب ضجاج يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد . هل سمعتم بالرحا التى تطحن القرون ؟ هى البشرى ، فى بعض نثره القعقاع(١) . . »

ولست أوافق مبارك وإنما أرى أن البشرى يحرص على أن تكون إثارة غاية فى القوة والإجادة ، وهو كلف بالجاحظ محب له إلى أبعد الحدود ، ولذلك تردد كثيراً فى أن يواجه الجماهير بكتاب مطبوع . حتى أنه يقول فى مقدمة كتابه فى المرآة « . . . وجعلت أعود على تلك المرايا بألوان التهذيب فارم مارث بالطبع ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . . »

وإذا نحن قرأنا فصلامن فصول عبد العزيزالبشرى : وليكن «فى الطائرة» مثلا لوجدناه غاية فى الرشاقة والجمال والإبداع .

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه « كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره وفى مادته . . »

---

(١) فصل عن كتاب المختار فى الرسالة مجلد سنة ١٩٤١

ومن هذا الفصل العذب الحلو . . ننقل هذه العبارات .

« . . . ونسيت أن أقول لك أنى حينما دعيت إلى ظهور الطيارة تفقدت شيئاً مهماً جداً ، وخاصة فى هذه الرحلة فلم أجده وكيف لى باصابة مالم يكن . ووجدان مالم يخرج بعد إلى الوجود . ذلك إنما تعودت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حزب البر ، فاذا علوت السفينة قرأت حزب البحر ، فمن لى بحزب الهواء . .

« وأطلق السائق التيار . فدار المحرك برهة تزيد على الدقيقة والطيارة ثابتة فى موضعها . ثم بعثها فزحفت على الأرض زحفاً رقيقاً ثم استحال جرياً وظلت تدور على اليبس ، ولما طال ذلك قلت لصاحبي لعلنا نبلغ الإسكندرية على هذه الحال براً . أفتراها إذن سيارة أفرغوا عليها هيكل طيارة ، فضحك صاحبي وقال : أى أرض ، لأنت والله على جناح الريح ، فالتفت وحققت النظر فاذا أنا حقاً قد جزت بين الأرض والسماء من حيث لا أشعر[1] . . »

هذه لمحات من آثاره الأدبية غايه فى صفاء النفس وحلاوة العبارة ، وهى بعيدة كل البعد عن « طحن القرون » .

والواقع أن أسلوب البشرى فيه رصانة وبساطة ، وكتاباته مزيج من الجد والفكاهه . وهى صورة من طبيعته الإنسانية فقد بدأ حياته فى الأزهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء ، ثم أتيح له بعد أن يقرأ الأدب الحديث ويتصل بالأدب الأجنبى فيما ترجم منه .

وقرأ « الأغانى » وأولع بها حتى أدمن قراءتها كما يقول الدكتور طه حسين « ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة » .

---

(١) جريدة الأهرام – ١٩٣٣ (المختار) .

واتصل عبد العزيز البشرى بالحياة المصرية اتصالا وثيقاً ، وعرف دقائقها فى افراحها وأحزانها ، وكان أكثر اتصالا بالناس فى مقاهيهم أكثر مما كان عاكفاً على القراءة والبحث . وكان يتصل بالزعماء والأوساط والأدباء ، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب ، كما يتصل بالهيئات الاجتماعية ، وقد أمده هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم . كان له أثره فى غزارة مادة أدبه .

ولكن أين المرأة والحب فى أدب البشرى ؟ إننا لا نجدها واضحة صريحة ولكننا نحسها وراء هذه اللمحات البراقة حين يتحدث عن الفن ، ونعتقد أنه عرف الكثيرات فى محيط المسارح والملاهى وكانت له صبوات ، كان يصده عن تسجيلها أنه ابن شيخ الازهر ، ويرده عن الايغال فيها إحساسه بأنه لايلقى ما يلاقيه أهل الوسامة ، ولعل فكاهته وطرافة حديثه كانت تفتح أمامه الابواب وتهتك الحجب .

المازنى



فى حياة المازنى ثلاثة أحداث ضخمة . وفاة أمه وحادث ساقه ووفاة زوجته الأولى . كان يحب أمه فى عنف ، وبصورة لم تعرف إلا هند جبران ..

« كانت تقول لى لقد كنت أنا مستعدة أن أعمل بيدى فى سبيل تربيتك فكن أنت مستعداً أن تعمل حتى بيديك إذا احتاج الأمر . وكانت قوية الشكيمة فلا رأى إلا رأيها فى الأسرة كلها وكانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة فكنا نتفاهم بالعيون والذين حولنا غافلون ولا يفطنون إلى شىء :

ولما حضرتها الوفاة قالت أعطنى ثلاثين قرشاً ولم تكن بها حاجة إلى ذلك وكنت قد أعددت عدتى لذلك اليوم فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى مايكفى لنفقات المأتم .

كانت حاذقة كيسة فى سلوكها فلا نهر ولا زجر ولا أوامر ثقيلة ولا نواهى بغيضة ولا شطط أو إسراف .

إن موتها هدنى فقد كانت أما وأبا وأخا وصديقاً .. »

وعاش المازنى تسع سنوات بعد وفاتها يعيش على ذكراها .

أما ساقه فقد كانت له منها عقدة إلى جوار عقدته من قصر قامته ولقد أصيب بالعرج بلا موجب « كانت زوجتى مريضة . فأجريت لها عمليه جراحيه وفى صباح اليوم الثانى وقفت إلى سريرها وفى يمناى الدواء ممزوجا بالماء فى كوب من الزجاج . وحاولت أن أرفعها بيسراى وكان السرير عاليا وأنا قصير القامة فشببت . فسمعت شيئا يطق ، فظننت الكوب قد انكسر ونظرت إليه فاذا هو سليم ، فحاولت أن أدور على قدمى لأرى ماحدث فاذا بساقى اليمين تخذلنى ولا تحملنى فسقطت على الأرض ثم تبينت أن حق الحرقفة هو الذى انكسر . وعولجت ثلاثة أشهر ولكن العلاج كان فيه بعض الخطا فانحرفت عظمة الساق عن استقامتها فقصرت عن أختها فكان هذا العرج .

كان هذا فى ١٩١٤ فتغيرت الدنيا فى عينى وزاد عمرى عشر سنوات فى لحظة . وأدركتنى الشيخوخة فى عنفوان شبابى فاحتشمت وصدفت مضطراً عن مناعم الحياة وملاهى العيش ، وغمرت نفسى مرارة كان يخيل إلى أنى احسها على لسانى . . »

وكان الحادث الثالث وفاة زوجتة فقد كان يحبها حبا عظيما فلما ماتت حزن عليها حزناً شديداً . « وما أنا الآن « حي من الأحياء لايدرى الناس أنى مت منذ سنين ، وأنى قبر متحرك كشمشون ملتون أو جثة لم تجد من يدفنها . أو صورة باهته لما كنته فى حياتى . . »

ولقد عاش المازنى حياتة كلها ولهذه الأحداث أثرها الواضح عنده . . . كان فى حياته طموحاً إلى الحب والعاطفة مما دفع « عبد الحميد رضا » أن يفتعل له خطابات غرام كان لها أثرها فى حياة المازنى وفى أدبه . فقد أحس أن هناك فتاة أدبية تحبه وتضمر له غراماً وجوى فبادلها العاطفة ولم تكتشف الأمر الا بعد وقت طويل .

ولقد كان المازنى شديد التعلق بالحياة ، وكان فى أيامه الأخيرة يفكر فى الموت تفكيراً متصلا وقد أحس بالموت قبل وفاته بأسبوعين فكتب وصيته

ولكن المازنى بالرغم من هذا الحرمان كان من أنفذ كتابنا فى مسائل المرأة وأمور الحب والعاطفه والزواج . . ذلك هو المعنى الأول الذى يرد إلى ذهنى حين أتناول هذا الكاتب بالدراسة .

لست أدرى ماهو العامل القوى وراء هذه القدرة ، هل هى القراءة أم التجربة أم الاتصال بالحياة الزوجية أكثر من مرة ، ولكنى احس بأنه ما تناول مرة هذا الموضوع الا وعالجه فى نفاذ ودقة وعمق وفى نفس الوقت فى يسر لا أجده عند كثير من كتابنا المعاصرين .

فالمازنى هو أحد هؤلاء الرواد الذين صنعوا هذا الأدب المعاصر وتركوا فيه آثاراً قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحاول دراسته . وليس كما حاول هو أن يقول حين صور هذا المعنى « . . مامصير[1] كل هذا الذى سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ، أنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء . فقد قضى الحظ أو يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذة الجبال التى تسد الطريق وبتسويه الأرض لمن يأتون بعدهم ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ، من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد .. وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتى نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره ، ويقيمون على جانبه القصور شاهقة باذخة ، ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها شاهقة رائعة . . فلندع الخلود إذن ولنسأل : كم شبراً مهدنا من الطريق . . »

* * *

بدأ المازنى حياته مدرساً ، ثم آثر الصحافة والأدب ، فانصرف عن

---

(1) حصاد الهشيم .

التدريس مكرا ، وظل يتقلب فى هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاما عجافا ، لم ينقطع فيها عن الكتابة والإنشاء والترجمة يوما واحدا فهو يقرأ ويستوعب ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود إلى قلمه وورقه . .

« ما أظن إلا أن الله جلت قدرته قد خلقنى على طراز عربات الرش التى تتخذها مصلحة التنظيم ــ خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ويفرغ ليمتلىء ــ أحس الفراغ فى رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك فأسرع إلى الكتب التهم ما فيها وأحشو بها دماغى حتى اذا شعرت الكظة ، وضايقنى الامتلاء رفعت يدى عن الوان هذا الغذاء وقمت متثاقلا متثائبا ، مشفقا من التخمة ، فلا ينجينى الا أن أفتح الثقوب وأسح ! . . »

وشارك المازنى فى تحرير عديد من الصحف اليومية والأسبوعية لا يحصرها الاستقصاء وهى صحف منوعة من الناحية السياسية اتصلت غالبا بجميع الأحزاب والهيئات وتطور أسلوبه تطورا كبيرا ، واشترك منذ الشباب مع العقاد وشكرى فى الدعوة إلى المذهب الجديد ، الذى كان له صدى بعيد المدى فى تجديد معالم الأدب المعاصر .

وثقف المازنى نفسه بالأدب الأنجليزى وأوغل فيه ، وتحول فيه من لون إلى لون ومن اتجاه إلى اتجاه . وكان لعبدالرحمن شكرى الفضل فى توجيهه إلى الألوان الرفيعة فيه .

يصف هذه الفترة من حياته الفكرية . . « كنت فى شبابى قليل الثقة بنفسى بالرغم من غرورى ، فكنت أراجع الكتب أكثر مما أراجع عقلى ، ولا أنظر بعينى ، بل أفكر بعقول غيرى ، وانظر بعيونهم ، ولهذا كانت شخصيتى مستترة ، وقلما تتبدى . وكان الذى يتبدى هو اطلاعى ، أى ثمرة دراساتى وقراءاتى .

---

(١) قبض الريح .

ومضى المازنى يشق طريقه الأدبى فى قوة ، فتقلب فى كتابة المقالات والفصول الأدبية والنقدية والتحليلية ، ونظم الشعر ثم انصرف عنه واتهم نفسه بأنه ليس بشاعر ، ثم عرف طريقه أخيراً واستقر عليه ، عند ما بدأ يكتب القصة .

وهو يؤمن بأن « لقمة العيش » هى التى ترسم الطريق الذى يختاره الكاتب كما قال لأحد الذين استشاروه . . « ستكتب فى السياسة وفى أسعار القطن والبورصة ، بل وفى هبوط أسعار الخيش وارتفاع أسعار الصفيح ، إذا أرادت لك لقمة الخبز أن تكتب فى ذلك » .

وكان يؤمن بأن الكاتب لا يستطيع أن يجيد فى أكثر من لون : فلا يكون زجالا وقصصياً وشاعراً فى وقت واحد .. وقال لمحدثه « .. لو أن أم كلثوم رقصت إلى جانب غنائها لما أصبحت أم كلثوم ، فلا تحاول أن ترقص وتغنى ، وإلا عجزت عن الرقص والغناء . ارقص أو غن ، وستصل حتما » .

ولقد كان المازنى ينعى على الأدب أنه لا يكفل للمتجرد له حياة أو معاشا وقال أنه لو فتح دكانا لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من إنتاج الأدب ، وكان يسخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالأقة لبعض بائعى اللب والترمس غير أن رأيه استقر أخيراً على أن يفتح دكانا أدبيا يستعيض به عن دكان الطعمية وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحاً وإن عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذع والسخرية العميقة !

والمازنى كاتب فكه ساخر ، ولكنه عميق الغور ، واسع الأفق ، انطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غايه فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتبا استطاع تصوير هذا الشعب فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه .. كما فعل المازنى .

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيده الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله ، فهى قد جعلته « فار مكتبه » بكل معنى الكلمة ، إذ آثر القبوع والانزواء

والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل ... وقد آثر فى مطلع شبابه أن يسكن فى الصحراء بجوار مقابر الإمامين، وكان لهذا المعنى فى نفسه صورة رائعة « ... بيتى[1] على حدود الأبد لو أنه كان للابد حدود .. إلى يمينى الصحراء .. وإلى يسارى الصحراء وفى كل ناحية يرتمى فى فجاجها الطرف وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهة، أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور، ويقذف بأشلاء غرقاه، ثم يرتد ليئووب بسواهم مطويين فى أكفان أثباجه، محمولين على نقوش من مربد أمواجه» ويروى عن نفسه أنه فى صباح يوم عرسه، دخل إلى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الانسانة الجديدة.

وأسلوب «المازنى» له طابعه المحير ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه، وهو يحب الازدواج، وقد كان كلفا به فى فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئا ما، ويبدو من وراء كتاباته هادىء النفس، مركز الاعصاب، مستقر النفس، كأنما لا يعرف العصبية ولا يضيق بالحياة. أو كأنه ليس هناك ما يزعجه.

كما يبدو فى كتاباته ساخراً، مستهينا بالأحداث، لايحفل بأمر من أمور الدنيا، ولايضيق بمنكر من صروفها، ولاينزعج لأى أمر مهما جل، وهو فيما يصور نفسه يستقبل الحياة طروبا ضاحكا باسما مشرقا ويتحدث عن الدنيا كأنما قد نفض منها يده، فلم يعد يطمع فى جمال أو مال أو متاع، أو كأنما قد حيزت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر.

ويصور المازنى قراءاته فيقول «..كنت[2] أقرأ من قبل الأدب العربى وأثار الفكر الإسلامى. وباللغة الانجليزية الأدب الكلاسيكى، ولست أحب الأدب الفرنسى، ورأيى فيه أنه فصيح بليغ، ولكنه ليس عميقا كالآداب الأخرى، وقد شرعت منذ بضع سنوات أعيد دراسة الأدب العربى على نحو منظم، وليس لى طريقة خاصة، أو وقت خاص للقراءة، فكل وقت صالح

---

(١) حصاد الهشيم (٢) مجلة المصور — ٢٤ فراير ١٩٤٤

لذلك . وكل مكان أستطيع فيه القراءة ، ولو كان حماما بغير ماء ، وإنى بخلاف غيرى لاأدون ملاحظات ولا أضع علامات على الكتب . وقد بعت ما اقتنيت منها مرتين ، مرة بخسارة جسيمة ، وثانية بدون خسارة .. »

ويصور زكى مبارك أسلوب المازنى فيقول أنه « بدأ حياته النثرية بالطريقة الجاحظية ، وهى تقوم على أساس الازدواج ، وقد وفى المازنى لهذه الطريقة أصدق الوفاء ، فى أمد يزيد على عشر سنين ، ثم جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية . ثم ابتدع المازنى طريقة جديدة هى كتابة أكثر مقالاته وقت إنشائها بالمكتاب فينشىء المقال على أصوات طق . طق . طق . فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازنى الجديد يخالف بناء الجملة عند المازنى القديم فليذكر هذا التاريخ فى حياة هذا الفنان .. »

ويقول توفيق الحكيم أن المازنى يطلق روحه على السليقة « .. فهو يكتب بدون تكلف وبدون أن يراعى قول الناس فيه ، إن المازنى نفس طليقة مصبوبة على الورق فى صفاء . وليس بالنفس الحبيسة فى إطار الوقار المصطنع أمام الناس .. »

ومن أبرز جوانب المازنى ، جانب الترجمة عن الإنجليزية فهو بارع فيه إلى أبعد حد .. « لست[٢] أغلو إذا قلت إنى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر ، أديباً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، ويملك هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً ، ويجيد فيها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » .

وقد عن للمازنى فى فترة من فترات حياته (١٩٣٣) أن ينكر على نفسه أنه شاعر .. وضايق العقاد هذا فحمل عليه ..

---

(١) الرسالة ١٠ نوفمبر ١٩٤١ زكى مبارك .

(٢) عباس محمود العقاد : الاساس : ٧ يناير ١٩٤٨ .

يقول المازنى « إنى مخلص فى استضعاف شعرى أو ما كنت أزعمه شعراً من كلامى . ولقد هممت غير مرة أن أكتب نقداً له ليكف عن وصفى بأنى شاعر من لا يزالون يحسنون الظن بى ، ولكن كراهيتى له كانت تصرفنى فى كل مرة من النظر إليه .. »

ويقول العقاد « .. لم أر أحداً يجور على المازنى كما يجور المازنى على فضله وقدره ، وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله ، والاستخفاف بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر عناء ما يكتب وينظم ، وما عسى أن يكتب وينظم ، وقد تغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد فيها بما قاله فى تصغير فضله وقدره ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم وقبض الريح . »

واستشهد العقاد بكلام كتبه المازنى فى هذا المعنى وهو قوله « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالا للعمل » ثم علق على ذلك بقوله « إن المازنى يستخف بعمله لأنه يستصغر حياة الإنسان فى جانب آماد الخلود ومصائر الأقدار ، ولأنه ينظر إلى أعلى ولا ينظر إلى أدنى فيقيس ما عمل بما أراد أن يعمل » .

وقد صور « الزيات » حياة المازنى الادبية « .. عرفته فى خريف ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الإعدادية الثانوية معلمين ، وكان يومئذ فى مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الادب ، ويطرق باب الشهرة ، ويحاول هو وصاحباه العقاد وشكرى ، أن يشقوا طريقهم إلى المجد فى أرض غليظة صلدة يقوم فى بدايتها عقبتان : صاحب « الشوقيات » بشعره الرائع ،

---

(١) الرساله : ٢ سبتمبر ١٩٤٩ .

وصاحب « النظرات » بنثره البليغ ولكنهم كانوا أصحاب معول ومسطرين يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ويدنون بالتجويد والتجديد والدرس »

ووصف « الزيات موقف المازنى عندما يشتبك فى خصومة يقول « .. على أنه كان إذا أكره على الخصومة ، شديد العارضة ، حديد القلم ، يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه يالحجة » .

وكانت للمازنى فى فجر حياته الأدبية يوم أن كان يحمل المعول آراء ، ولكنه عدل عنها بعد ذلك .

وقد ظل العقاد والمازنى على صداقة الشباب ، وكانت تقوم بينهما بعض المناورات والمساجلات ولكنها كانت تمضى رقيقة هينة ، وأن اختلف المازنى والعقاد فى كثير من آرائهم السياسية والأدبية ، وبقيت كلمة « المذهب الجديد » قاصرة عليهما ، فقد كانت هناك مدرسة السياسة ، ولها اتجاهها نحو الثقافة الفرنسية ، وبقى خلاف خفى بين المدرستين ظهر حينما اشتبك العقاد وطه حسين فى مساجلة « لاتينيون وسكسونيون ، واضطرت الصحافة المازنى إلى أن يكتب دون استعداد ، يتناولها فى سرعة ، ويكتب عنها دون مراجعة أو تعمق .

وقد منحت الكتابه السياسية « المازنى » الشهرة كما منحتها لكثير من الأدباء الذين لو اشتغلوا بالادب الصرف لكانوا أقل درجة فى الشهرة مما هم الآن .

ذلك أن أدبائنا كانوا يتناولون العمل الأدبى كفرع من العمل السياسى ، ويفردون له يوما من أسبوعهم الملىء بالصراع الحزبى ، وكان لهذه الكتابات السياسية أثرها فى الأسلوب الأدبى وطريقة تناول الموضوعات ، فقد طغت السياسة على الأسلوب فجعلته ضعيفا ، ليكون قريبا إلى نفسيات الجماهير ، كما طعمته بذلك اللون الخصيم فى التعابير وأخشى أن أقول أنها خلقت الاغراق

فى الخصومة والبعد عن الانصاف ولكن المازنى ، يتميز فى هذه الناحية ، بأنه لم يكن الكاتب العنيف الثائر ، ولا المعارض الجرىء ، ولا المتطرف الذى يمسك بطرف الحبل وإنما كان هادئا ، يكتب السياسه بروح الرياضى، ويعمل فى ميدانها على أسلوب من السخريه والتهكم .

وكان المازنى ضخم الانتاج ، يكتب كثيراً ويكتب فى كل وقت ولذلك فانت لا تجد أدبه درجة واحدة فى الجودة . ولا يغض هذا من قدره ، فهو لم يتفرغ للأدب وحده ، وإنما عالج الصحافة ، والصحافة مهنة السرعة ، ومهنة الكتابة العاجلة .

* * *

فاذا ذهبنا ندرس شخصيه « المازنى » من أدبه ، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التى لاتعطى صورة واضحة .. وقد صور هذا توفيق الحكيم « . . أن المازنى أكثر الكتاب تصويراً لنفسه ولحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له . أن قدرة المازنى على الخيال والاختراع واختلاط حقه بباطله ، قد أسدل حجابا كثيفا على وجه الحقيق ، فأنا عاجز عن أن أستخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة ، التى تعج بالنساء المدللات والأوانس الرشيقات ، امرأة واحدة ، أستطيع أن أقول أنها كانت صاحبه الشأن الأول فى حياته ، على أن الذى لاشك فيه عندى ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازنى أن يكتب قصص . . »

فاذا اتصل الحديث عن المازنى والحب وجدنا قدراً كبيراً من الآثار التى تدل على الفهم العميق وعلى التأثر بهذه العاطفة وبلوغ أعلى مراتبها .

« أحببت مرات عديدة ، فأنى أبداً كما قال فى الأستاذ العقاد

أنت فى مصر دائم التمهيد   بين حب عفا وحب جديد

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لايطول إلا ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل — وما من واحدة أحببتها الا تمنيت على الله أن يهيء القدرة لاصلح بعض مالا أرضى عنه . . وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه و تعالى . حاشا وكلا . وانما هو اشتهاء الكمال كما اتصوره ولا كمال فى الدنيا مع الأسف[1] » .

ويضيف الأستاذ محمد محمود حمدان — مؤرخ المازنى — « .. على أن أهم مايذهب إليه المازنى فى فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الانسانى يتسع لأكثر من حب واحد فى وقت واحد ، أو فى أوقات متقاربة ، وأن اختلف كل حب فى القوة والنوع والوجهة[2] ..

ويؤكد المازنى أن الانسان لايعرف التوحيد فى الحب ، فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أكذوبة ضخمة وخرافة تلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب . . »

ولكن المازنى على كثرة ماأحب ، لايؤمن بأن المرأة مصدر وحى للأديب .. « . . لست ممن يقولون أن المرأة هى وحى الأديب والفنان أو العالم فان فى هذا القول مبالغة وتخليطا ، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون فى الأغلب المرأة بالمعنى الجنسى .

.. أن كل ما أعرفه فى هذا الحب ، هو أن المرأة أداة لأراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية ، ومتى استراحت الأعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب ، تيسر التفكير الهادىء المتزن ، والانتاج فى يسر وبغير اجهاد .. واستطاعت الاعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كلال أو ملل . أى أنها هذه الناحية وسيلة للإنعاش والتنشيط .. »

والمازنى على نقيض صديقه العقاد ، يؤمن بالزواج وينفر من العزوبة ..

---

(١) الرسالة — ١٢ يولية ١٩٣٧ . (٢) الرسالة — ١٢ فبراير ١٩٥٣ .

ويقول أنه لو كان أعزباً لما أطاق الحياة .

غير أن الصور الأدبية التى كتبها المازنى على هيئة قصص لا تضع أمامنا صورة كاملة لحب كبير من ذلك النوع الضخم أو العاصف الذى يكون عادة بعيد الأثر فى حياة صاحبه . وهو بطبيعته يميل إلى الانطواء والاعتكاف . ويعزو ذلك إلى شعوره بعيوبه . فقد هيضت ساقه فى شبابه فقصرت على حد تعبيره كما أنه يصف نفسه بسرعة النسيان . ولكنه لا ينسى الصور مهما طال عليها الزمن . يقول « وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أننى أنسى الأسماء أول ما أنسى حتى ليكبر فى وهمى أنه سيجىء يوم أنسى فيه اسمى . وأنا أتفاءل وأتطير وفى بيتى وجهان أكره أن أصبح عليهما أحدهما وجهى . . ويشرح صدرى جداً أن أرى الهلال فى أول الشهر القمرى ومعه شىء من الفضة . ومن عيوبى إسرافى وجبنى . فكل مال أفيده يجب أن يخلو منه يدى فى أقصر وقت وإلا شقيت واضطربت أعصابى . . » ويقول عن نفسه أنه جامد العين فما يعرف أنه بكى لحادث مهما كان خطيراً وقد سأل عن أستاذه الأول فقال أنه « الفقر » ويقول أنه هو الذى أتانى القوة والقدرة على الكفاح وعلمنى التسامح . وعودنى ضبط النفس وجنبنى أن أحترم المال لذاته » .

ويخاف المازنى الموت . وقد حاول أن يتداوى منه فنقل بيته إلى حيث أجداث الموتى وحيث كل قبر يصير قبرا مرارا . ويفزع حين يرى الشيب قد وخطه . ولا يجد له علة إلا هذه الصناعة القاسية « وأشعر كأنى شيخ هرم محطم الأعصاب مهدود الكيان . ألست صحفياً . ألا تتقاضانى هذه الحرفة التى أدركتنى أن أكتب كل يوم ولا أستريح يوما . أليس معنى هذا أننى فى كل يوم حين أريد الكتابة أقسر أعصابى على أن تكون فى حالة لم تتهيأ لها تهيئوا طبيعيا . . »

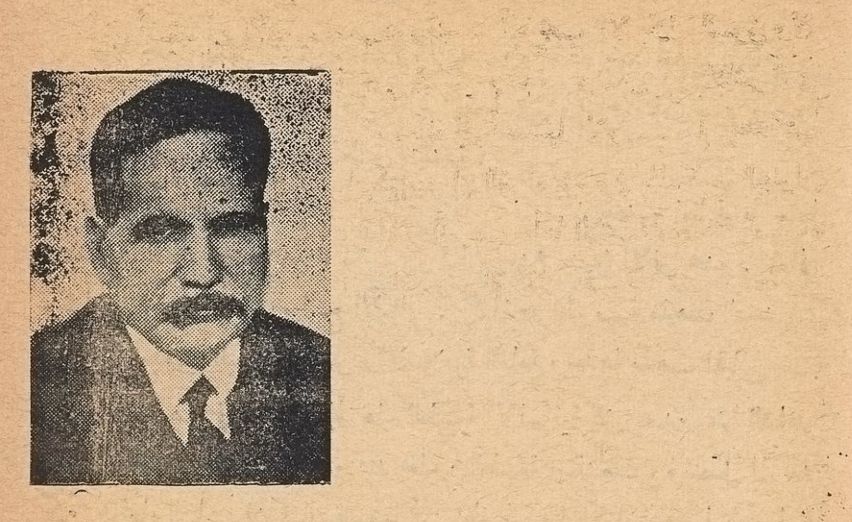
ويؤمن المازنى بأن على الكاتب أن يرضى ذوقه الفنى أولا دون أن ينظر

إلى القارىء وأهوائه . ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكاتب له من الهوى أثر ولا يزال الإنسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة .

ويعد المازنى ثانى رواد القصة الطويلة فى الأدب العربى المصرى الحديث ولم يرحل المازنى فى حياته كثيرا . وهو فى هذا شبيه بصديقه العقاد ، وفى أيامه الأخيرة كان يجلس إلى النافذة ليكتب بين السادسة والعاشرة صباحاً وقد آثر الكتابة بالآلة الكاتبة فى سنواته الأخيرة .

وبعد فالمازنى ولا شك رائد من رواد الأدب العربى المعاصر قام بدور واضح خلال ثلاثين عاما كاملة . كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى كان بعيد الأثر فى تطور الشعر العربى والنثر العربى الحديث .

اقبال



عاشوا فى عصر واحد ، بين مصر والعراق والباكستان ، فى ظروف متقاربه متشابهة ، فكانوا اعلاما على النهضة الابية فى الشرق ، وكان كل منهم قطبا فى وطنه ، أولئك هم شوقى واقبال والزهاوى وحافظ

لقد تحدث الناس فى مصر والشرق العربى عن شوقى والزهاوى وحافظ وظل اقبال مطويا عنا وقتا من الزمن ، الى ان ترجم شعره الى العربية ، والى ان ارتبطت الاواصر الفكرية والادبية بين اقطار الشرق الاسلامى بعد الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للتقارب الروحى والسياسى الذى جاء استجابة طبيعيه للتطور

ويحق لنا اليوم ان نتساءل : اين نضع اقبال بين زملائه شعراء العصر الواحد ؟

إنها محاولة لمقارنة بين مذاهب شعراء عاشوا فى جيل واحد ، وفى بيئة صبغتها اسلامية ، وروحها الوطنية كانت تتحمس للحرية وترغب فى مقاومة

الغاصب وتعمل على تحرير البلاد ، وكان هذا هو المعنى العام الذى اجتمع عليه الشعراء الاربعة فى الباكستان والعراق ومصر

لقد جمع بينهم الشرق بآماله وآلامه . وربطت بينهم آصرة الدفاع عن الاوطان والحرية المسلوبة ، فهل تراهم التقوا على اوضاع متقاربة او وجهوا قضاياهم بأساليب مختلفة وعلى طرق متعددة ؟

الحق انهم استجابوا على درجات متفاوته ، كان بعضهم فيها قويا حادا عنيفا ، وكان بعضهم هادئا فاترا ، وكان احدهم ضيق الافق محدود المعانى وكان الآخر انسانيا واسع الآمال . كانت القومية مذهب البعض ، والعربية مذهب البعض الآخر والاسلامية العامة وحدها مذهب اقبال

ويرجع هذا فى الغالب إلى هذه الطبيعة الانسانية التى يصدر عنها الشاعر او الكاتب او الفيلسوف ، وتمتد جذور الطبيعة وتتشعب ، وتتصل إلى حد كبير باتجاه الشاعر ان كان فلسفيا أو عاطفيا ، وان كان عصبيا او هادئا ويتصل هذا بثقافة الشاعر وعلمه ، وفهمه وخبرته ، ويتصل هذا بأسفار الكاتب والشاعر ، ومشاهداته ، والبلاد التى زارها

ونحن اذ نعرض هنا لشعر الشعراء الاربعة ، بعد ان أصبحوا فى ذمة التاريخ ، يحق لنا ان نتكلم عنهم فى صراحة تامة ، وان لم نطبق عليهم مقاييس البحث العلمى الحديث ، فنقول ان شعراءنا الأربعة كانوا مؤمنين بأوطانهم كل الايمان ، وكانوا يحبونها ويخلصون لها ، وانهم كانوا يصدرون عن عاطفة خالصة . غير ان هذا لا يمنع من القول بأن ظروف الحياة نفسها كانت تضع كل منهم فى الموضع الذى يتناسب مع طبيعته ونفسيته

فشوقى هذا هو ابلغ شعراء العربية بعد المتنبى ، بلا منازع ، ولكنه — وهو التركى الاصل — كانت نزعته اسلامية محدودة بحدود الخلافة التركية اذ ذاك ، وهى ابرز مظاهر شعره فى حياته الاولى ، فلما نبى تحول

حثيثا إلى الفن الخالص ، وهجر أدب المديح بعد أن أسرف فيه فى أول حياته اسرافا عنيفا ... وكان اتجاهه الاخير « تاريخيا » فقد وضع قصائد عن النبى ومسرحيات عن كليوباترة ومجنون ليلى وعلى بك الكبير .

وهو ليس واضحا فى اتجاهه الفلسفي ، وقصائده التى يمكن أن نجد فيها هدفا أو غاية: قليلة ونادرة . وقد وحالنا — ونحن هنا فى مجال المقارنة — أن نجد له قصيدة يمكن أن تعد نموذجا فى الشعر الفلسفى الذى يكشف عن مرمى الشاعر فلم نجد الا هذه الأبيات :

أمم الهلال : مقاله من صادق	والصدق اليق بالرجال مقالا
متلطف فى النصح غير مجادل	والنصح أضيع ما يكون جدالا
من عادة الاسلام يرفع عاملا	ويسود المقدام والفعالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم	وظلمتموه مفرطين كسالى
هذا هلالكم تكفل بالهدى	هل تعلمون مع الهلال ضلالا
سرت الحضارة حقبة فى ضوئه	ومشى الزمان بنوره مختالا
وبنى له العرب الأجاود دولة	كالشمس عرشا والنجوم رجالا
رفعوا له فوق السماك دعائما	من علمهم ومن البيان طوالا
الله جل ثناؤه بلسانهم	خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الاخلاق أحسنها لكم	ومكارم الأخلاق فيه تعالى
كالرسل عزما والملائك رحمة	والاسد بأسا والغيوث نوالا
عدلوا فكانوا الغيث وقعا كلما	ذهبوا يمينا فى الوري وشمالا
والعدل فى الدولات أس ثابت	يفنى الزمان وتنفد الاجيالا

وقد رأينا شوقى فى هذه الابيات التى اخترناها ، فى أهاب الشاعر

الاسلامى على النحو الذى يفهمه من الفلسفة الاسلامية فى حدود فهمه للاسلام

ومن هذه القصيدة تتكشف انا نفسية شوقى ، الشاعر الهادىء الذى يفهم الدنيا على مهل ، يفهمها على أنها « لوحة » جميلة حلوة الاخلاق والفضائل فحسب ، ويقف عند هذا لا يعدوه

أما حافظ فقد عرف طويلا بأنه شاعر البؤس أو شاعر المجتمع ، وقد غلبت النزعة الوطنية المصرية الخالصة عنده على كل شىء ! فهو شاعر مصرى قومى ، يعيش فى الأحاسيس المصرية وحدها ، ويقف من الحادثات موقف الغضب ، ولكنه اذا عرض لها فى شعره عرضها على طريقة مخففة لأنه موظف ولأنه كان يخشى السجن والاعتقال

ولذلك جاءت نزعته الوطنية القومية المحدودة ضعيفة أيضا ، وهذه صورة منها :

مالى أرى الأكمام لاتتفتح	والروض لايزكو ولاينفح
والطير لاتلهو بتدويمها	فى ملكها الواسع أو تصدح
والنيل لاترقص أمواهه	فرحى ولا تجرى بها الأبطح
والشمس لا تشرق وضاءة	تجلو هموم الصدر أو تنزح
والنجم لايزهر فى أفقه	كأنه فى غمرة يسبح
ألم يجئها نبأ جاءنا	بأن مصر حرة تمرح
أصبحت لا أدرى على خبرة	أجدت الأيام أم تمزح
أموقف للجد تجتازه	أم ذاك للاهى بنا مسرح
ألمح لاستقلالنا لمحة	فى حالك الشك فأستروح

وتطمس الظلمة آثارها فانني أنكر ما ألمح

قد حارت الأفهام في أمرهم أن لمحوا بالقصد أو صرحوا

وحافظ في هذه القصيدة صورة من الشاعر الوطني الذي يحب مصر ، ويقف شعره على قضيتها ، ويراها كل شيء عنده ، ولا يفتح عينه على أمد بعيد . وهو بعد رجل موظف — كما ذكرنا — حريص على الا يصطدم بقوات الاحتلال أو بسلطان الحكام !

أما الزهاوي فهو شاعر ثائر فيلسوف ، عاش حياته كلها في جدال وخلاف وخصام وصراع مع الانجليز والمستبدين الأتراك ، وطبيعته غاية في الحماسة والقوة ، ولكنها حماسة تنحو نحـو الوطنية العربية الخالصة ، فهو محدود بحدود وطنه وفطرته وطبيعته

وهذا هو في مفتتح العام الهجري الاسلامي يقول :

فمن لي بعام لا يشابه غيره أرى فيه أظفار البغاة تقلم

وأبخل أرض بالرجولة بقعة يضام الفتى فيها ولا يتبرم

اذا انت لم تألم من الضغط عاضبا فمن أي شيء في حياتك تألم

أدير عيوني في الوجوه فلا أرى سوى الذل مقروءا ولا أتوسم

من الناس آلاف يعضهم الطوى وفي كل ألف واحد يتنعم

اذا عجز المكروب عن شرح ما به فعل دموع العين عنه تترجم

أمن قام يشكو بثه فهو مزعج ومن قال يبغي حقه فهو مجرم

وأني لأدري وأن كنت داريا اقومي تعاموا أم عن الحق قد عموا

بني وطني لاتسكتوا عن حقوقكم أليس لكم منكم فم يتكلم

ولا خير في بدىء الفتى بجليله اذ كان عن عجز له لا يتمم

ولا فخر الا للذى هو ماجد　　ولا مجد الا للذى يتقحم

وما الحر الامن اذا ضيم لم يلن　　وان قال حقا فهو لا يتلعثم

والشاعر هنا وفى كل شعره عاطفى حماسى حاد العاطفة ، ولكنه محدود بالاستعمار وحده ، كل فلسفته تدور فى الأفق الضيق ، أفق التحرر من كل طغيان أو ظلم

أما فهم أقبال للاسلام فيختلف اختلافا بعيداً عن فهم شوقى له ، وفهم حافظ للوطنية ، وفهم الزهاوى للعروبة الحرة . ولن أصور لك مذهبه حتى أضع بين يديك شعره ثم نعقد المقارنة بين الشعراء الأربعة على نطاق واسع .

يقول اقبال :

ليس العاشق من يحرك شفتيه متأوها من الحب .

ان العاشق هو الذى يحمل العالم على كفه .

هو الذى يخلق عالمه بنفسه .

ولا يرضى بغير المجد .

كن مهيبا واحرق القش .

ما سوى الله باق .

أنت مسلم فعمر قلبك بالأمانى .

واجعل شعارك فى كل زمان الا تخلف الميعاد .

اعتمد على نفسك ، ولا تشتك من العالم .

لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك .

أنظر الى نفسك .

فان قوة الطوفان كامنة فيك .

ان المسلم لا يعبد أحدا سوى الله .

وهامته لا تنحنى لاى فرعون على الارض .

ما الذى أباد استبداد كسرى وقيصر .

لا تزين مقامك على الشاطىء لان هناك فى الاعماق صوت الحياة .

فغص فى البحر ، وصارع الامواج ، فان خلود الحياة فى الجهاد .

ان نسبك أيها المسلم هو الدين .

ان العدة التى يمكن أن يفتح بها العالم .

لو تعلم فتلك هى القرآن وانه فى حوزتك .

أن اجتماع أولئك بالبطش والقوة .

أما اجتماعك فمستحكم بقوة الدين .

ان شعبكم متماسك بقوة الدين ، فاذا ذهب الدين ذهبتم .

* * *

هذا « اقبال » الشاعر الفيلسوف المؤمن ، الذى يفهم الاسلام فهما واسعا ، ويحب القرآن حبا كان بعيد الاثر فى نفسه وشعره وحياته ..

أنه يريد أن يعطى المسلم فى الشرق روح القوة ، ويريد أن يحمله على أن أن يرفع رأسه ويكون المجد ويصنع التاريخ الجديد .

انه أدب القوة يتمثل فى شعر اقبال ، فى صورة واضحة قوية .

ونحن نسأل الآن : لماذا اختلف اقبال عن شعراء عصره ؟

والجواب أن شوقى وحافظ والزهاوى استجابوا للصراع بين أوطانهم والمحتل وصوروا هذا الصراع ، اما اقبال فقد سبقهم خطوة أبعد ، لقدأراد أن يصنع مابعد التحرر من الاستعمار ، لقد أراد أن يضع الفلسفة الايجابية

لمقاومة الاستعمار والاستبداد ، آمن بفلسفة جديدة رآها المخرج الوحيد للشرق من آلامه ومتاعبه ، وهذه مرتبة لم يصل اليها شوقى أو حافظ أو الزهاوى !

لقد عرف شعراؤنا الرحلة والاسفار ، سافر شوقى واقبال الى أوربا وسافر حافظ الى السودان وسافر الزهاوى الى تركيا ومصر .. واتصل شوقى واقبال بالحضارة الاوربية فى أرقى مظاهرها ، والثقافة العربية فى أروع آثارها ، غير أن كلا منهما استجاب لها على صورة خاصة ، ومضى فى اتجاه يختلف عن اتجاه غيره .

أما شوقى فأحب هذه الحضارة وأعجب بها وأقبل عليها وارتضاها لمصر والشرق ، وأما اقبال فقد أقنعته الحضارة الاوربية بأن الشرق مصدر النور وبذلك جعلته يؤمن بنفسه وبلاده ، وأمدت مذهبه الفلسفى بتلك القوة التى دفعته الى أن ينشىء للشرق طابعا خاصا ، ويأخذ خير ما فى حضارة أوربا فلا يتورط فيها ولا يتجاهلها

نشأ شوقي واقبال فى بيئة الترف والقصور ، أما شوقى فظل متصلا بهذه البيئة فتمثلت فى شعره صور الارستقراطية ، وأما اقبال فقد نقله فهمه للاسلام الى نوع من الاعتدال والوسط فعبر عن روح الشعب وآلامه !

وعاش شوقى وحافظ الزهاوى يمدحون أصحاب السلطان ويهجونهم ويكتبون المراثى .. ويكتبون شعر المناسبة العابرة ، أما اقبال فقد سما عن المدح والهجاء ، وترفع عن كل شىء عابر ، ومضى راسا الى رسالته

كان شوقى وحافظ والزهاوى يكتبون شعرا عن الاسلام ، لكنهم يختلفون فى اساليبهم عن اقبال .

وكان شوقى يؤمن بالروحية ، ويتحدث عن المسيح ومحمد وموسى ،

ويمدح النبي ، ولكنه يفهم الاسلام على صورته التقليدية ويؤمن به على الأسلوب الموروث .

أما حافظ فقد كان الاسلام والدين فى شعره يسيرا عاديا . أما الزهاوى فقد كان ينكر الاسلام فى صورة المسلمين ، ويراه على الصورة القائمة عائقا عن الحرية والنهضة ، ولكنه اكتفى بهذا الاتجاه السلبى ، فاذا حاول التوجه اندفع وراء بريق الحضارة وأسرف فى تأييدها .

أما اقبال فقد كان يختلف اختلافا كاملا عن هـذه الصور ، كان خالصا للاسلام ، متجردا له ، وقد ابتدع أسلوبا جديدا فى فهم النهضة واليقظة التى يجب أن تظهر فى الشرق .

لم يكن اقبال شاعرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ، واضح المعالم ،وكان سياسيا قوى العارضة ، ولسنا الآن فى معرض الحديث عن نضاله وكفاحه الوطنى والسياسى ، ويكفى أن نقول ان اقبال يتميز عن شعراء عصره وجيله . بالهدف المحدود . والتفرد برسالة خاصة كاملة . عاش لها واستصفى لها فنه . وفكره . ووقف عليها عمله . وترك بها للشرق منارا ما زال يضىء وسيظل يضىء ما بقى الشرق والاسلام .

آمن اقبال بأن الشرق قد تجنب الطريق السوى الذى رسمه له الاسلام . هذا الطريق الواضح المبسط . وآمن بأن الانسانية غرقت فى فلسفات معقدة مضطربه . هى جماع منوع لا يستقيم على وضع محدد

وكان على يقين من أن الشرقيين قد أنكروا ذاتهم ووجودهم وأغرقوا فى الايمان بفلسفة القضاء والقدر . وآثروا النوم والتواكل فى الوقت الذى غرق الغربيون فيه فى لجة من الشك والفساد والانحلال .

فكان لابد للشرق من دعوة الى اليقظة . وكان اقبال قد وطن نفسه على

هذه الدعوة . ومضى اقبال يدرس . درس تعاليم « نيتشه » في السوبرمان و « برجسون » في التطور المبدع وكانت « في النقد » ، وقرأ جمهورية أفلاطون ، وطالع أدب الفرس . وقرأ شعر حافظ الشيرازى . وأعجب بمذهب جلال الدين الرومى . ثم قرأ القرآن فى حدود القاعدة التى وضعها له والده « كأنه أنزل عليك » ، وأعجب بالغزالى وأحب مذهبه فى تهذيب النفس وتثقيفها .

وأقام من خلاصة هذه المذاهب والدراسات . مذهبا جديدا . يستمد من الاسلام والروحية قواعده . وأضاف خير إليه ما فى الحضارة الديمقراطية والثقافة الغربية . فأنشأ فلسفة متفائلة باسمه . كلها ايمان وبناء وقوة . وقال انه ليس للاسلام أى حدود مكانية . أو نهايات زمنية . وان الاسلام بذاته وطن المسلمين قبل أوطانهم . ودعا الى « معرفة النفس واطلاق قواها . وأخذها بالتربية والتوسيع . تربية تقوم على أساس التحرر من كل قيد » .

وعارض أفلاطون الذى كان يقول ان غاية الانسان الموت . وقال ان غايته هى الخلود . وأوضح الفرق بين ديمقراطية أوربا وديموقراطية الاسلام وقال « ان أوربا أنشأت ديمقراطيتها من التجديد الاقتصادى للهيئات الاجتماعية ولكن نيتشه على حال كل ينكر حكومة الجماعة . ويؤسس جميع الثقافات العالية على ظهور وتثقيف « سبرمان » ولكن هل العامة حقا موضع القنوط . ان الديموقراطية الاسلامية لم تنشأ من تحديد الفرص الاقتصادية . بل هى مبدأ روحانى معناه الاعتراف بأن كل انسان مركز للقوى الخفية التى يمكن أن تكشف امكانيتها بتربية طراز خاص من الاخلاق والسجايا . وبناء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثل العليا فى الحياة والقوة ... أو ليست اذن الديمقراطية الاسلامية فى القرون الأولى الا دحضا عمليا لأفكار نيتشه ؟ » .

وكان يقول « ان قوة الغرب ليست في الصنج والرباب والرقص الخليع وليست فى سحر الوحدة المتألقة ... وليست فى الاتحاد ونبذ العقيدة . انما قوة الغرب فى العلم والفن وفى مشاعل الثقافة المضيئة . وليس فى استبدال زى بزى أى حكمة . وليس اللباس القديم بمانع من العلم والفن »

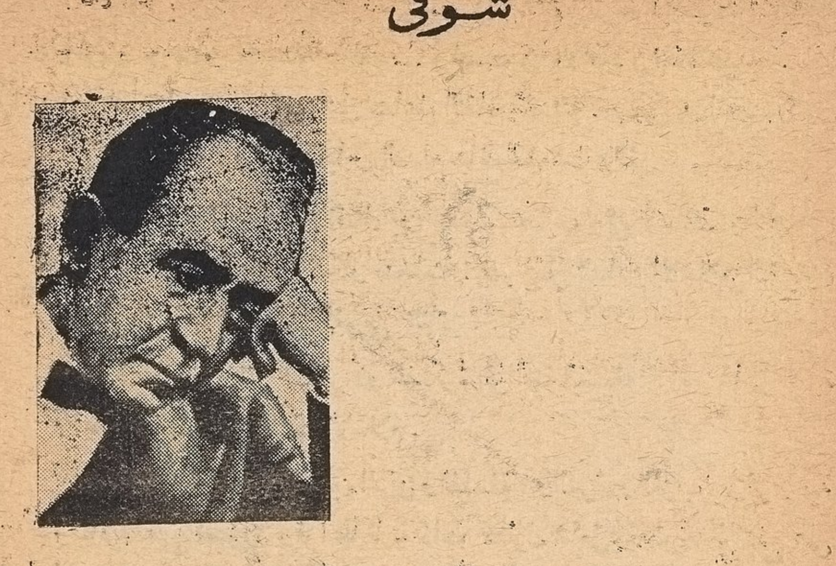
وغاية القول أن مكان اقبال بين شعراء عصره شوقى وحافظ والزهاوى مكان مرموق . لا يمكن انكار ضخامته . فهو ليس الشاعر الاسلامى التقليدى ولا الوطنى المحدود . ولا القومى الثائر .

وانما هو ذلك الشاعر ذو الفكرة الواسعة العميقة . هو شاعر القوة والحق والحريه كما جاء بها الاسلام .

ورسالته هى أن يربط بين الدين والفلسفة . والشرق والغرب . والروحيه والمادية على أصول وقواعد ثابتة ذات مدلول شامل . توجه المجتمع على أساس روحى . وتفتح أمام الشرق باب الأمل فى مستقبل ضخم كريم . وحضارة عالمية ترمى الى تحرير الفرد والمجتمع

وهذه كلها معان بعيدة جدا عن آفاق شوقى وحافظ والزهاوى . الذين عاشوا فى المحيط الضيق . والحياة العابرة . وعرفوا الفن الذى لم يعرفه اقبال فن المديح اوخير ما نختتم به البحث أن نورد كلمة أحد زعماء الهندوس فيه وهى قوله « ان اقبالا قد وضع المصباح على باب السلم . ولم يحجب نوره عن غير المسلمين . بل استطاع الجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح » !

شوقى



لست أدرى هل كان يصل شوقى الى ذروة الكمال الفنى لو لم يتح له أن ينفى ويقضى فى الأندلس خمس سنوات ثم يعود خلقا جديدا . وقد بعد عن القصر أو كاد . ومضى يشق طريق العمل الفنى الخالص حتى اذا ارتفع به السن أوفى على قمة المجد بأن ابتدع هذا اللون الجديد من الشعر التمثيلى الذى لم يكن معروفا من قبل فى اللغة العربية .

والحق أن نفى شوقى هو أخطر حادث فى تاريخ حياته كله . أثر فى مجرى ادبه وفنه وشخصيته جميعا . وقد أجاب عن ذلك فى الهلال (عدد نوفمبر ١٩٢٩) قال : اذا عزى الى الحرب الكبرى — يقصد الأولى — كثير من التغييرات والانقلابات فى انظمة العالم وشئونه الاجتماعية والأدبية فانى اغزو اليها هذا الاثر العظيم الذى احدثته فى مجرى حياتى . وكان له فضل كبير فيما نلته من مكانة فى الادب . وامتلاك لناصية الشعر العربى .

ذلكم انه لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد وانضمت تركيا إلى الالمان عمدت انجلترا إلى قلب نظام الحكم فى مصر . وأعلنت انتهاء حكم الخديو عباس حلمى الثانى . ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به ، فأمرتنى بالرحيل إلى اسبانيا . فجمعت عائلتى . واصطحبت مكتبتى وسائر مرافقى . وغادرت مصر الى برشلونه . وهو ثغر على شاطىء البحر الأبيض يشبه مرسيليا فى المدنية ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضاره العربية فى عهد الدولة الاندلسية . فادخلت أولادى المدارس الراقية ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى فى غير أوقات النزهة ومشاهدة السينما فاستوعبت منها مالم اكن قد استوعيت وطالعتها كلها حتى اكاد أقول انه ليس فى الأدب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنتين التى مكثتها باسبانيا .وقد ساعدنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى ضواحى الاستانة فى رشاقتها ونظامها .

فى هذا الجو . وفى ذاك الوسط الكريم . نشأت نشأة اخرى فى الأدب العربى . واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام . وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم افز بها من قبل ... »

* * *

ويأتى بعد هذا فى حياة شوقى ذلك التحول العجيب فى فن الشعر نفسه فهذا الشاعر الذى قال فى شبابه نهج البردة وشعر المديح للرسول سائغا شفافا وكانما استمده من صوفيه عميقة وايمان خاشع . هو الشاعر الذى قال فى سن الستين هذا الشعر الغرامى والوجدانى والعاطفى الرائع . وهو الذى صور حب كليوباترة وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلى . واستطاع أن يصل

إلى اعماق العاطفة الحنونة المحرومه وهذا الهيام فى الفلوات والبيد .

ولعل هذه الظاهرة الغريبة لم تكن موضع عناية كثير من الناقدين أو المؤرخين . وهنا نطرح سؤالا بالغ الاهمية فى حياة شوقى وفنه ؟

هل يمكن أن يكون شوقى قد وصل الى هذا الابداع فى وصف الحب دون ان يكون قد ذاق الحب . ؟ الحق أنه ليس بين أيدينا ذلك الدليل المادى الواضح . وقد ذهب الكثير من النقاد إلى أن تصوير شوقى للحب انما هو لون تقليدى لا صله له بحياته ولكنى لا أرى هذا الرأي . وانما اعتقد موقنا بان شوقى عرف الحب فى صور مختلفة واتيح له ان يشرب من هذه الكاس وانه حرم كثيرا وامده هذا الحرمان بهذه الصور من اللوعة والشوق التى تبدو فى ثنايا شعره الوجدانى . ولعلى لا ابعد عن الحقيقة اذا قلت ان شوقى قد عرف فى الاندلس وجوها . تقبض بالجمال ونفوسا تفيض بالحنين إلى أصلها العربى .

وهنا فى القاهرة فى هذه المغانى التى كان شوقى يغدو اليها ويروح . كم من وجه وسيم وروح نبيل هفا نحو الشاعر الذى كان موضع الاعجاب والتقدير فى كل ندوة أو ناد وهناك فى باريس حيث قضى الشاعر شطرا من شبابه وعاد اليها مرات . هل تركته مدينة النور دون أن تأخذ منه خفق القلب ووجيب الضلوع ..

إن شوقى يسجل فى حديثه عن الاندلس هذه العبارة التى تحمل الف معنى « هذا الى اخلاق الاهالى التى تميل إلى الاخلاق الشرقية العربية مما جعل بينى وبينهم الفة حسنه »

أليست الالفة نوع من الحب . ويقول الأستاذ حسين شوقى فى مقاله « ابى فى الأندلس » على اثر زيارته للاندلس « .. وذهبت فى الليل الى (البراللو) وهو حى برشلونه الفنى كالحى اللاتينى فى باريس . وكان مشهوراً بجوه المرح

وكان ابى يذهب هناك احيانا . اذ كان يسر للمناظر البوهيمية التى تشاهد فيه .. »

فاذا قبل فى الرد على هذا ما قاله بعض النقاد « ان أول ما تلحظه على « مجنون ليلى » الذى صنعه شوقى البرود والركود . وانك لا تلمح مرة واحده فى مجنون ليلى تلك الحركة اللاعجه ولا تلك الثوره العاصفة » قلنا أن مجنون ليلى شوقى فيه من عمق الحب قدر ليس بالقليل . ولعل عذر شوقى انه صنع هذه الشخصية بعد الستين ويكفيه فى هذا السن أن أحيا ثورة الحب على هذه الصورة الرائعة .

ولم يكن من اليسير على شوقى — وهو فى مثل وصفه ومركزه وفى هذه الفترة من التاريخ بالذات — ان يجهر بالحب الا فى صورة قصص مسرحية أو أغنيات لها مناسبتها وطابعها .

ولا يبعد أن يكون شوقى قد أحب مع ارتفاع السن . وهذا النوع من الحب بعيد الأثر ولعله هو الذى دفعه إلى ان يغلفه فى صورة قيس وفى صورة انطونيو اذ لم يكن من الميسور له أن يكشف عنه فى صراحة ويجهر به . وقد عرف هذا اللون فيكتور هيجو وجوته . ويقول مؤرخه أحمد محفوظ انه « لم يعرف اللوعة فى الحب قط . وإنما هى رغبات عاطفية كان يستعين عليها بماله . ثم ينصرف عنها . وكان لايدخر مالا فى سبيل الوصول إلى غاياته ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدله بها ولا ننكر عليه أنه أحب ولكن حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصول » .

وهو فى هذا الميدان أقوى من البارودى . وانفذ فى تصوير العاطفة واشاعاتها المشرقة القلقة . وان كان يبدو أن شوقى لم يعرف لوعة الحب او حرمانه على الصورة العاصفة . ولعل هذا مما يجعلنا نظن أن هذا الحب جاء متأخراً قليلا .

وقصيدة شوقى التى صور فيها انطواء صفحة شبابه كان ابرز ما فيها حزنه عن الحب :

شيعت أحلامى يطرف باك ولمحت من طرق الملاح شباكى

ورجعت ادراج الشباب ووردة امشى مكانهما على الاشواك

وبجانبي واه كان خفوقه لما تلفت جهشه المتباكى

وتعطى أثار شوقى صوراً للعاطفة متناثرة منوعة . وقد غلب فيها جانب التضمين على جانب التصريح ولكن قصيدته هى التى نظمها فى لبنان عام ١٩٢٥ لايحتاج إلى دليل فهى صريحة تخفف فيها الشاعر من وقاره وغلب عليه لون من التحرر غير معهود فى قصائده وهذه أبيات منها :

واغر كحل من مها « بكفية » غلقت محاجره دمى وعلقته

لبنان دارته وفيه كناسة بين القنا الخطار خط نحيته

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فاتيت دون طريقه فزحمته

فازور غضبانا وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته

فصرفت تلعابى إلى اترابه وزعمتهن لبانتى فاغرته

فمشى إلى وليس أول جؤزز وقعت عليه حبائلى فقنصته

قد جاء من سحر الجفون فصادنى واتيت من سحر البيان فصدته

* * *

كان شوقى قليل الكلام . ولم يكن ممن يتصدرون المجالس . بل كان منطويا يوجز القول ويطيل الصمت . وكان من حوله يهابونه ويتكلمون معه

فى حذر ولا يرى شوقى استاذاً له غير اسماعيل صبرى . ولم يذكر شاعراً فى أعجاب كما ذكر المتنبى اذ كان بفضله على جميع شعراء العربية وقد عارضه كما عارض أبى العلاء .

ولقد ولد بباب اسماعيل(١) وعاش فى ظل الغنى واليسار . فلم يتصل فى كثير ولا قليل بالشعب ولا بالحياة العامه . وقد شغل شوقى نفسه .
فى فجر حياته بمديح الملوك والخلفاء . ثم تحول إلى مدح الرسول وصاغ فى ذلك قصائد غاية فى الروعة والقوة وقد كان ازدوار شوقى عن المجتمع واعتزاله وحياته المترفة هو المغمز الذى غمزه به نقاده لانه عجز عن مشاركة الشعب فى آلامه . غير أن شوقى لم يلبث أن خرج عن شعر القصور والمناسبات بعد عودته من المنفى . وعندما اكتشف شاعريته وآمن بها .
ويروى لطفى السيد فى حديث للدكتور طه حسين قوله « كنت التى حافظ أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيرا من شعره فلا يعجبنى فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله شاعراً ولكنه لم يقبل نصحى وحسنا فعل فما زال يكدح حتى أرغم الشعر على أن يعنوا له ويصبح شاعراً وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى اقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة واثنى عليه كلما لقيته فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الأخير .

قال انطون الجميل انه لم يشد الى فيثاره الشعر وترا جديدا ولكنه عرف كيف ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبه . وأوتار العودة معدودة وهى عدا ونوعا ، تحت أنامل العازف . وهكذا كانت أوتار الفيثاره القديمة فى يده ، تخرج الحانا مستجده من كل موضع .. »

وقال خليل مطران « ان شوقى لا يكد فكره فى معنى أو مبنى وكثيرا

(١) وتوفى فى ١٣ اكتوبر ١٩٣٢

ما يعارض المتقدمين ولا يعسر عليه أن يبذهم . وشعره هو شعر التفوق والعبقرية » .

وقد وصف النقاد طبيعة شوقى بأنها طبيعة معقده وردوا ذلك إلى أن فيها من الترك واليونان والشركس(١) ، وأن كل هذه الاثار وما فيها من طبائع اصطلحت على تكوين نفس شوقى . هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الاشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة . وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبه كاشد ما يكون الخصب غنيه كاوسع ما يكون الغنى ..»

واجمع النقاد على وصفه بأنه أعظم شاعر فى العربية بعد أبى الطيب المتنبى .

وقال عبد العزيز البشرى فى وصفه بأنه مفرط فى حب نفسه . شديد الولع بها . مفرط فى حب بنيه . شديد الولع بهم . وانه بعد ذلك شديد الرقة للناس جميعا . اضعفه الحب وفل من عزمه فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما ولا يستطيع أن يسمع قصيدة حزينة . ولو قد عرض لسمعه أو لبصره شىء من هذا لولى منه فراراً . ولملىء منه رعبا . وهو ولوع بنفسه هيوب من أن تعتريها الايام بمكروه. »

وقد كان شوقى يجود بشعر الحكمة يطلقه على سجيته دون تفكير وعلى ما كان عليه من بلاغة القصيد . لم يكن يلقى شعره أو يجيد الحديث فى مجالسه فكان قليل الكلام كثير الاطراق . وغلبت عليه النزعة الدينية القدرية وبدا حبه لال البيت واضحا فى قصيدة . كما بدت عاطفته للشرق والاسلام والعروبة ظاهرة فى اثاره حتى كان شعره فى سوريا وقوداً للثورة السورية بشهاده السوريين أنفسهم .

---

(١) طه حسين .

وقد وصف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص طريقة نظمه للشعر فقال « لقد لازمته فى ليله فى بوفيه « دى لابرد » على كوبرى قصر النيل وكان ذلك قبل الحرب فشرع يعمل فى قصيدة النيل التى مطلعها

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق

وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيل ويسير فى الجزيره بضع دقائق ثم يعود إلى المنضدة التى كان يجلس عليها فيكتب عشره أو اثنى عشر بيتا ... وهكذا انتهت القصيدة فى ليلة الا بيتا استعصى عليه ولم يتمكن منه الا بعد يومين ..

« ... وكان إذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب اليه عملها . ولم يتذكرها الا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ابتسم وطلب ان يتناول صفار ثلاثه من البيض التى يشربها نيئه . ثم يبدأ فى النظم فلا تمضى ساعة حتى يتم القصيده[1] ..

وكان يملى فى رواياته الاربع : قمبيز وعلى بك البخيلة وهدى فى وقت واحد ويشهد الدكتور طه حسين بأن شوقى أدخل فى اللغة العربية وفى الشعر العربى خاصة بهذه الروايات فنا جديداً لم يسبقه أحد اليه وهو فن التمثيل الشعرى .

* * *

خرج شوقى من القفص الذهبى عند ما قال قصيدته التى نفى من أجلها ..

---

(١) وصفه أحد أصدقائه بانه كان يفيض فى شئون من يجلسون معه « حتى نحسبه أحدنا . ثم ينقطع كل هذا فجأة ويرجع الى نفسه فيصبح ليس معنا فهناك تسمع غمغمة كأنها آتية من غور بعيد ثم لايزال بعد ذلك يمسح على جبينه بيده ثم يهب واقفا ويتركنا من غير أن يبتسم أو يسلم .

ولم يعد اليه مرة أخرى ولعل قصائد شوقى عن المنفى هى أصدق قصائده تصويراً لاحساسة ومن أدقها تصويراً قوله :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ماله مولعا بمنع وحبس
أحرام على بلابله الروح جلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالاهل الا فى خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

ويصور انقباض الناس عنه قبيل منفاه :

شكرت الفلك يوم حملت رحلى فيا لمفارق لشكر الغرابا
فانت أرحتنى من كل أنف كانف الميت فى النزع انتصابا

أضف إلى ذلك قطعته النثرية عن قنال السويس فهى فيض نفس ملئت بالاسى والحزن والشعور بالظلم .

وقد سبق شوقى اترابه حافظ والبارودى بالشعر الغنائى والمسرحى الذى تفرغ له فى آخر أيامه .

ويلتقى شوقى مع البارودى فى الاتجاه الروحى فكلاهما قد نظم بردة البوصيرى وصور عاطفته فى حب الرسول .

وكان حافظ وشوقى فرسا رهان . فقد ظلا يتصارعان حياتهما حتى إذا جاء الموت ، قضيا فى عام هو عام ١٩٣٢ الذى غيب الشاعرين فى التراب .

وكان حافظ يحس بقوة شوقى وعظمته فيذعن ويبايع له فى مهرجان (٢٩ ابريل ١٩٢٧)

أمير القوافى قد اتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فلما توفى حافظ فى حياة شوقى نعاه على هذا الاسلوب من الإيثار

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يامنصف الموتى من الأحياء

واتصل شوقى وهو فى المنفى بحافظ يقول :

ياساكنى مصر انا لانزال على   عهد الوفا وإن غبنا مقيمينا

فرد عليه حافظ يقول :

عجبت للنيل يدرى أن بلبلة   صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

. . . وكانا مع ذلك مختلفين أبعد اختلاف . كان منهجهما متباينا . أما حافظ فكان فى أول أمره قويا غاية القوة ، كان شاعر الشعب والمجتمع ولما عاد شوقى من منفاه تحول ومضى يخطو فى قوة ويقفز . حيث بقى حافظ جامداً . والتهم شوقى فى منفاه كل اثار العرب ولم يدع كتابا لم يقراه . فاضاف ذلك الى شخصيته الادبية قوة عارمة . فى الوقت الذى كان حافظ يقضى لياليه سميرا يتوسط المجالس وينثر الفكاهات والأحاديث . وبيته لامكتبه فيه الا بضعة أجزاء من الأغانى . وإن ظل حافظ يبهر الناس بطريقة القائه ضيف الى معانيه قوة . وروعة بصوته المليء ونبراته الجهيرة .

يقول المازنى « وأنا أعتقد أن شوقى مدين لخليل مطران بأكثر مما يعرفه الناس — ولا سيما فى صدر حياته — فان خليل مطران هو أول من أدخل شيئا من التجديد على الشعر فى مصر وتبعه شوقى حينا » وروى طاهر الطناحى أن حافظ قال فى بعض مجالسه « والله أن لشوقى لشاعر وانه لاشعر منى . أقررت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى . ولا أريد أن أكفر بها فى شيخوختى .

وقد وصفه الموسيقار محمد عبد الوهاب بانه « كان مرهف الحس لدرجة أنه يشعر بالكوارث قبل وقوعها فيداخله الخوف . فمثلا كان لايعبر طريقا إلا إذا كانت السيارات القادمة تبعد بمسافة كبيره . وكان أيضا يخاف الناس

فاذا اندفع اليه شخص ارتعش واضطرب ، ويضاف إلى هذا أن شوقى كان يحب الحياة حب جما ويكره الموت ويخافه .

* * *

وبعد فقد كان شوقى يغار على شعره ويكره النقد وينفر منه وله فى ذلك قصص ويبدو أن هذه كانت طبيعته .

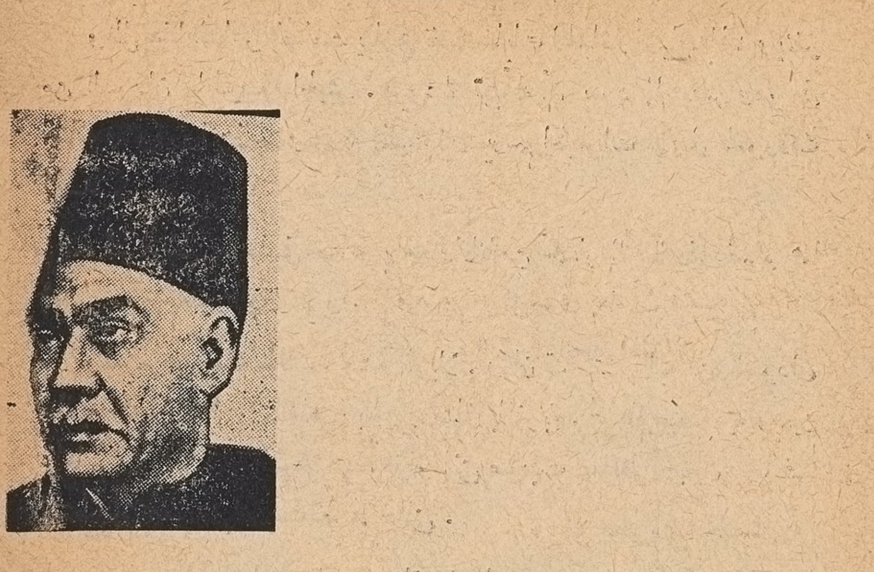
وقد حمل عليه العقاد والمازنى وطه حسين . ثم تحول المازنى وطه عن رأيهما وبقى العقاد على رأيه . وهاجم هيكل شوقى بعد أن كتب مقدمة الشوقيات وهو بهذا الهجوم قد تحول عن رأيه الذى أعلنه فى المقدمة .

وغاية القول أن شوقى جمع فى شعره بين النواسى والمتنبى على فترات حياته فى شبابه والثانى فى شيخوخته . محاولا أن يكون شاعر الحكمة وشاعر الحب والجمال ولكنه مع ذلك كان نسيجا وحده يمثل عصره وشخصيته .

ولقد اتيح لشوقى بعد وفاته أن يمعن فى السير قدما فى طريق الخلود بعد أن جرى مجرى الغناء وانتقل الى الالسنة التى لم يكن من اليسير لها أن تطالعه أو تلم به فى دواوينه .

وقد أكسب هذا شوقى بعد أن أمعن فى طريقه إلى جوار الله بريقا ولمعانا أضفيا على شعره قوة جديدة ومهد له سبيل الخلود على نحو لم يكن ميسوراً فى حياة الشاعر .

حافظ



الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط . وعاش حياته أعزبا منطويا على نفسه فى دار الكتب عشرين عاما بعد أن عاد من السودان . كان خلالها مقيداً بقيود الوظيفة لايستطيع أن يقول أى شىء ...

نشأ فى بيئة شعبية ، ومات والده صغيراً ، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصه ردحا من حياته .

عاش(١) حياة الناس واضطرب فى بيئاتهم . وخبر آلامهم واحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم .

ولد وفى نفسه تلك الجذوة الشاعرية الملهمة الفياضة ولكنها ظلت خافتة نائمة لأنه لم يكن قد آن وقت ثورتها . وأغلب الظن أن حافظ قد حبس لها وجمع

(١) جريدة القاهرة ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ عن مقال للمؤلف

ما صادفه من الوان التأمل والدرس فى أناه واصطبار .

وظل هذا الشاعر الصامت ينازع نفسه غايات الحياة وأسباب المجد وينفر من السودان والحرب والجيش . ويود لو تهيأ له أن يعود إلى مصر وهو فى حنانه وشوقه وانزعاجه وثورته إنما كان يرسم الخطوات الأولى نحو ذلك المجد .

وقد اتصل حافظ فى حياته برجلين كانا من كبار الرجال فى عصره هما محمد عبده وسعد زغلول .

واستمرت صلته بالشيخ عبده طويلا . وكان قد كتب اليه من السودان يطلب منه أن ينقل إلى القاهرة بعد أن ضاق بالغربة . ثم ظل متصلا بهأربعين عاما . وقد اثر عن الشيخ عبده قوله اننى صحبت حافظ أربعين عاما فلم استطع أن أهديه ولم يستطع أن يضلنى .

ومعنى هذا أن حافظ على صلته القوية بالشيخ عبده لم يتأثر به ولم يستفد منه . وفى حياة حافظ عقدة غير واضحة.ولم يستكشف بعد . فقدكان نواسيا إلى أبعد حد . وقد حوى ديوانه بعض قصيده فى مناجاه الغلمه والخمر . وقيل انه تزوج ثم طلق بعد أربعين يوما وعاش بعدذلك أعزبا ما بقى من حياته .

فاذا أردنا أن نعرف أثر المرأة فى أدبه وفى حياته شق علينا ذلك ولم نجد السبيل اليه إلا فى بعض أبيات كان يفتتح بها قصيدة وفق ذلك الأسلوب التقليدى فى الاستهلال بالنسيب .

ويعد هـذا الجانب من أغمض الجوانب فى حياته . ولم يتناوله أحد من الذين كتبوا عنه ولم يلق عليه أى ضوء حتى ليمكن القول بأن حافظ كان بعيدا عن محيط المراه وانه لم يعرف الحب ولا هذا اللون من العاطفة . ولعل مرجع هـذا الضيق والبؤس واضطراب الأعصاب يكون نتيجه لهذا

الازورار عن هذا المعين الروحى الفياض !

* * *

وقد وصفه عبد العزيز البشرى[1] بأنه خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث حاضر البديهة رائع النكتة « اذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تقطعت جداوله . وهتفت على أغصانه بلابله » .

« وهو أجود[2] من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطا مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء على انه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الالف جن جنونه أو ينفضها فى يوم إذا استطاع . . ثم هو مابرح يطلب البؤس طلبا و يتفقده تفقداً . . .

« وهو ضيق الطعن قليل الصبر سريع الغضب . له صوت جهير ضخم ، رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات . . »

ويرى خليل مطران أن حافظ يجيد الرواية من قصائد العرب وإذا فاته الابتكار فى المعنى فانه لايفوته فى التصوير . « وهو مؤثر فى شعره السهل الممتع . وقد اتخذ أسلوبا جعل الشعر قريبا إلى اذهان الجمهور وأذواقه وشعره هو شعر البيان الناصع » .

وقد وصف نفسه بقوله « هناك عوامل تجعلنى أجيد الشعر وهى أن أكون فى حالة من الشجن تجاوز الحزن أو أكون متعجلا مضطراً . أو أكون فى أرق . أما الصفاء والأنس والفرح والسير فى الرياض وعند الماء والشجر

---

(١) توفى حافظ فى ٢١ يوليه ١٩٣٢

(٢) روى مطران فى الهلال أن حافظ كان كريما في بيته مضيافا .

فيحدث فى نفسى حالات لا تواتينى على النظم . فانا لا أجيد القصائد فى التهانى نفسها إلا وانا حزين . وإنى اؤمن بأن لكل شاعر شيطانا لأنى أكاد اسمعه يهمس فى اذنى المعنى وأحيانا ينصرف فيغلق على . وأنا اقيد همساته . بيت أكتبه فى القهوة واخر أكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا أحادث الأصحاب :

وأكبر عوامل الافساد للشعر أن يطلب منا الشعر » .

وأحب قصائده إليه غادة اليابان وقصيدة أوجينى وذلك لسهولتهما « لأن السهولة عندى مبدأ من مبادىء الشعر وكثيرا ما يخطر لى المعنى الجليل فاتركه لأن الألفاظ لا تواتينى » .

وكان يردد أمنية غالية اذا هيىء له العمر . ان يحذف من ديوانه الشعر التجارى فهو كان يعترف بأن فى شعره جانب غث يجب أن يطويه عن الناس وكان أفضل الشعراء عنـــده أبو نواس . ثم البحترى وأبو تمام « واست أحب المتنبى ولكنى احترمه وآخذ البحترى بالحضن . وأحب الجاحظ وأحب الأغانى » وقد حفظ فى شبابه قصة عنترة التى يرويها شاعر الربابة . ولحافظ قصيدة فى ثلاثمائة بيت انشأها فى هجاء صدقى وعهده لم يعثر عليها كاملة .

ويلتقى البارودى مع حافظ فكلاهما دخل المدرسة الحربية وانتضى السيف وأحب الشعر وأوغل فيه . غير أن البارودى اشتغل بالحرب فكان جنديا شجاعا عاملا . وظل كذلك إلى آخر حياته . أما حافظ فقد هجر الجندية بعد وقت قصير وآثر عليها حياة الموظفين فى نوادى القاهرة وسهرات قهوة متاتيا مع نرجيلته .. وهو يرسل حديثه ونكاته مع عبد الحليم المصرى وأمام العبد وعبد العزيز البشرى .

ويختلف البارودى عن حافظ فى أنه اشتغل بالسياسة . وكان معروفا بالدهاء .

كما اشترك فى الوزارة وشهد ثورة عرابى وهو القائل . .

وانى لامرئ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشي كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وهما متفقان بعد ذلك فى إيثار الجزالة والاعجاب بالعبارة والعناية بالصياغة .

وقد كان حافظ قليل الحفل لشعره مبعثرة . ملول الطبع مشتت الأوزان والقصائد ويغلب أن مصدر ثقافته هى تجاربه فى الحياة ودراساته وتأملاته .

وقد كان يشعر بالغربة وهو على ضفاف النيل :

أيها النيل كيف نمشى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما

يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما

إن لين الطباع أورثنا الذل وأغرى بنا الجفاة الطغاما

وقوله فى أكثر من موضع يصف هذا اللون من البؤس القاتم الذى يلم بنفسه بين حين وحين . ولعل مصدره انصراف حافظ عن الحياة الوجدانية فى محيط الحب والمرأة .

والليل أرشده أبوه لشقوتى وكذا البنون على هوى الأبناء

عين مسهده وقلب واجف نفس مروعة وجيب خال

* * *

ويختلف حافظ عن مطران الذى كان المجدد الأول فى الشعر العربى الحديث هو الذى دفع حافظ وشوقى إلى التحول والتطور .

ويلتقى حافظ معه فى أنه لم يتزوج .. ولكنه التقاء فى المظهر لا فى اللب. لقد أمسك مطران عن الزواج مخلصاً لذكرى حب كان حب حياته كلها ومصدر الهامه فى شعره. وقد ماتت عذراء وهى صاحبته ولم يعرف قلبها حب إنسان غيره فقدصدم فى آماله وحبه فى أوائل العقد الرابع من عمره.

ويخيل إليك عندما تراه « إنه أدرك جميع حقائق الحياة فاستوى عنده حلوها ومرها. وهو يلتمس أعذار المخطئين قبل حسابهم عليها. يغضى عن الاساءة ويتناسى الهفوات. ولا ينسى صديقه وإن طال بينهما الفراق »

ويقول مطران « إننى أنظر إلى العالم على إنه مسرح يتداول الممثلون الظهور فيه فأنا أشاهد كل ممثل. واسمع كل ما يقال. على ان استخلص من ذلك ماشاء لى من العبرة والأسوة.

ولقد أحب هذا الرجل النحيل الضامر حباً واحداً عشرون عاماً كاملة:

احبك حتى لا سرور ولا منى ... ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما

أحبك حتى ينكر الحب رسله ... جميلا وقيسا والذين استشهدوا اقدما

ولو لم تكن فى الموت سلوى أخافها ... لاحببت حتى الموت فيك ولو ذما

وقصيدة منديل الحبيبه تكشف عن هذه العاطفة الحارة:

أعدايها المنديل ذكراً محببا ... وانطق به الطيب الذى فيك مطربا

فما بك من نشر فى القلب مثله ... طواه الهوى قدما وما زال طيبا

ولم عرضت لى غانيات فعفتها ... وصنت ضميرى واللسان المشيبا

ولم بلد وافيتــة متلهبا ... فعا درته أدمى فؤداً وأكابا

مازال هــذا الحب فى مؤيداً ... مكينا نبت عنه السنون ومانبا

مازلت يا منديل ليلى ملازمى ... تنشقنى الذكر نسيما مطيبا

وأمنية مطران : الحياة إلى الساعة الأخيرة من العمل . والموت متى جاء ساعته بلا وجل .

* * *

وهو عند طه حسين زعيم الشعر العربى المعاصر واستاذ الشعراء العرب المعاصرين — لايستثنى منهم واحداً ولا يفرق بين المقلدين والمجددين وانه حمى حافظ من أن يسرف فى المحافظة وشوقى من أن يسرف فى التجديد

وصف مطران دوره فى التجديد(الهلال — نوفمبر ١٩٣٣) «أردت التجديد فى الشعر منذ نعومة أظفارى . ولقيت دونه ما لقيت فى عنف ومناوآه . وليس هنا محل وصف الالام التى عانيتها للبواعث التى انبعثت منها نوازع الذين حاولوا قطع السبيل بضع سنين .

« . . وعدت إلى الشعر وقد أنضج الفكر لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر فشرعت انظمة لترضيه نفسى حيث اتخلى . أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى . متابعا عرب الجاهلية فى مجاراه الضمير على ومراعاه الوجدان على مشتهاه موافقا لزمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب .

لا أخشى إستخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها . . » وقال مطران فى حديث له(١) . إنه عزم على مفارقة الشعر إذا لم يتهأ له فيه مذهب جديد . وظل يجاهد حتى تحقق له ذلك .

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الاثار الغربية فترجم حافظ البؤساء وترجم مطران روايات شكسبير .

---

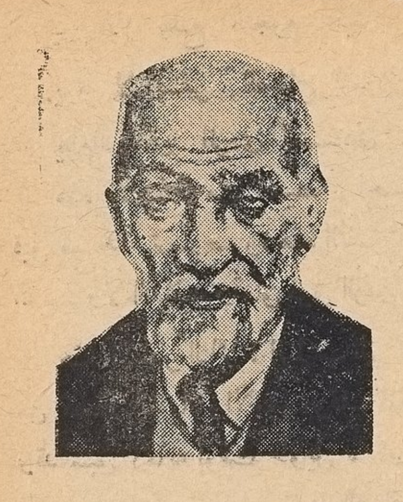
(١) مجلة كل شىء : ٨ ديسمبر ١٩٢٩ .

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشوقي ومطران وقد جمعهما الزمن في في جيل واحد. كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه الشعري. ومعالمه النفسية الواضحة.

ان مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فقد كان حبه واضحا واتصاله بالمرأة بارزا في صورة قوية رائعة.

وعاش حافظ بعيداً عن هذا الميدان يطوى أيامه وفي نفسه ذلك البؤس الذي ما أظن أن مصدره الا خلو حياته من المرأة التي كان يعزف عنها.

الزهاوى



قد انى يامنيتى أن تعودى	بى إلى ما كنت قبل وجودى
ليس من هذا الموت يا نفس بد	فهو للناس من تراث الجدود
يا امانى فارقينى ويا نفس وداعاً	ويا حشاشة جودى
لا تخافى على فالموت سهل	لا كما ينعتونه بشديد
لا تخافى فالموت ليس على الأرض	ولا فى سمائها بجديد
لهف نفسى على صبابه عيش	لولاك لم يكن برغيد
لست أدرى اللفناء سنمضى	بعد ما نموت أم للخلود
إننى فى شك وإن ملأ وسمعى	بوعد يروونه ووعيد
ولعل الصبا تمر رخاء	فوق ملحودتى فتنعش عودى
لا أنيس ولا نسيم ولا نور	يزيل الظلام من ملحودى

يوم لا تبصرى الربيـع ولا تصغى لانغام البلبل الغريد

يوم لا تطلع النجوم علينا باسمات من السماء كخود

يوم لا يسفر الصباح لنـا من جانب السماء قائما كعمود

يوم ايدى الردى تجـردنى من كل مالى من طارف وتليد

هذه الأبيات من قصيدة « احساساتى » التى كانت آخر ما نظم الزهاى قبل موته[1] ترسم صورة هذه النفس المتمرده الثائرة التى عاشت حياتها لا تبالى القيود ولا التقاليد وتحلق فوق الزمن وتسبق الأيام .

هذا الشاعر الثائر ، الراغب التى التجديد المتشائم الفيلسوف الذى يقف من مصائر الحياة والأمور موقف المتشكك هو تلميذ صريح للمعرى .. وقد سبق زمانه بوقت طويل . فعاش غريباً وأثار عليه المحافظين ورجال الدين . ولكنه هز الحياة فى العراق والشرق هزة عنيفه وكان فيما انشد ونظم يصدر طبيعه حساسه قوية . امتزجت بها تجارب واسعة واتصالات مختلفة بالاتراك والاستعمار .

وقد عرف عنه أنه لا يجرى مع التيار ويجهر بالكلمة التى يؤمن بها حراً لا يبالى . وظل إلى شيخوخته حار القلب متدفق العاطفة . وخلا شعره من قصائد المديح أو الرثاء أو مناسبات الصالونات التى عرفت عن شعراء مصر :

وتبدو فلسفة القوة واضحة فى شعره :

ليس الحياة سوى نزاع دائم يا للضعيف به من الجبـار

يا شيب لستم للوعى فتأخروا وبدار يا شبان ثم بـدار

القوا القديم وبالجديد توشحوا حتى م تختـالون فى الاطمار

---

(١) توفى فى ٢٣ فبراير ١٩٣٦ .

وتحرروا من نير كل خرافة خرقاء تلقى الزيغ فى الافكار

وتحرروا من قيدكل عقيــدة ســوداء ما فيها هدى للسارى

أمن اكتفى بخرافة فهو مؤمن ومن امترى فيها من الكفار

ولدى النهاية جاهل فى جنــة فيها النعيم وعالم فى النــار

وقد دافع عن حرية المرأة بقوة :

كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقهــا عــذابا

إن الالى قــد اذنبوا هم صــيروه لهــا عقابا

وسيطلب التاريخ من ناس لهــا ظلموا حسابــا

وقد وصف الزهاوى نفسه ورسم الخطوط الرئيسية لحياته وكلها تعطينا الدوافع لاتجاهاته الثائرة التى وصفت بالانحراف .

« كنت فى صباى اسمى المجنون . لحركاتى غير المألوفة . وفى شبابى « الطائش » لخفتى . وايغالى فى اللهو . وفى كهولتى « الجرىء » لمقاومتى الاستبداد وفى شيخوختى « الزنديق » لمجاهرتى بأرائى الفلسفية » .

وقد بدأ حياته بنوع من الاضطهاد لعله بعيد الأثر فى حياته « كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى . فنزعنى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى . وأخذ على عاتقه أن يربينى تربية خاصه مشبعاً هواه . وكان من هواة الأدب .

« وكان يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر » .

وكان عنيداً ويروى هذا الحوار الذى جرى بينه وبين والده وهو فى يافع صغير .

ــ البس يا جميل عباتك فانى أخاف عليك البرد

ـ يا أبي إني لابس العرقة . فمن أين يتسرب البرد

وعرف في صباه بهواية تطيير أسراب الحمام في الهواء والولع بركوب الخيل .

وقد كان ابرز كفاحه السياسي الذي سبب له المتاعب مطالبته بالدستور. ومقاله في المؤيد عن حق المرأة حيث دعا إلى حريتها عام ١٩٠٢ ونشر هذا الشعر في ذلك الوقت البعيد الغائر في الجمود .

مزقي يا ابنه العراق الحجابا   واسفري فالحياة تبغي انقلابا

مزقيه واحرقيه بلا ريث   فقد كان حارساً كذاباً

وتعد هذه القصيدة هي ذروة ثورته على الجمود .وعلى أثرها واجه أقسى حمله حتى أن البعض طالب باباحة دمه .

وكانت كتاباته وأشعاره مبنية على الحدة والحماسة لا على الدرس العميق أو حتى الاستكناه الدقيق .

وقد كان نائباً في البرلمان العثماني في استانبول . وأستاذاً للفلسفة في الجامعة التركية . وقد اتهم بالحاد . وانشد أبا الهدى الصيادي قصيدة في ذم عبد الحميد فسجن .

ويصف احرج ساعات حياته بانها « لما سجنني السلطان عبد الحميد ، وارجعني إلى بلادي مخفوراً ذليلا جزاء اتفاقي مع الأتراك الأحرار في طلب الدستور وكذلك يوم هاج الشعب العراقي على لمقالة شديدة نشرها لي المؤيد في الدفاع عن المرأة حتى إني قبعت في داري أسبوعاً لم أخرج منها خوف اغتيال الشعب لي وعزلني يومئذ والى بغداد « ناظم باشا » من وظيفتي في مدرسة الحقوق » .

وكان قد سافر إلى استانبول نائباً عن لواء المنتفق . وكان لصلته بالصحافة

فى مصر أثرها فى تخفيف اضطهاده . فان بطاقة من جريدة المقطم حالت دون نفيه إلى الهند .

مزقيه وبعد ذلك أيضاً مزقيه حتى يكون هبابا
بزاعيه بقوة وطئيه واجعلى فى فم الحينق يرابا

وقد اضطر فى أبان محنته إلى بيع معظم كتبه . ثم هاجر إلى سوريا ومصر وظل فى معارضته لحكم عبد الحميد يوالى انشاء القصائد فى هجائه .

وعند ما عاد إلى العراق وكانت الظروف قد تغيرت وعزل عبد الحميد انقطع عن التدريس للشعر ولكنه ظل سابقاً لعصره متهما بين أهل جيله وبلده بالزندقة والجنون والإلحاد ، فقد عاش فى تلك المرحلة المضطربة من حياة البلاد العربية عند ما كان الصراع بين القديم والجديد . والمحافظة على الماضى والاندفاع نحو الغرب قائماً . وكان بريق الحضارة قد بهره فاندفع يدعو لها بقوة ولكن الزهاوى على هذا الاتجاه الفلسفى فى شعره وتقليده للمعرى لم يخلق مذهباً شعرياً معيناً . ولعله فى نظرى أشبه بحافظ . يقول الشعر ثم يدعه مهملا ولعل جنوحه إلى مثل هذه الفوضى والاضطراب ناتج عن وراثيات مضطربة وأعصاب مجهدة .

وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش إلى سن السبعين مسحه من القداسة الرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال الثقافى والاجتماعى وعين عضوا فى مجلس الشيوخ .

ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل إلى حد كبير تأثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى أبان إقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق حيث كانت التقاليد والكبت تصاحبان حياته منذ أول الشوط :

ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يألف العشق الطويل المدى .

ويبدو أن الزهاوى فى الحب اشبه بشوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل إلى اعماق الحب ولا يسبر غوره . وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب إلى الواقعية الآدمية ولا تجد عنده تلك الحرارة الدائمة فى العاطفة .

نظرت إليها وهى تخطو كأنها غزال بمخضر من الروض يمرج
وتحسب ماس القرط نار حباحب على متلع من جيدها تتوهج
ولا صبر حتى يمسك القرط رجفة باذانها أو قلبى المبتهج

ولعله هنا لم يسبق عصره وإنما استجاب للمعانى التى تفرضها البيئة المحافظة والفهم الغائر فى القدم .

ولعله وجد فى مصر أيضاً سبيلا إلى عاطفه أو حب . وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة إلى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم إذ أنه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجاً وكانت زوجته متحجبة . وقد وصفت هذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه .

وقد تزوج الزهاوى فى سن مبكرة وأمكن أن تهيء لهزوجه أسباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ ، إذ كانت خير معز له فى المحن الفكرية والسياسية التى تعرض لها . وفى خلال سنوات مرضة باعصابه . وغاية القول أنها كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه إبان نفيه إلى مصر وسوريا .

ومن أبرز معالم حياة الزهادى الخاصة أنه لم يرزق أبناء ولعل ذلك كان مصدراً من مصادر اضطرابه النفسى .

وأبرز معالمه النفسية خوفه من الموت ومداوره معانيه :

ما الذ الحياة لو هى دامت غير أن المنـون بالمرصاد

وكان يربط بين حياته وشعره ويراه كل ما يملك فى دنياه :

أنا بالشعر وحـده متسلى إنه كل طارفى وتـلادى

وإذا وافتـه المنية قبـلى فاحفروا حفرة له فى فؤادى

وإذا مت قبـله فهو يرثينى لو ظـل حافظا لودادى

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس شاعرا وقال عنه الناقد يوسف جورج أنه ليس شاعراً ، إذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل. والزهاوى كان لا يبالى بالعواطف والخيال أبداً . ومن يقرأ شعره لا يرى فيه إلا حقائق تعتمد على العقل قبل أى شىء آخر ولم يستطيع أن يكسيها بوشاح من الروح الشاعرة على الرغم من محاولاته العديدة فهو ناظم وليس بشاعر .

* * *

وتقتضينا دراسة الزهاوى أن نتحدث عن رفيقه الرصافى . وقد كان أشبه بحافظ وشوقى فى مصر تنافساً وصراعاً فى ميدان الأدب .

وليس شىء اتهم به الزهاوى يمكن أن يخلى منه الرصافى فقـد اتهم بالكفر والزندقة أيضاً .

وقد كان جريئاً فى المطالبة بالسفور مهاجمة المحافظين والمتعالمين بالشريعة. وقد تزوج مرة واحدة أثنا إقامته فى تركيا . وطلق امرأته بعد فترة وجيزة كما فعل حافظ . ولـكنه كان محباً رقيق العاطفة جياش القلب :

وقفت عليكن قلبى الذى يمر به الحب مر السحـاب

فمنكن أحببت هـدى وتى والفيت عذباً بكن العـذاب

فمنكن بيضاء ما فـليها ددا حمرة الخـد إلا التمر
فتلك التى طاب لى وصلها كما ليلة البـدر طال السحر
ومنكن حمراء جـذابة حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها وهى خـلابة فامسك بالـكف منى الضلوع

وهـذا الحب هو حب نوعى جذى لا يمثل المعنى الفلسفى الروحى ولم يعرف عن الرصافى أنه أحب حباً واقعياً واحـداً . وإنما هو يرسم لوحات للجمال الذى يشاهده أحياناً فى المرقص . وله فى ذلك عـذره وعذر الأدباء فى عـهده سـواء فى مصر أو فى العراق فقد كانت المرأة محجبة ولم تكن يرى إلا فى هـذه الملاهى . ولذلك فهو يتحدث عن المرأة كامرأة وليست كملهمة .

ومنكن طراً بوادى الهـوى أهيم وإن لم تعـد عائـده
إلا أن حباً بقلبى انطـوى كثير فلم تـكفه واحـدة
فالله ما قـد هجن لى من صبابه الفت بها طى الضلوع على الجمر
وارسلت قلبى نحـوها مشيعا فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

إنها حواء اينما ذهب تأخذ قلبه .

* * *

وتعرض الرصافى لحقد السلطات العثمانية والانجليزية نتيجة لحرية رأيه وقاسى شظف العيش أياماً طويلة حتى اضطر إلى أن يبيع السجاير فى دكان صغير . ولـكنه عاش عزيز النفس . يكره المال ولم يمنعه هذا من التـكسب بشعره وقد صور آلامه ومأساته فى هذه الصورة .

قـد رقت ثيابى اليوم حتى تـكاد تذوب من مس الهـواء

عـــذت شفافه حتى كأنى لبست بهن أثواب الرياء

وقد اشتغل الرصافى[1] فى مستهل حياته بالتدريس . وعندما شبت الثورة فى تركيا ضد السلطان عبد الحميد لأجل الدستور كان الرصافى أول من غذى هذه الثورة بشعره .

وقد اضطر تحت ضغط الاضطهاد أن يترك العراق .

عتبت على بغـداد عتب مودع امعنيه فيها الحادثات قراعا
اضاعتنى الأيام فيها ولو درت لعز عليها أن أكون مضاعا

وحمـل الرصافى كما حمل الزهاوى على التخريب الدينى والتعصب المذهبي إذ كانت البيئة العراقية تذخر إذاك بهذا اللون من الجمود .

وقد خلف الرصافى بغـداد فترة طويلة سافر خلالها إلى الشام ومصر وتركيا وأقام فى اسطنبول ثم عاد إلى العراق ۱۹۲۱ حيث عمل مدرساً بمدرسة المعلمين وانتخب فى البرلمان العراقى ۱۹۳۰ . وفى ۱۹۳۷ اعتزل السياسة ومضى يقضى شيخوخة موحشة .

وترك الشاعر الرصافى عند موته وصية جديرة بالتسجيل قال فيها «كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى فيه صفتي الشخصية وإنما قصدت به منفعة المجتمع ، الذى عشت فيه والقوم الذى أنا منهم ونشأت بينهم . لذلك لم أوفق فى حياتى إلى ما يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة . لا أملك سوى فراشى الذى أنام فيه وثيابى التى البسها وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذى فى مسكنى ليس لى بل هو مال أهله الذين يساكنوننى وكل من اعترى لى فى حياتى فهو فى حل منى . وإذا كان هناك من اعتديت عليه أنا فهو بالخيار . إن شاء عفا عنى وإلا قضى بينه وبينى الذى هـــو أحكم الحاكمين .

---

(۱) ولد عام ۱۸۷٥ وتوفي عام ۱۹٤٥ .

على ادهم

عنيت (١) منذ وقت بعيد بأن تؤجج النهضة الأدبية وتشعل النار المقدسة. وترد عن الأدب عادية الصحافة ، والجحود والاسفاف .. وكانت « الزمان » قد افردت الأدب مكاناً مميزاً . وقد رأيت وأن لسبيل هذا الكفاح استنهاض الأدب من عثرته . بعد أن طغت عليه موجات السرعة والسياسة والتعبير الصحفى وأدب الساندويتش والطقاطيق .. إن أذكرك بأمر هذه الطائفة من كتابنا وأدبائنا الذين هجروا ميـــدان الأدب أو كادوا .. فى ولست أشك لحظة فى أن الادب فى مصر لا يعز أصحاب الأقلام وأصحاب المثل العليا على أن يمضوا فى طريقهم . ولكن متى كان المفكرون والأدباء إلا ضحايا على مذبح الفكر الخالد . ومتى عرف الناس قدر الأدباء العباقرة والكتاب الافذاذ إلا بعد أن يواريهم الثرى ويطويهم الموت .

خذ مثلا الأستاذ على ادهم . هذا الكاتب الذى تراه حين يطالعك فى أثاره وكتبه وقد أخذ بزمام نفسك . وملأ اعابك بروحه الفياضة . ومضى

---

(١) نشرت هذه المقدمة فى جريدة الزمان ١٩٥١ فى كلمة موجهة إلى الأستاذ محمد على غريب .

بك إلى غايته وأنت مبهور مأخوذ لقد كتبت فى مذكرتى الخاصة عن « على ادهم » منذ خمس سنوات « ليس من الكتاب الذين يتحدثون عن أنفسهم . تبدو فى دراساته روح المثالية . وخصوبة الثقافة وجودة العرض كاتب مقل ولكنه عميق . تستطيع أن تمضى معه دون أن تصدمك منه بادرة ما . تجده مقبلا على فكرته يبسطها فى رفق ويكشف عنها فى هدوء .

وهو معنى بالنفس الإنسانية والبحث فى اغوارها . والخوض فى اسرارها والكشف عن غوامضها . وهو دائب التطلع إلى ما وراء الأشباح القائمة . فيه صوفية معتدلة . وفيه فلسفة غير معقدة وفيه ، مثالية واضحة . وهو وسط على أى حال . لا تميل إلى التشكك الذاهب فى دياجير التشاؤم . ولا يجنح إلى السخرية المغرقة فى التهكم .

لم يتجه على ادهم يوماً إلى ميدان الصراع الأدبى . ولم يدخل فى مناوشات أدبية أو خصومات فكرية . وهو رجل يغلب عليه الانطواء والهدوء ولا يعنى بالبهرج والزخرف ولا يطلع على الناس بالرأى الجرىء ولا بالفكرة الحادة .. »

وبعد فعلى ادهم كاتب « موضوعى » مقل . يكتب فى أوقات الصفاء . ويتحين أوقاته وموضوعاته . ويبدو من وراء انتاجه أنه رجل منظم أنيق وهو من الكتاب الذين يترقبون أوقات الفيض والوحى واعتدال المزاج .

وأنت لا تستطيع أن تقول عنه أكثر من أنه رجل باحث ألم الماماً واسعاً بالأدب الغربى الحديث وقرأ كثيراً من الأدب العربى القديم فتكونت له تلك العقلية التى تتعرض للقضايا الكبرى فتبسطها فى يسر .

فاذا ذهبت بعد ذلك تسأل عن شخصية الكاتب . فانك تراه كأكثر كتابنا أبناء المدرسة التى خلقت مدرسة الرواد . إن أغلب ابناء هذه المدرسة

يعملون فى دور الحكومة . فقد كرهوا العمل الخالص للصحافة وأحبوا أسلوب الكتاب المؤلف عن المقالة الصحفية . والأستاذ ادهم أحد هؤلاء يعيش حياته الرتيبة العادية ، يقرأ ويكتب .

ولعله يصور نفسه فى هذه العبارات« الإنسان يريد أن يستخبر كل مجهول. ويستبطن كل سر . وأن يسع علمه كل شيء فلا يجهل ظاهراً ولا خفياً . ولا تند عنه شارده ولا وارده . ولكنه يرى قصر الحياة واستهدافها لسلطان المصادفة فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعبث الطموح . ويستوثق أن مصير آماله الزاهية فى الإحاطة الشاملة ، للافول ، وأن ظمأه الى المعرفة لن يرتوى لها غليل ، وأنه لن ينتهى إلى غاية مهما تمهد له الأسباب .

وبعد فعلى أدهم قارىء مدمن . وأن يرى دائماً فى المكاتب الكبرى فى القاهرة يتطلع من وراء نظارته إلى رفوف المكتبات باحثاً عن كتب جديدة . وهو فى هذا أشبه بصديقه العقاد ..

وهو من الكتاب الموضوعيين الذين يعجبون بالأدب الانجليزى . ويتصلون به اتصالا وثيقاً وأسلوبه رصين متزن . سهل التناول . ولكنه قوى . وهو يعنى بتجويد أسلوبه . ولا يبتذله ، ولا ينزل به إلى المستوى الصحفى . وهو من أصحاب المذهب الارستقراطى فى الأدب . وفنه الرئيسى « المقالة » ولم يشتغل بالشعر أو القصة . وإن كان قد ترجم بعض القصص

وقد اتصل على أدهم بالعقاد ، حتى عرف فى بعض الأوساط الأدبية بأنه من تلاميـــذه . ولكنك عند ما تقرأ أدهم وتراه يتميز بالشخصية الاستقلالية . فهو عزوف عن السياسة منذ شبابه وبذلك برىء أسلوبه من عدوى « الهجاء » التى تميز بها أسلوب كتاب مصر الرواد الذين اشتغلوا بالسياسة . وهو من الكتاب الذين ينتجون فى صمت ويعملون فى هدوء وقد

اساءت إليه الصحافة إذ أبعدته عن مكانه الخليق به فى الأدب . عند مافتحت الشهره الطاغية لكتاب الصحافة الذين تترد أسماءهم فى كل يوم .

ولم يشترك على أدهم فى سجال ما ، ولم يدخل فى معركة أدبية . وبذلك ظل بعيـــداً عن مجال المسرحيات الأدبية التى عرف بها بعض الكتاب . وكانت سبباً فى ظهور اسمائهم . وإن كنت أعتقد أن من مميزات الكاتب القوى أن يكون مقتحما وصوالا . يستطيع أن يصارع ويقاتل ويتعرض للنقد ويدخل المعارك الحمة . ويهاجم الأراء الملتوية .

ولكن يبدو أن على أدهم تنكر هذا اللون من الصراع بطبعه ولما فيه من مثالية إذ يرى أنه قلما يخلو سجال من غرض شخصى أو هدف ذاتى .

ولا نأخذ على « أدهم » إلا أن أدبه لا يكشف صورة نفسه ولا يرسم مرآة لشخصية . فهو مؤرخ وعالم ذاهب فى اعماق البحوث . ولذلك فمن العسير تصوير حياته أو هواياته أو الأحـــداث التى اثرت فى اتجاهاته .

وهو فى هذا تخلف كثيراً مع زميله وصفوة عبد الرحمن صدقى الذى يمكن أن تميل الجانب الوجدانى الخالص فى هذه المدرسة التى اتصلت بمدرسة الديوان من قريب . فصدقى يتميز بالشباب الذى يتفصد حرارة وحيوية . والذاتية الأدبية بارزة فى أدبه وموضوعاته . وقد كشف ديوانه « من وحى المرأة » عن طبيعة شاعره وعن نفسيه عاطفية تهتز للحب والموت .

سعيد العريان

« ... وهذا كاتب آخر قد اختفى أو كاد من عالم الأدب . منذ سنوات . فلم نعد نقرأ له كلمة فى صحيفة سياره . أو نسمع عن كتاب جديد له تخرجه المطابع .

ويقينى أن الأستاذ العريان قد شعر بضعف تقدير البيئات الأدبية الأثر الجيد فآثر الانزواء واحتجب عن ميدان الأدب . وقد كان خليقا به الا يقهره شىء عن المضى فى أداء رسالته فى تجلية جوانب مصر الإسلامية بذلك القصص الممتع المجود . فهو كاتب جيد العبارة . صادق الاحساس . مصقول البيان . تشهد أثاره بمدى الجهد الذى يبذله فى سبيل استخلاص هذه اللوحات الفنية وإخراجها من بين صفحات التاريخ المبعثرة الضخمة . المتعددة الجوانب . المتباينة الألوان والأهداف .

وإنى لأذكر يوم كان يكتب فى مجلة الثقافة بابه الأسبوعى الذى كان يوقعه بكلمة « قاف » والذى كان يصدره بكلمة « هذا رأيى وعلى تبعته وحدى » ولن أنسى فصوله فى الرسالة والثقافة وخاصة ما أرتبط بمأساته الخاصة »

هذه كلمات نشرتها الزمان سنة ١٩٥١ وكنت قد تابعت العريان طويلا وشهدت المعركة التى كان يقودها بعد موت الرافعى . وعرفت صلته بالرافعى فى هذه الفصول التى كتبها عنه والفصول التى كتبها الرافعى نفسه وكان هو « العقل الوسط » بينه وبين القراء . وأن يد العريان مع روح الرافعى هى التى قربت إلى الناس فصول وحى القلم بعد أن ظل الرافعى معتصما بلون من الأدب لا يقرأه إلا الخاصة .. ردحا طويلا من الزمن ..

ثم عرفت كيف اتصل العريان بالدكتور طه حسين . وظل مع مودته يحتفظ برأيه فى الرافعى ويفى له وهو فى الوفاء مثل . وله بحديث الوفاء صله . فقد ماتت زوجه منذ سنوات . وقد عاش لذكراها وفيا . ولعل هذا من صفحات التاريخ الأدبى الباقية . فقد كتب بضع فصول عن هذه المأساة على أثر مرور العام الأول على وفاتها تفيض بالحزن العميق واللوعة المشبوبة والكمد المحرق . وهو فى هذا يختلف مع عبد الرحمن صدقى الذى تدفق الشعر منه بعد وفاة زوجته حتى كتب ديوانه فى خلال شهرين . أما سعيد فانه لم يبدأ نوحانه إلا بعد عام كامل قضاه يجتر همومه وأحزانه .

لقد كانت ــ هى ــ نعمة من تلك النعم النادره التى يسوقها الله لبعض الناس . زوجة المفكر الأديب حينما تكون هديا لروحه وضياءاً لأيامه . تمده بالابداع الفنى الذى يدفعه إلى مكان الصداره . . ولكن مهلا فقد كان موتها أيضا من أمجاد الأدب . لقد حمل سعيد أن يعكف على قراءة التاريخ القديم كله . يفنى فيه أيامه ولياليه . لينسى فى أحداثه وقصصه هذه المأساة فكانت هذه الآثار والروائع التى الهمها من « على باب زويله » إلى « بيت قسطيطين » إلى «قطر الندى» إلى « شجرة الدر » اثراً من آثار الحزن العميق والألم الممض والحب المحترق فى قلب شاب كانت طبيعته المتدينة المحافظة . تقصيه عن ميدان المرأة .

وكذلك وجد سعيد الفه ، تلك النفحة الروحية الصادقه . ثم يلبث أن

فقدها . فقدها على حين غفلة من الدهر . وبلا مقدمات . وتركت له ابن و بنت ابن ولد لم يرمع الضوء أمه . و بنت ماتت أمها وهى لم تبلغ العام وتركت له ألما ومراره . . كانت فصول تحت الرماد بعض أثرها . فعاش سعيد للذكرى .

* * *

ولد سعيد لأبيه وهو فى سن المائة وفتح عيناه على تلك المكتبة الضخمة الحافلة بكتب العلم . فامتلات روحه منذ ذلك الصبا الباكر بمعالم الروحية الصادقة النقية ثم اتجه فى شبابه إلى الدرسات الإسلامية التى تبلورت بعد فى فنه القصصى الذى كشف به عن الجوانب الغامضة من فصول هذه الحياة .

وقد أحب الرحلات من صباه ، ودرس أثار مصر القديمة وبيوتها ومساجدها ومقابرها وهى اقتحامات جريئة لم يبالى خلالها بالظلام ولا بالوحدة . . .

وقد عرف سعيد بعزوفه عن الصحافة فلم تفتنه مغريات البريق الخاطف تخلص أدبه من الميوعة والرخاوة . وهو إلى هذه المثالية عزوف عن المجتمع حريص على برجه العاجى وافقه الخالص . يقرأ ويكتب ويعيش فى حديقته ينسق أزهارها ويجرى مياهها . وتلك هى هوايته .

ويغلب على الأستاذ العريان الاتجاه التاريخى . فهو من هواه مزج التاريخ بالأدب . وهو من المؤمنين بالبحث وتجلية الماضى الخالد . وإبراز الامجاد العربية والإسلامية . وقد قرأ تاريخنا الإسلامى باحثا فيه عن هذه الجوانب الجديره بالابراز والتخليد .

وهو يتخير أوقات الوحى التى تزدهى فيها القريحة وتشرق النفس ويفيض القلم ويتحرى أوقاته فى الصباح الباكر والمساء المتأخر . ويجلس على مكتبه

ليس معه إلا قلمه وورقه الأبيض وعليه سجائره يحرق دخانها فهو لا يستعين بالمراجع ولا الجذاذات .

* * *

وبعد فهل يمكن القول بأن الحرمان كان هو مصدر إنتاجه :

« ... ها أنذا أقيم فى هذا المكان منذ رمانى القدر من بغتاته بمارمى متفرداً بأحزانى على حدود الصحراء . هـذه النخلات بازائى . وهذه النخلات من ورائى . وهذه الرمال .. حتى الفت مكانى . ما بالى اليوم يعاودنى حنين المغترب فيطوى بى الزمان والمكان إلى حيث يذكرنى وما نسيت .. وجلست وحدى فى الشرفة اتطلع إلى السماء . وكم لنا فى السماء من غايات . وكم لنا عندها من ودائع . فى مثل هذا اليوم منذ عام . لم أكن فى مجلسى وحدى ولم تـكن نظرتى وحدى . ماذا أرى الساعة ومن ذا يرانى لا شىء ولا أحد غيرى وغير أحزانى . واذن مؤذن الراديو فى المنزل البعيد نخف كل صائم إلى مائدته وثقلت بى همومى فلم أغادر مكانى . ونظرت نظره إلى الوراء فثابت إلى نفسى . هذه ابنتى الصغيرة تدعونى إلى مائدتى وإلى جانبها أخواها الصغيران . طفلة تستند إلى مهد طفل رضيع . هـذه اسرتى منذ اليوم . بل منذ أمس الذى كان .. وحسوت حسوة من دموعى ثم نهضت إلى المائدة . من أجل هؤلاء يجب أن أعيش . وخيم السكون على الدار الصامتة إلا صوت أب . يضاحك بنيه على المائدة . وإلى جانبه مقعد خال . ومضت ساعة الغروب من أول يوم من رمضان لاحديث ولا مسامرة ولا نجوى .. ولا نور . يا ليالى فى رمضان فات . وفى رماضيين قبله عليك وعليك . عليك اسكب أحزانى دموعا جافة لا ترطب وجنة ملتهبة ولا تطفىء .... »

هذا جزء من القصة ، قصة النار التى تحت الرماد ، وهــذه صفحة أخرى ...

« لقد كان لى ذات يوم تاريخ . وكنت فى ذلك التاريخ شيئاً . أو لعل قلبي هو الذى كان . فاليوم وقد بلغ هذا القلب آخر قصته فان من حق هذا التاريخ أن يكتب وأن يقراه قارئه .

.. ولـكن ما هذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى . ارأيت لو أن حلما يجسد لذى عينين بشراً سويا فيعيش كما يعيش الناس حينا ثم يرتد إلى وادى الـكرى كما يتوارى الشعاع أو يختفى الظل — لو أن شيئاً من ذلك يمكن أن يقع فى حياة الناس ، لقلت أن هــذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى لم يكن إلا بقية حلم . ثم عاد كل شىء إلى طبيعته . كان لم يكن شىء . وعادت الأمنية التى كانت ذات يوم حقيقه فاختبأت فى أحلامى .. »

وهو يؤمن بالمراه « إن المراه للرجل أن هى وحى المجد ومطلع الأمل . فاذا عادت لهفة ودموعا هى امراه ولـكنها اليأس والحرمان والخيبه »

وكأنما ربط الحب بينه وبينها على أدب وفن « .. وتلاقينا على ميعاد وجلست أقرأ لك فصلا بليغا من كتاب كان معى فتندت عيناها بالدمع . لقد قلت لى كلمة مازال صداها يرن فى أذنى :

.. ليس فى البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها غير الأدب البليغ »

.. عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديدا فى الأدب . الايكن من الهامك فانه بسبيل تحقيق أملك .. »

وبعد فلقد أحب الرافعى سعيداً وأحبه وقال سعيد عنه « من حق الرافعى على أن أذكر له يده على فهو الذى سدد خطاى إلى هدف مرسوم ، هو الذى

جعل كفاحى للعلم والأدب إلى غاية . فاذا كنت اليوم شيئاً من أدباء الجيل فتلك حسنة من حسناته ويد من أياديه ، وقد وصف الرافعى سعيد بقوله أما «س» فرجل كشيخ المسجد يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض! ذوى دين وتقوى . وما بهما ينقبض وينكمش ويتزايل حتى يرجع طفلا فى الثلاثين من عمره . وهو حائر بائر لا يتجه لشىء من أمر المرأه .

وقد فقد منها ما يحل وما يحرم . ولا جرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على الموبقات . ولا يزين له الشيطان ورطة إلا أملس منه . فان له ثلاث أبواب مفتوحة للهرب . إذ يخشى الله . ويتوقى على نفسه . ويستحى من ضميره »

وبعد فسعيد العريان من أدباء الشباب . من الجيل الذى جاء بعد جيل الرواد وهو أديب صبغ الحب حياته وأدبه ونخشى أن يكون فتور الأحزان فى نفسه فتوراً عن الانتاج والبحث .

على الطنطاوى

«. . هل تذكر يوم أن جزنا قبور الدحداح ونحن طفلان يتيمان . فى طريقنا إلى المنزلين الصغيرين المتجاورين فى السمانه . فوقفنا ساعة بين القبرين المتدانيين نزور أبوينا . ثم ذهبنا مسرعين لتودع الآمنا صدر الأم ، اتذكر ما قلت لى يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها وقالت لك . اتذكر أننا أتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات . وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل . لقد كان ما ظنناه مستحيلا . لقد ماتت أمى وأمك وأحتواهما ذلك القبر الذى حوى أبوينا وعشنا بعدهما .»

هذه صوره على الطنطاوى بقلمه مع صفيه زميل الصبا أنور العطار .أنها أسعد صداقاته . هناك فى مدينة الأموات عاشت هذه المودة التى لا يستطيع أن يعدو عليها الموت لأن الأدب اكسبها الخلود فهذا ناثر وذاك شاعر . وقد جميعتها الرسالة بضعة وعشرين عاما .

وعلى الطنطاوى من أبناء دمشق بلد الحب واللطف والكرم والجمال . ولكن مصر لها فيه جزء كبير . فهو قد جاء مصر وتعلم بها وتلقى على خاله

العالم الفاضل السيد محب الدين الخطيب الذى تلقين علمه واحببناه وعرفنا فيه غيرته على التراث الاسلامى .

وقد بدأ الطنطاوى حياته وأكبر أمله أن يكون معلما وكان يتوهم حياة المعلم جنه انزلت الأرض . فيها ما تشتهى الأنفس . فلما صار معلما لم يجد من تلك الجنة إلا الذى تجده الغوطه فى الشتاء . أرضا موحلة ما فيها إلا الشوك . فأمل أن يكون كاتبا فلما أصبحه ملأ الدنيا من حديث طريف وأسلوب جميل . ولكنه هل رضى . اسرعان ما ضاق بنفسه وأدبه . وأمل أن يكون قاضيا وأن يكون خطيبا وأن يسيح فى البلاد . ولم يجد فى الأمل إلا الألم لانتظاره ثم الملل من بقائه .

وقد ساح فى البلاد . ذهب إلى القاهرة وبغداد وبيروت ومكه والمدينة وشاطىء دجلة والبصرة وكركوك ودير الزور والقدس .. وقرأ تاريخ العرب والاسلام . وأعانة هذا على إنشاء فصول تنبض بالحياة والايمان بالعروبة وامجاد الاسلام .

ويقول الأستاذ الطنطاوى أنه أخذ الأدب عن الاستاذ سليم الجندى الذى كان يحذره من قراءة الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر حشية أن أن تصيبه عدوى الركاكة . وهى شر من عدو الكوليرا والجزام . ومن ثم دخل الجامعة وهو لا يعرف من العصريين إلا المنفلوطى رحمة الله . وكان يظنه أبلغ كتاب العصر ولا يعدل بأسلوب نظراته شيئاً حتى وقع فى يده « روفائيل » للزيات فوجده كنزاً من أغلى كنوز النثر . ثم عرف الرافعى وقد أصدر كتابه تحت راية القرآن . فعلم منه أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطى : « أى والله ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد »

وهو يقول أن خاله محب الدين الخطيب قد أخذ بيده وسدد خطاه

وكان له أفضل مرشد ومعين وللرسالة فى نفسه مكان أى مكان » .. ثم اتصلت بالرسالة صديقته روحى وسميره وحدتى . وكنت إذا نظرت فى كتاب أو أصغيت إلى حديث . أو ضمنى مجلس . أو اشتملتنى عزلة . أو اضجعت لأنام . أو نهضت من منام . أو ذكرت ماضيا . أو فكرت فكرات . أو أغمضت عينى متأملا . أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض . أجد فى ذلك موضوعا لمقالة اكتبها أو فصلا انشئه .. »

ولقد نشأ على الطنطاوى فى عهد مظلم فى تاريخ سوريا . فتح عينه على الدنيا أيام الحرب الماضية . كان فى العاشرة من عمره سنة ١٩١٨ . كانت دمشق فى أشد أيامها ومظاهر البؤس والالم فى كل مكان . يرى الأزدحام كل صباح على الفرن الذى لم يكن يفتح منه إلا كوه صغيرة يبرز منها رأس خباز ليعطى السعيد من الناس كتلة سوداء لايعرف ماهى على التحقيق . وإن كان يعرف أن أسمها الرغيف . والاسم المرعب « جمال باشا » يملأ القلوب فزعا . ثم رأى المشانق وشهد المآتم . فأمتلأت نفسه بهذه الصور القاتمة ولم تكد سوريا تسمع بفرحة الاستقلال فى حفلة التتويج حتى ذاقت غصة الانتداب فى مأساة ميسلون ولم يكن يعرف فى هذا السن الصغير غير طريقه إلى مكتب عنبر . وتلك الساقية الصغيرة بمقبرة الدحداح . وذلك الطريق الذى ينتهى عنده العمران ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص .

ولقد عاشت هذه الصورة فى نفسه فاشتغل بالصحافة وغامر فى السياسة ثم صار معلماً وسافر إلى مصر ثم عاد . ثم ترك التعليم والأدب إلى القضاء .. ولكن هل استقر ؟

لقد كانت له أمال ضخام فى بعث الأدب العربى القديم والتراث الاسلامى « ولو قدر لى أن أسلك سبيل الأدب سلوك المسافر المطمئن . لا اتعثر الضال وأرضى من هم الكد للعيش ونكد الحياة الثمينة الجائعة حيناً او ظنف »

لحقق هذه الآمال ، انى لأ قرأ من التاريخ ما يزلزل شعورى وهو على اختصاره وجموده على أساليب العلماء فما له لايصنع الأعاجيب إذا فصل ووسع وطار فى آفاق الأدب ... »

وهو فى سن الأربعين يحس بالألم . أنه لم يفد غير ذكريات واهية . « بقية قلب تناثرت اشلاؤه على سفوح قاسيون فى دمشق . ومسارب الاعظيمة فى بغداد وغابات الصنوبر فى لبنان وعلى طريق الأهرام فى مصر . وعلى ضفاف الشط فى البصرة وحوائط النخيل فى يثرب اشلاء من قلبى وإشلاء .. »

والأدب ماذا أفاد منه، لقد تحول عنه فى سن الأربعين وغير رأيه فيه : « ... أما انى لم أجد الأدب إلا عبثا . ولم أجد الأدباء إلا مجانين . يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه المجد الأدبى . كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا . الأدب الذى أنا تاركة اليوم أو ظان أنى تاركة . ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه وواهب له قوتى ووقتى .

لقد كنت أهزل يوم كنت أفضل الأدب على العلم . واين من اين . على انى أن تركت الأدب فما أنا تبارك الكتابة . وأن من الكتابة لعلما وأن منها لأصلاحا .. »

ولكن على الطنطاوى رغم هـذا أديب له طابع الأديب الأصيل . الانسان المفكر الحى الذى ينتفض ويتدفق ويحلم . استمع اليه « أنا أصرف العمر فى قطع العمر . وأجعل أكبر همى أضاعه أيامى . كانى أعطيت الحياة لأعمل على تبديدها . فاذا لم أجد ما أفرق به الوقت . واضطررت إلى مواجهة الزمان . فى ساعة كساعات الانتظار . ضقت بعمرى . وضجرت وأحسست كانى سأجن . انى اركض ابدآ وراء المستقبل . فنى المستقبل

أبلغ آمالى ، وفيه أصلح نفسى ، وفيه أنيب إلى ربى ، وفيه أكتب تلك المعانى التى طالما جاشت بها نفسى ولم يجر بها قلمى ، ولكن المستقبل لن يأتى أبداً فأنا كالفرس الذى يعدو ويشتد ، ويكد نفسه ليدرك حزمة الحيش ، والحزمة معلقة فى عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ولا يصل اليها فلا يزال يسعى حتى يدركه الكلال فيقع أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ولكن الحفرة التى اسقط فيها أنا لا قيام منها ولا مناص من ورودها »

وهو يطوى نفسه على فلسفة متشائمة عميقة الخبرة بالحياة فتراه كمن ينفض يده من الدنيا نفضاً « إن متع الدنيا أوهام . من لم ينلها تشوق اليها وحسد عليها . ومن نالها ملها وتمنى غيرها ،، ماذا ينفعك أن يكون الناس كلهم يمدحونك إذا كنت منفرداً فى غرفتك مبتئساً ، تعس النفس محزون القلب ، نحن كانا اطفال ، ثم أن الامال لا تنتهى وإذا أنا وصلت إلى الأمل الضخم هان على . وذهب بهاؤه وأمحت روعته كأن الآمال سراب لا يلمع إلا من بعيد »

لقد أحب على الطنطاوى كثيراً وتألم أكثر مما أحب ، ولكن الحب الواحد الذى انطوى عليه قلبى والألم الفرد الصادق الذى عرفته هو حبى أمى وألمى لموتها ، وهو يصور هذا فيقول « لم يبق من آثار هـذا العالم الحافل بالأخلاص والحب الا قبر منعزل وساقية صغيرة تميل عليها شجرة صفصاف

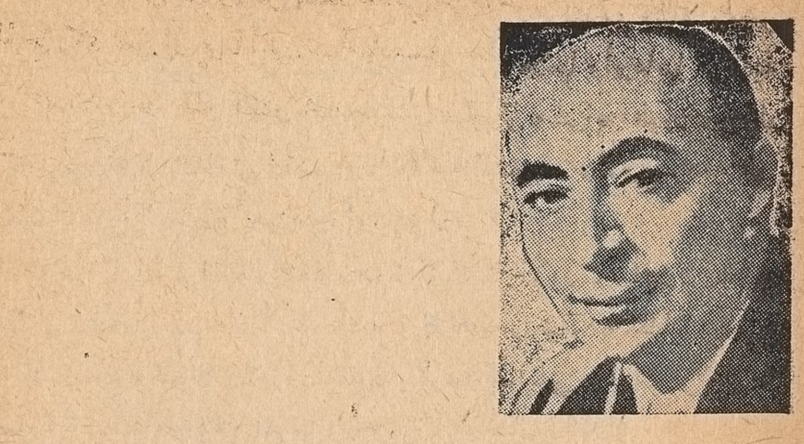
وهو يشكو من ضيق يلم به بين الحين والحين فيعقل قلمه عن الكتابة « ... وحاولت أن أكتب فما سرت فى الفصل غير بعيد حتى تباطأ قلمى ثم وقف . وأحسست فى نفسى بهذا الضيق الذى ما أنفك يلازمنى منذ أكثر من عشر سنين ! فيطفىء وقدة حماستى . ويعقل نشاطى ، ويغلق ابواب الالهام دونى . فلا اكتب ما أكتب إلا لملء الفراغ وتزجية الوقت »

* * *

وبعد فعلى الطنطاوى كاتب حلو الأسلوب جيد العبارة . فيه صفاء وروحانية . وفى قلبه غيره على العروبة والإسلام . وفيه من الشام ومصر ومن الشرق والغرب . وهو نفس مشرقه تصور أحلامها وأوهامها . أشبة بالكتاب المفتوح . ولكنه إلى ذلك كاتب ومفكر له غرابة أطوارهم وتحول نفوسهم . ففيه ذلك القلق المقدس . والعاطفة المشبوبة . والروح المحلقة التى تحب التنقل والتحول والجرى وراء المجهول

وقد اكسبته قراءاته وإسفاره قدرة على العمل الأدبى . وأنت لا تستطيع الا أن تضعه فى صفوف الأدباء بأدبه . كما تضعه فى صفوف العلماء بعلمه . ولقد قرأت له طويلا ولا زلت شغوفا باثاره وقد دفعنى هذا أن أكتب له صورة تحليله عام ١٩٤٣ نشرتها فى جريدة « الأخبار » القديمة

ابراهيم ناجى



لست أدرى لماذا أرانى اتردد وأنا أكتب عن إبراهيم ناجى . لقد كنت أحب هـذا الرجل دون أن أعرفه أو اتصل به . وأن بعض قصائده التى تنشرها أبولو كانت تثير فى نفسى معانى رائعة . حتى أننى ضقت أشد الضيق عندما نقده الدكتور طه حسين فى الوادى سنة ١٩٣٤ وودت لو استطعت الدفاع عنه وأنا فى هذه السن الباكره ..

ولكن قضى الله إلا أن اترتطم به فى مسائل عاطفية بحته . جعلتنى أنقم علية أشد النقمة فقد كان شريكا لى فى قلب حبيب . وكان عزيمى فى صراع وجدانى . ولم يكن فى نفسى الحقد على الأموات غير اننى تلقيت خبر موته بشىء من التشفى .. ولكننى اليوم أحس أن الصراع الذى كان بينى وبينه قد انتهى . وان العاطفة الغامرة قد فترت . وأن الشعور الحاد قد مات . . . وبدأت أنظر إليه من جديد كما كنت أنظر إليه منذ عشرين عاما . بشىء كثير من الأعجاب والتقدير العميق ، وهو هندى شاعر قلق . ترك الجمال الذى فى متناول يده إلى الجمال البعيد الذاهب فى أغوار الضباب . رفض الشىء

اليسير إلى الشيء العسير . وكان محبا محبوبا . قد وسع قلبه كل حب وكل عاطفة .. وكم من فتاة وكم من سيدة حدثتنى عن عاطفتها لناجى وعاطفة ناجى لها حتى كاد يختل إلى يوما أننى لن أصادف فى حياتى واحدة تجهل ناجى .

انه شاعر قد ظلمه القدر فجعله طبيباً « وليس بالطب من جرح وإنما الجرح أن يكون الخيال مركبا فى طبيعة الانسان ، فاذا القدر يواجهه بالواقع ويصدمه . وإنما الجرح أن يكون الشعر مركبا فى طبيعة الانسان بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه فى الدائرة التى لاشعر فيها ولا خيال ، إنما الجرح أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد وشتان بين هذه وتلك . انما الجرح أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك »

ولكن ناجى يبالغ حتما فى هذا ، لأن الطب كان جزءا من الحب وقطعة من الفن ومن الشعر وهو نفسه يعاود هذه الفكرة بصورة أخرى . « الطب الذى ارتبط بالأدب فى حياتى أتاح لى فرصة الاطلاع على حياة الكثيرين من العباقرة الفقراء فلم أضق بهم ذرعا . وكانت النزعة الأدبية عندى تجعل عطفى عليهم مضاعفا . بيت الشعر قد يشفى نفسك المعتلة تماما كما تشفى جرعة الدواء معدتك أو سواها من أعضاء جسمك .

ويعزو ناجى اتجاهه الأدبى إلى قصة « كوبر فيلد » ويقول أن هذا الكتاب وأن يكن نثراً إلا أنه قد خلق منى شاعراً إذ أخذت أبحث عن « دورا » مقلداً كوبر فيلد وكانت دوراً هذه صبيه تجلس بجانبى فى الدرس فى بيتنا . فقلت فيها أول قصيدة . وكانت غزلا أصف به دموعها .

ويقول أنه نظم وهو فى العاشرة وكانت مكتبة والده هى الزاد الأول . وكان ينظم وهو على صخره المكس فى حب . فتاة استرالية ، ثم صار الشعر

سجيه . يهبط إلى ويقتضيني امتضاء العزم . والعزم أحيانا يطلب التسديد عاجلا وأحيانا يمهل »

ثم أحب ابن الرومى وأبى نواس والمتنبى . وأحب شعراء الطبيعة فى أوربا . ورد سورث وغيره وقصيدة الغد من روائع ناجى (مارس ١٩٣٣)

اغدا قلت فعلمنى اصطباراً	ليتنى اختصر العمر إختصاراً
عـبرت بى نشوة من فرح	فرقصنا أنا والقلب سكارى
سـنذم النور حتى يتلاشى	ونذم الليـل حتى يتوارى

وقصيدة الوداع الحنين والحرمان (يناير ١٩٣٤)

حان حرمانى وناداني النذير	ما الذى أعددت لى قبـل المسير
زمنى ضـاع وما انصفتى	زادى الأول كالزاد الأخـير
رى عمـرى من أكاذيب المنى	وطعامى من عفاف وضمـير
على كـفك قلب ودم	وعلى بابك قيـد وأسـير
وهـذه القيود .. قيـود الحب	
اعطنى حـريتى . أطلق يدى	أننى أعطيت ما استبقيت شىء
آه من قيـدك أو هى معصمى	كيف أبقيـه وما أبقى على

إن شعر ناجى يحمل شخصيته . شعر واضح . هو خفقات قاب . لا فلسفة فيه ولا غموض . عاطفة خاصة لا تخالطها الفـكرة التى تفسد القريض .. وهو موله دائما . متشائم دائماً . يحس بالحرمان

وكانما الحب فى حياته كائن حى . لم يفارق حياته لحظة . وهو الذى وصف الحب بأنه قدر كالحياة والموت .

وترى من .. هى ليلاه فى شعره الأخير « اكتوبر ١٩٤٧ »

ليلاى ما أبقى الهوى بى من رشد فردى على المشتاق لهفته ردى
ايذى تلاقينا وأنت حزينـــة ورأسك كاب من عياء ومن سهد
أقول وقد وسدته راحتى كما توسد طفل متعب راحة المهد
تعالى إلى صدر رحيب وساعد حبيب وركن فى الهوى غير منهد

فى قصيدة الصحراء ..

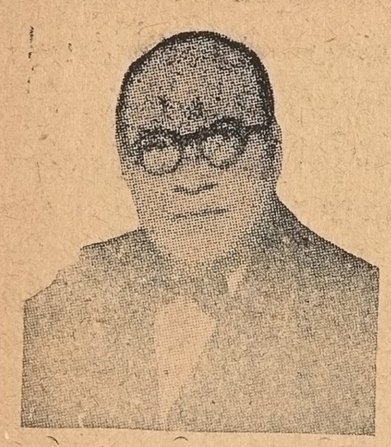
أيه « ليلى » وهل فؤادك ليلى بالذى فى جوانحى لك عالم
شـــهد الله ما قضيت الليالى ناعم الجنب فوق مهـــد ناعم
أى جيشك مغرقى .. حبك الطاغى أم الشوق وحـــده وهو عارم

وكانت ليلاه مريضة فعلا . وكان هو الطبيب . يعالج الروح ويعالج الجسد . يعالج بالحب وكتب علم النفس . وكان الطبيب وفيا يؤمن بقدسية الحب . وكان شاعراً يصور آلامه وحرمانه فى قصائده .

ولعله قد اتخذ اسم ليلى كما اتخذه شعراء الصوفية قديماً أمثال ابن القارض وعبد الغنى النابلسى لتصوير معنى النفس الانسانية فى أى روح جميل

ولست أذهب مع الذاهبين فى أن لناجى فلسفة . إنما هو طبيب استأثرت بنفسه عاطفة حب ضخمة. كان فى نفسه فراغ لا يملأه إلا الحب . وكان شعره تعبيراً عن عن نوحاته وحرمانه .

زكى أبو شادى



أشهد أن اغترابه في سبيل الفكر هو الذى هزنى ، ولا نفى . أما شعره فأنا لا أؤمن به كله ، أنه له عندى صورة الكاتب المكافح الدائب الذى لا يجهد ولا يكل . والذى يضحى بماله فى سبيل الفكر ما ورث عن أباه الغنى من أراضى فى سبيل ابراز أثاره وأثار اصفيائه وحواريه

فأنا أومن بأبى شادى الكاتب . الذى كافح فى سبيل فكرته والذى تصفه السيدة جميلة العلايلى بأنه كان حركة دائبة يتمشى مع سرعة عجلات المطبعة بنشاطه و فكرة ومشاعره فى اعداد مجلة ابولو ومراجعه وتصحيح أصولها والاشراف على إخراج مجلة الامام الأدبية ومجلة مملكة النحل والمجله الزراعية دون أن يعتمد على كائن مهما كان أو يعتمد على معونة حكومية

وأنا اؤمن بأبى شادى صاحب المدرسة الجديدة فى الأدب الذى احتضن عدداً من الشعراء والأدباء فاخرج لهم مؤلفاتهم واثارهم وابحث عن صنوه فى زمننا هذا فلا أجده

ثم لما أحس بأن الرجعية أخذت تفسد عليه حياته هاجر إلى الاسكندرية ولكنها لم تدعه . كانت ممثلة في صورة الصراع الحزبي البغيض . وكان متهما بأنه مدرسة أدبية أنشأها عهد ليضرب بها العهود . . عندما أحس بأنه لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه حرة طوى رداءه وأغلق حقائبه وسافر . .

« .. من أجل الحرية آثرت الاغتراب عن وطني حينما تجبر الطاغوت يضرب المفكرين يمنه ويسره . ولأجل منبري الحر وطلاقتي الفكرية والروحية احتملت مشاق النفي الاختياري ماديا ونفسيا لأني وجدت هذه المشاق لابد منها لانقاذ نفسي وتحقيق رعايتي بقلمي ولساني لمسقط رأسي الحبيب ولخدمة مثلي الانسانية .. »

وسافر في عام ١٩٤٦ ولكن اسمه ظل مختفياً حتى عام ١٩٥١ عندما بدأنا نقرأ له بعض رسائله إلى أصدقائه في مصر وفي مقدمتهم تلميذته جميلة العلايلي التي حملت فترة من الوقت لواء الدعوة إلى عودته . ولكنه كان قد استقر هناك بصفة نهائية . حتى توفى هذا العام (١٩٥٥)

وكان أبو شادي يحب أبي العلاء وابن الرومي والمتنبي . وكان مغرما بشكسبير وملتن وكيتس . وقد عاش في انجلترا عشرة أعوام وعاد إلى مصر ١٩٢٤ فعاش بها حتى عام ١٩٤٦ وفي خلال هذه الفترة أصدر مجلة أپولو وعدداً من دواوين الشعر . فقد كان الشعر عنده سجية طليقة . وقد حدثني عنه الأديب الشاعر الأستاذ محمد أحمد رجب بأنه كان يزور ميت غمر بصحبته وعلى طول الطريق كان في يده ورقه وقلما فما من منظر رائع إلا وأحاله على الورق شعراً حتى اتى بالاعاجيب في سرعة النظم .

وعاش في أمريكا تسع سنوات . وكانت زوجته قد توفيت عشية مغادرته للثغر فمضى إلى الغربة وحيدا بغير السيدة التي جمعت بينه وبينها عوامل شتى من الحب والزمالة في بريطانيا . .

وهناك مضى ينتج وينشر فى صحف مصر وسوريا ولبنان . وكل صحيفة تصدر باللغة العربية .. وقد ترك عدداً من دووايـن الشعر ، يقول الاستاذ الياس بدوى « انه كان فى أيامه الأخيرة يريه لفائفها . . ويتحدث معه فى فى قلق واضح ، حديث المشفق على أعز إنتاجه من الضياع ويسأله متى يتاح لهذه الدواوين أن تنشر وهل يمتد به العمر ليراها منشورة مجلدة ويستدرك فيقول أنه جاوز الستين ولكن عزيمته لم تهن وقوته النفسية تستطيع أن تذلل مصاعب المرض .

وتزوج أبى شادى فى أيامه الأخيرة وعاش يكتب لصوت أمريكا ويعد آثاره الجديدة للطبع ويساعد زوجته فى زراعة بعض شجيرات الورد فى ممر الحديقة المؤدى إلى باب الدار .. ويقرأ كل شيء يصدر فى الشرق ومصر .. وصديقه الأستاذ وديع فلسطيني يرسل إليه كل أسبوع طردا ضخما من آثار الفكر التى تصدر فى القاهرة فضلا عن قصاصات الصحف . وكان إلى ذلك يرسم لوحات رائعة يزين بها داره فى واشنطون .

كانت روح أبى شادى شابة ثائرة قلقه . لاتفتر ولا تهمد . وكان يعمل الليل نهار فى سبيل الفكر والأدب وقد طواه الموت . ولكن آثاره ستظل بقيه . ومكانه فى الأدب العربى المعاصر لايزال مكينا .

محمد زكى عبد القادر

نفس قلقه طموح . تخفى قلقها وراء ستار من التجمل والتوقر . وتريد أن تعطى صورة الهدوء والسلام والاعتدال . أنه قلب خفاق حى . ولكن مع عقل قائد غير مقود . إن دراسة الاقتصاد لم تعطه الجفاف . بل اعطته المنطق . ولم تحرمه العاطفة ولكنها أمدته بسلامة الحكم . ونصاعة الفكرة .

لقد درس القانون . واشتغل بالصحافة . ولكنه طوع قلمه لاسلوب أدبى ممتاز . لم يجعله صحفيا صرفا . ولا من أهل العلم والأرقام والماديات فهو جماع متسق من العاطفة والعقل — والصحافة والأدب . والبيان والفكرة وفيه الوضوح والنصاعة . وفيه الاشواق والحيرة .

وهو يحس أحياناً بأنه فى حاجة لأن ينطلق وينسى ذكرياته وآلامه ومتاعبه . « وكان الحر شديداً والليل ينشر ظله الرقيق فابتعدت عن الناس

« أخذ النسيم يرق وقد انتصف الليل أو كاد . القمر هادىء صاف .

ينشر نوره فى سخاء ورقه . والأهرام على خطوات منى . والسيارات رائحة غاديه . اسمع أصوات ضحكات ناعمة فاترة . وأحيانا لا أسمع غير عجلات تنزلق على الأرض فى سرعة خاطفة . ونور يومض من وقت إلى آخر . وتفيد ينطلق . من يدرى إلى أى غاية ؟ ترى أى قدر ينتظر هؤلاء الضاحكين . وأى قدر ينتظر الذين أظلمت الدنيا فى وجوههم .

ومر شريط سريع أمام عينى تلوت فيه حياتى من أولها ، لا أكاد أحس أن السنوات مرت .. والعمر ، ما هو العمر ؟ هل يعد بالسنوات التى مضت أما بالسنوات التى تجىء أم باليوم الذى نعيش فيه .. »

وهكذا ، حيرة نفس مشوقه إلى مجهول ..

وهو محب للرحلة شغوف بها « ما أحلى أن يطوف الانسان فى الأرض ما يطوف وأن يرى ما شاء أن يرى ، ثم يعود إلى وطنه فاذا فى قلبه حنين وفى صدره همس رقيق » وهو يهرب من الحياة الرتيبة إلى الوحدة فى رمضان « .. أفطرت اليوم وحدى . لم أشأ أن أذهب إلى البيت . إنى أشعر أحيانا بحاجتى إلى الوحدة كما أشعر بحاجتى إلى الالفة وخرجت إلى شارع الهرم ، ووقفت تحت ظل شجرة ، بينما كانت الشمس تغمض أجفانها لكى تنام ،

وأكلت ونظرت وتنفست وتمتعت و تأملت ، وشعرت وأنا وحدى كاننى مفعم النفس والقلب والصدر بمئات الأصدقاء ، أحسست أنى اسمع النجوى من الشجر والزهر والنبت .

كانت بضع سيارات قليلة تمر منطلقة كالسهم وفيما عدا ذلك كان الهدوء ، كأنه قداسة الايمان ، والطبيعة كأنما محراب لا يجترىء على دخوله انسان ، كأن فى شبه خلوه ، فيها همس المحبين ، ودلال العشاق .. ،

وساءلت نفسى : من أنا ومن أكون ، من اين جئت وإلى أين المصير ،

« ذره فى هذا الكون العظيم ، شىء تافه صغير . »

هذه هى النفس الشاعره ، الحيرى التى يتحث عن المجهول

ولعله قد صور نفسه فى لوحة « نحو النور » هذه فاغنانا عن البحث وراء طبيعته وفلسفة حياته .

دان له من المجد ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المجد ، و ... له من الشهرة ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم الشهرة ، وأفاء الله عليه من نعمة المال ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المال ، وأحبه الناس كما أراد ، حتى سئم الحب وسئم الناس .

وها هو ذا فى قمة الحياة يشعر بالقلق نفسه الذى يشعر به من لايزالون فى القاع . . لم تصبح المجد أو الشهرة أو المال أو الحب أشياء تستهويه وهو يسأل نفسه أين المستقر ؟ أين اللحظة التى يطمئن فيها القلب ، ويزكو الفؤاد ؟

هل السعادة أن نحصل على كل ما نريد ، أم أن يظل أمامنا هدف نسعى اليه ، أليس للجهاد نهايه نقف عندها ونقول هذا موعد الحصاد ؟ أليس فى صحراء الحياة واحة نبلغها فنشعر أننا أوفينا على الغاية وآن أن نستريح ؟ أم أن الكائنات الانسانية شمعات تظل تحترق وتذوب إلى أن تنطفىء ، يختلط فى حياتها النور بالنار ، والهدوء بالقلق ، والسكون بالثورة ، والنجاح بالفشل .

وماذا يكون لو خلت الدنيا من الهموم والمتاعب والأحزان والآلام ماذا لو سارت رخاء كأنها طريق مفروش بالورد والأزهار ؟ هل تحلو؟ كلا أن الحزن ضريبة الفرح ، والفشل ضريبة النجاح ، والفقر ضريبة الغنى ، والكراهية ضريبة الحب . أن لكل شىء نقيضه ، ولولاه ما كان ، ولا

يتصور نجاح يشيع فى النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع فى النفس أمواج اليأس والقلق .

ليس الاحساس بالسعادة متصلا ولن يكون ، وليست السعادة مرحلة قائمة بذاتها فى الحياة ، ولكنها لحظات تغمر النفس عند كل هدف يتحقق ثم يعود القلق ويتجدد ، لتتهيأ النفس إلى احساس بالسعادة جديد .

والوقوف غير متصور فى الحياة لأنها قائمة على الحركة ، والدوام مستحيل لأنها قائمة على التحول . والتعود على أجمل الأشياء وأعلاها يفقدها قيمتها . وهذا هو سر القلق ، وهو سر الحياة »

وهكذا أمين بما يتميز بهطابع « المثالية » التى تطابق بين شخصيته وكتاباته . فهو رجل لم يتحول منذ بدأ يكتب . منذ ثمانية عشر عاما . نصف عاموده فى الأهرام ثم فى الأخبار .

وهو من كتاب الاجتماع المعتدلين الذين الذين يحبون الحضارة الحديثة ويحبون معها الشرق . وهو من الذين لايحبون الخصومة أو الصراع . وقد شغلته الصحافة عن التأليف والانتاج الخالد .

بدأ حياته الأدبية فى السياسة ومن كتاباته فيها اصدر مجموعته الأولى « صور من الريف »

وهو يحب الصحافة ويرى أنها مهنة أختارها له القدر « ذلك انى درست الحقوق وكنت طوال دراستى أحلم بأن أكون محاميا ، ولكن ما همست إلى به أحلام شبابى الأول شىء ، وما كان القدر يعده شىء آخر ، فلم أكد اتخرج من كلية الحقوق حتى دعانى الأستاذ كامل البندارى المحامى وعضو الأحرار الدستوريين حينئذ للاشتراك فى تحرير جريدة السياسة وكان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الدكتور هيكل ، ونعمت بالعمل فى الصحافة فترة

من الوقت ، فقد شاقنى فيها أنها حركة ويتقظ وسعى وتجدد ، ولكنى ضقت بها فترة أخرى ، وكدت أهجرها ، لما لاحظت أنها تخدع ببريق ظاهره وفى باطنها تملق العيش وضيق المستقبل . وكدت انتقل إلى العمل فى المحاماه لولا الحنين المكتوم القديم لصناعة التخاطب مع الجهور والانفعال به والسعى له والدفاع عنه عصمنى من الاندفاع إلى مستقبل آخر ، لقد مرنت أن أعيش فى أعماق الحياة لا على هامشها . والحياة عندى انفعالات وتعبير عنها . وليس كالصحافة عمل يمزجك بالحياة ويمزج الحياه بك .»

وهو يعاود فكرة الرحلة فيقول انه لولا مسئوليات ثقيلة لقضىء العمر يتنقل فى بلاد العالم، يرى وجوها جديدة وأخلاقا جديدة . وانه ليسام أجمل بقاع الدنيا بعد أيام ، فيشعر بالرغبة فى الانتقال منها إلى بلدلم يره . «وانى لأسف أن أرى سنوات العمر تمضى دون أن أزيد علما بهذه الدنيا التى أعيش فيها . وخير أن يعيش الانسان بالعرض لا بالطول»

ولا يتصور نجاح يشيع فى النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع فى النفس أمواج اليأس والقلق ويرى أن الأمل جوهر الحياة ، وأن السعادة ليست إلا ومضات خاطفة من الاوهام .

هذه خطوط من نفس كاتب ، لاتطغى عليه الصحافة فى أسلوبه ولا تجرفه فى أفكاره.

محمود كامل

ما أظن أننى تأثرت لكاتب فى مطلع شبابى كما تأثرت لمحمود كامل . حتى لأظن أن الرؤى والأوهام والأحلام التى دفعتنى فى طريقى إلى الصحافة والأدب والقاهرة . . كانت أحلاما فى قصصه التى قرأتها أعوام ١٩٣٣ وما بعدها .

وقد عشت فى هذه القصص حياة أبطالها . وأثرت فى نفسى قصة «حياة الظلام» بالذات ولقد كانت هذه العبارات تملأ نفسى ،، وتتردد فيها كأنها أنغام حلوه ناعمة .

« فاطلت النظر اليها ، إلى عينها العجيبتين اللتين كانتا تبرقان فى ظلام الكوخ الخشبى بريقا يثير الرهبة والخشوع . خيـــل إلى أنهما جذوتا نار تطفوان على سطح محيط طال وقوفى على شاطئه فى ليلة قارصة البرد . كان يبدو لى كأنما حلمت بهاتين العينين من قبل .. »

ولكن اين محمود كامل الذى دأنت له القصة طويلا .. اين هو الآن

لقد كنت أثق بأن محمود كامل يعيش حياة قصصه وحياة أبطالها وأنه ينبعث عن نفسه . عن صميم حياته . عن نفس الأحلام التى تعيش فيها روحه

لقد خلف القصة منذ زمن طويل ومضى يشق طريقا آخر لعله يظنه أقرب إلى المجد وانا أربط دائما حياة محمود كامل بقصته الخالدة حياء الظلام فهى تصوره وقد بدأ يتصل بالمجتمع بعد أن أحرز الليسانس واتصل بأوساط الهوى ، وبالسيدة الموسرة التى فتحت له أبواب المجد الأولى .

ويمتاز أسلوب محمود كامل بالعاطفة المضطرمه والبشاشة والاشراق . وفى فنه تنويع وتلوين . كما تحتوى قصصه الكثير من اللمحات الوجدانية الصادقة .

ولعل مصدر الاشراق فى أسلوبه هو أنه يصور حبا واقعيا ، وضراما حيا فى نفسه ، كان يطعم به الاحداث فى قصصه التى تجرى فى اتجاه واحد .. هو التمرد على الواقع يعبر عن هذا المعنى فى مقدمة مجموعته القصصية المتمردون التى صدرت يونيه ١٩٣٥ « .. أن هناك وحدة معينة تشع فيها ، وتسمها بطابع خاص ، تلك الوحدة تتلخص فى ثورة الشخصيات البارزة فى كل قصة منها . ثورة تتجه اتجاها معينا وفق الموضوع الذى كتبت القصة من أجله . تلك الشخصيات المريضة المضطربة المتناقضه . تلك الشخصيات التى تفكر وتطيل التفكير . وتزن الحياة بميزانها الخاص . وتحاول اخضاع الحياة كلها لوحى أعصابها مهما بلغت ثورة تلك الاعصاب . سيرى القارىء أن تلك الشخصيات التى صادفتها شخصيات .. تتمرد وفق حالة معينة . لها مثلها العليا الخاصة بها . فهى تتمرد فى سبيل تحقيق ذلك المثل مهما كلفها هذا التمرد من بذل وتضحيه .. »

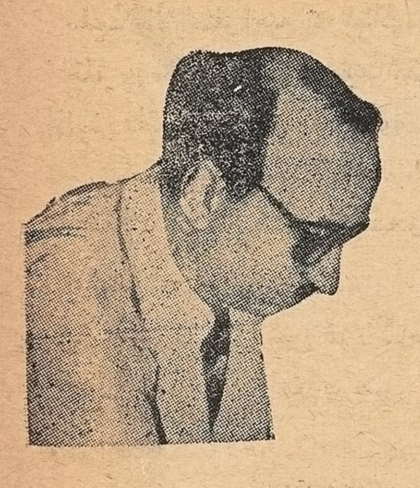
وليس شك أن محمود كامل على رأس مدرسة من مدارس القصة الافرنسية المعربة . هو كاتب الطبقة الوسطى . نشأ فيها وكتب لها . ومثل هؤلاء

الكتاب الذين عاشو فى غمار الحياة يكونون أروع إنتاجا وأصدق أدبا وأخلد أثراً حين يصورون هذه الأوساط . ولكن محمود كامل يحرص على أن يصور الحياة الارستقراطية . بيئات القصور والسيارات والصالونات ، وهو يخفق فى هذا إخفاقا لاشك فيه كأن يتمنى هذه الحياة وينظر اليها من بعيد . ليس شك أن محمود كامل . كان يطمع فى أن يصل إلى هذا اللون الرفيع لحياة . وكان يتمناه . ولذلك كان يجد فى تصويره على هذا الوضع ، لونا من الانتقام والقصدى يرى نفسه ربا من الأرباب يستطيع أن ينتقم من أبطاله ويذهب بهم إلى الجحيم .

وإذا كانت قصص محمود كامل تستجيب للنفس الانسانية فانها تستجيب لنوع محدود . انها تثير فى نفس الشاب المحروم ظمأ ، ولكنها لاتطفىء عنده لوعة .

وهى ليست من النوع الذى يدفع إلى المثل الأعلى أو التسامى على دعوة الغرائز بل لعلها تدعو إلى نداء الجنس ولعل مما يؤخذ على محمود كامل انه كتب فى مرحلة الشباب ثم اختفى وذبل فنه وتوارى إنتاجه بعد أن ارتفع به العمر ولعله وصل إلى الشهرة والمجد من طريق آخر . ولكن فنه الاصيل كان أولى به إلى آخر الحياة .

الحب فى حياة الصاوى



قالت[1] ايزا لصاحبها عند ما تحول عنها إلى غيرها « أنت كاتب لا تبحث عن المرأة والحب فى ذاتهما بقدر ما تبحث عن أثرهما فى نفسك ، ليتحول الأثر بعد ذلك حبراً على ورق فانت تبحث دائماً عن طعم جيد وعن طابع غريب ، لا تحاول ان تحتال لهذا وأن تتلمس المغفرة . فلا ذنب لك ، إنها طبيعتك ، طبيعة الفنان الأمين الذى يسخر كل ما حوله لخدمة فنه » .

وقد أحب الصاوى ، وسجل صفحات حبه فى كتاب حياة قلب ، وقد عاش يبحث عن الرفيق وصوره فى صورة رائعة ، فهو رجل لا يهمه علم ولا جمال ولا مال ، ولقد رأى من هذا كله الشىء الكثير ، لأنه من ذلك النوع البوهيمى الذى يظل عنيداً كانه اصم اعمى ، حتى تمر فى حياته امرأة ، امرأه واحدة ، فيرتجف وينتفض انتفاض العصفور بلله القطر ويسلمها

(١) كتبت هذا الفصل سنة ١٩٥٣ وقد اجريت فيه بعد التعديل عند ما أعددته للطبع

حياته ... وسواء لديه سارت به إلى الصدرام إلى القبر ..

لقد بدأ الصاوى حياته الباكرة محباً عاشقا .. كان طموحا . لا يريد الحياه على تلك الصوره التى تعيشها الموظفون . وزهد فى العمل الرتيب . ورنا إلى أفق أعلى ، وإلى حياه أخرى ، إلى باريس ، مدينة النور وبدأ يحب شيئاً محرما على من كان فى سنه . وكان هذا الحب كفيلا بأن يجعله يكره كل ما عداها . كيف كانت تلك التى تجسدت له فيها : الملهمة !

كانت سمراء طويلة ، نحيلة ، رشيقة ، وكان فيها ذلك السر الذى سيظل طول عمره يجتذبه فى كل بقاع الأرض .

« المرأة المترفعة ، كانت عزيزة ، عزيزة المثال . كان دونه ودونها الأهوال وهو يحب الحب لأهواله ، لن يطيب له يوماً الحب الرخيص . لن تطيب له امرأه كل الناس . سيعجب بالجارية الشمطاء إذا كانت له وحده ، ويجتوى الكاعب الحسناء ، إذا كانت نهباً مقسما مباحا للناظرين .

« إنه شديد الأنانية فى الحب ، وفظيع الغيرة .

فجاءت هذه الفتاة فسخرته ، بصورتها وصوتها .. وسحرته قبل هذا بترفعها وكبريائها ، لا تنظر إلى أحد ، وهو هكذا يريدها ! ولا توزع النظرات جزافا .. كأنها لا تجد رجلا يستحق النظر إليه .

« لم يكن أمامه بين بين ، لم يكن يسعه إلا أن يختار بين العلم والعشق ، بين البكالوريا وفتاة أحلامه ..

« لم يكن فى السن التى تقدر العواقب ، بل السن التى يحول فيها المعان العيون دون رؤية الحقائق .

عيناه اللتين كانتا ضاحكتين ، لم يطفىء من نورهما السهر والمطالعة والدموع .

« ولو أنه قدر العواقب يومئذ لكان مصيره مثل مصير الوف الذين انتظمت دراساتهم واتموا علومهم ، ودخلوا تلك الخانات المرتبة بالدرجات والعلاوات ولكان رقما من الوف الأرقام ، وهو لا يعتقد أنه الآن أسعد حظا ، فللسعادة مقاييسها الغريبة ، ربما كان يسعد ويهنأ بالدرجة الثامنة ثم يزداد سعادة وهناء بالدرجة السابعة ثم يطغى عليه الهناء والرخاء إذا عاش ومات فى الدرجة الخامسة .

« ربما كان يسعد ويهنأ إذا تزوج فى العشرين ، وانجب الأولاد والبنات ، وكانت امرأته تزهو بقطعتين من الشيت صيفاً ، وقطعتين من الكستور شتاء من بنزيون .

ربما كان يسعد ويهنأ إذا تمكن فى كل أسبوع من شراء شمامة أو بطيخة تزعزع قلوب الأولاد ، وإذا شرب من قلة ماء حتى ارتوى ، وإذا ، وإذا « وإذا لم يعرف ما هى المعرفة حقاً . وما هو الحب حقاً . وما هى أوروبا وما هى الثلاجة الكهربائية .

« ما كان ليرى أو يعرف أو يتعلم ، أو يحب ، لولا أنه أدرك من ساعات مراهقته الأولى ، أن فى الحياة نشوة روحية هائلة تسمو على كل المقاييس والموازين هى التى قد تزعزع الدرس وتهز كيان المستقبل ، ولكنها هى هى علاقة النفس الموعودة بالوجود ! والخلود

« كان فى ذلك العمر الباكر يرى الدنيا ماثلة فى صوره تلك الفتاة النحيفة التى تضع فى أذنيها قرطان من الذهب ، هما كرتان صغيرتان متدليتان و تضع فى رسغ اليسرى سلسلة رفيعة من الذهب بدل الخلخال .

« كانت مثله تسبق زمانها ، وعرفت لساعتها الأشياء الرفيعة ، كيف تأسره ، ولم يعد أحد من رفاقه يستطيع النظر أو الإشارة الا تلميحا

أو اعجابا ، « كانت له قبل أن يصير لها ، إنها لن تصير له ، إلا فى خياله » فقد كانت بينه وبينها جبال وتلال ، من الخيالات والاحلام » .

* * *

هذه هى قصة الحب الأولى ، هذه هى أضواء الفجر على حياة حافلة .

ثم كانت قصة « آدا » .

« كانت عيناها مزيجا مدهشا من الظلمة والنور ، من النعاس والظلمة ، من الخيال والحقيقة ، من التضحية والتمرد » .

وسافر الصاوى إلى باريس وعاش هناك واحب .

« ذلك الدور العنيف من حياته المقيد فى الشرق بقيود الحرمان ينطلق فى الغرب بغير حساب

انمحت من حياته تلك الحلقة النارية فهو لا يحاول بهذه الصفحات زهواً ولا مباهاة ، وإنما أراد أن يرد إلى الشباب بعض وديعته الغالية ، هى حياة قلب غض بكل ما فى الحياة من محاسن أو مساوىء » .

كانت هناك قصص ، لقد كاد الصاوى أن يعيش هناك ، وأن يسلم حياته كما قال ، ولكنه تذكر القيود التى ارتبط بها فى مصر .

« كان غارقا فى مسئولياته ، هل هو طائر طليق حر فى حياته ؟ كلا أنه مقيد إلى حد ما ، إلى حد كبير ، بمسئوليات أدبية ، إذا أنكرها تنكرت له المادة . وهذه رسالة من حبيبته ألتى هجرها ، تعطى صورة لذلك الوفاء ، وفاء امرأة غربية لشاب شرقى ، وفاء فى الحب ، وهناك من جانب الشاب وفاء آخر ، وفاء فى الحب أيضاً ، أنه صراع عجيب ، ليس مسئولا عنه هو ولا هى ، وإنما القدر !

« أنك ستبحث طويلا ، لن تجد حبي ولا قلبي ، إنني وهبتك هذا القلب منذ رأيتك وحدثتك ، ولن أستطيع أن استرد هديتي ، وإن كنت انت ترفضها سيظل قلبي وفياً لشخص مجهول مر في حياتي » .

ويصور الصاوى الحب على انه صراع ، على أنه حرب .

« أيكون الحب صراعا أبدا قتالا ، ولو كان ظاهره الوئام والسلام ..

أيكون الحب كله ، حتى فى أقصى نشوته قائما على شهوة الانتقام ، ولذة الإيلام ، الويل للحبيب من الحبيب » .

وهذه قصة أخرى من باريس .

والصاوى لا ينسى ، أن الذكرى تحفر فى قلبه آثاراً بعيدة المدى .

« قلت فى نفسى ترى ماذا يكون حالى لو إنى رأيتها وسمعتها فى سن العشرين أن السنين القليلة التى عشتها بعد هـذه السن قد انقذتنى من شر مستطير ، أو حرمتنى خيرا كثيرا ، إذ من يدرى فى الواقع أين هو الخير من الشر ، ربما فتحت لى هـذه الفتاة أبوابا من العزاء أو الهناء لو إننى اتصلت بها وأوثقت معها عرى الود ولكننى نفرت منها ، كانها أفعى !

فلماذا فررت ونفرت ، اهى قراءتى وأدمانى المطالعة والنظر فى تاريخ الغابرين وتجارب المعاصرين هى التى حملتنى على النفور والفرار !

أم أن شيئا خفياً يحرسنى ويذود الشر عنى كدعوة أم حنون أو يدلى مسلم مسحت على رأسى فى طفولتى أو شبابى ، أو بركة كاهن اسرائيلى شملتنى فى طريقى إلى باريس ، أم هى حياتى الذاتية المتعلقة بغيرى الرازحة تحت عبء مسئوليات خطيرة فلا أستطيع أن أمرح طلقا كالعصفور يوماً واحدا لئلا أعود إلى القفص مهشم الريش مقصوص الجناح .

ويعود الصاوى من باريس ليستقبل حياة جديدة ، و اشرق نجمه

اشراقا سريعاً ولمع لمعانا خاطفا ، وكان بهذا هدفا لحب جديد .

ومن حب إلى حب وعاد الصاوى إلى حيرته ..

« قال لها بصراحته المعهودة التى تبلغ الوقاحة أحيانا . ماذا تريدين ، إن زواجا ان يكون بيننا ، فأنت حديثة السن وأنا لم أعد فتى .. وأنت ذات نشأة انجليزية وأنا أحب اللغة الفرنسية . وأنت لست موفورة الاناقة وانا اهيم بالمراه الانيقة . ولو كانت أبشع بنات حواء ..

ثم قبل هذا كله . أنا لا أفكر فى الزواج ولا أؤمن بالزواج وأمامى جهاد طويل ... »

ولكن الصاوى مايزال فى حيرته .

« احترقت الاسلاك واحترقت الضلوع ، ثم كانت الرؤيا ، فرت نجاتمها الازلى على القلب بطابع الحب ، ولكن ذاك عهد من حياتى قد مضى بين تشبيب ، وشكوى ، ونواح !

« .. إن الكاتب فى حاجة دائما إلى تلك المخدرات الروحية التى تجمل فى نظرة العيش . وتلونه بألوان بهيجة .. وتجعله يسمع فى نفسه أراء لا تحددها الرغبة ولا الفتنة ولا الغيرة ... »

ولكن .. هل يجوز الكاتب أن يتزوج ! وأن يقيد نفسه ، وهو الطليق الذى يجب عليه أن يطير ويذهب إلى اقصى الأرض فى سبيل مهنته وعمله .. »

وهل يسعد الكاتب الذى يحب مهنته اذا تزوج !

هذه القضية .. التى عاشت سنوات فى نفس الصاوى وتفكيره وأشد ما يكرهنى فى الزواج فكرة الأولاد ، أنا لا أرى نفسى أنانيا إلى حد أطمع معه فى الذرية ولا يبقى فى العمر ما يسمح بتربيتها حتى تكبر . ولا فى القلب

ما يسمح بأن يذوب لهفه على طفل عليل بين البكاء والعويل ومن أشد ما يكرهنى فى الزواج أيضاً ، هو فكرة حرمانى من الأسفار ، والرحيل عن الأوطان ، فانا الآن رجل خفيف — احمل لا اظل — أستطيع أن أسافر إلى أى مكان فى العالم بعد ساعات واصل إلى أى ركن فى الأرض بعد ساعات ، وليس ورائى عة ، والزواج علة العلل ، لأن الرجل الزرار الطيار يربط ذيله بوابور الزلط .

وفكرة السفر إلى بلاد واق اواق هـذه ليست بدعة ، إنها جزء لا يتجزأ من حيـاة الـكاتب ومن روحه ، ومن فكره ومن جسمه جميعاً ، إن كل حقائبه هى قلمه السيال ، فيستطيع أن يكسب عيشه فى كل مكان فهواية الكاتب الرحالة هى التى تشجعه على البحث عن الشخصية الإنسانية اكثر مما يستخفه على الجرى وراء المواقع والنجوم ، أو حتى آيات الفنون التى كانت دائما تشغل عشاق الأسفار من عهد سليمان إلى عهد كوك .

« إننا قد ننشد جبال سويسرا المتوجة بالثلوج الناصعة ، ولكننا ننشد قبل ذلك الناس فهم الذين يقودونا فى مسالك الأرض وفى لجج البحر وفى طبقات الجو ، شاعرين فى مسيرنا بذلك القلق الذى لا يمل والذى يسوق الرحالة الأصيل كما تسوق المرأة دون جوان .

وإن هذا الهناء الروحى المنسوب إلى الحياة الزوجيه هو الهدوء .

والكاتب يتطلب الاضطراب الزواج هو النظام ، والكاتب يحب الفوضى وهو الاتزان ، والكاتب ينشر التزعزع والزواج هو الاستقرار .

فاننا لكى نكتب يجب أن يختل ميزاننا ، ويتزعزع كياننا ويضطرب حالنا ، ويخفق أشد الخفوق ، فؤادنا ، ومن ثم تنشأ عن الحياة الزوجية تلك للغيبوبة السعيدة التى تشبه تدخين الأفيون ، فلا يفيق المرء الا مصدع الرأس ، رخى الأعصاب ، فاتر الفكر ، هامد الشعور .

« وهكذا يقارن فضان أسنا بين حياته الزوجية الخامدة الهادئة تحت انقاض الهدوء والملل فى بيئة الأمن ، وبين كل تلك اللذات الروحية والجسدية التى صارت حراما عليه فى شكل البيوت والفنادق أو البنسيونات التى تؤويه خلال رحلاته ، المبنية من حجارة أو خشب ، المقامة على ضفاف البحيرات الصافية ، أو الصخور الزهرة ، أو تحت سفح الجبل ثم تلك الحدائق الغناء التى ليس لها أبداً نفس الزهور ولا نفس الظلال ، ثم ينابيعها وجداولها المترقرقة ذات الموسيقى ولا ذات الانغام ، ثم شمسها التى لاتدخل أبداً من ذات النوافذ ، ثم امطارها التى لا تهطل أبداً لمستوى واحد فتهطل مرة رزاراً ، ومرة مدراراً ، ثم الخادمة التى ليس لها قط ذات الابتسامة ، ثم أصوات أولئك المارة او الباعة الذين يتجولون تحت نوافذه ولا يتكلمون أبداً بذات اللسان » .

هذه حيرة الكاتب بين الحب والزواج والرحلة ، يصورها الصاوى على إنها أقسى مرحله فى حياة الكاتب حين يريد أن يضحى ، أو يمضى أنانيا وراء فنه ومهنته .

ابراهيم المصرى



يلتقى ابراهيم المصرى مع أحلامى ، فهو فيما يكتب وفيما يترجم وفيما يلخص عن كتاب الغرب يصور النفس الحائرة المحبة المتطلعة إلى المجد والحب وهذه هى الزاوية التى يواجهها دائماً . إنه ظامىء إلى الكمال الروحى يبحث عن وسائله وأسبابه . ويقول أن هذا الكمال لاسبيل اليه لأن المجتمع يضطر صاحب المثل العليا إلى النفاق ليعيش وأن القليل منهم هم الذين استطاعوا التغلب على الغرائز والسمو عن انصاف الحلول وانصاف الفضائل . ويعد تولستوى استاذه الروحى فهو عنده الفنان الأكبر الذى دعا من الصفاء .

ولقد قرأت له منذ عام ١٩٣٠ وأعجبت به . وشاقنى أسلوبه العربى البليغ وتناوله للموضوعات وحرية رأيه . ولعله أول من كتبوا الدرامات المسرحية وقصته « نحو النور » التى نشرها متفرقة فى البلاغ وضمها كتابه الفكر والعالم قد سبقت « أهل الكهف » التى كتبها توفيق الحكيم والتى عدت فى تقدير بعض الناقدين أول قصة من قصص الحوار .

ولعل هذه القصة تمثل شخصية كاتبها . فهى كما وصفها « مرحلة من حياة عبقرى » تدور حول الصراع الذى يلقاه الفنان فى بيئته وبين زوجه وأهله عندما يحس أن أحداً لا يفهمه أو يتجاوب معه .

ولقد عنى ابراهيم المصرى بأدب المقاله وتخصص فيها . ولكنه عكف فى السنوات الأخيرة على قصص الحب وكتاباته وتناول الحياة الاجتماعية وعندى انه كاتب الحب الأول فى مصر . وله فى هذا أراء رصينة جاءت نتيجة دراسات مستفيضة وخبرة واضحة .

« أى قيمة للجمال الشائع فى نظر الحب . الحب لا يحفل بمظاهر الحس البراقة التى اصطلح عليها المجتمع . الحب يتصيد الجمال الخفى . الجمال المستور .. »

ومن نظرياته التى التقى معه فيها قوله « الحب فى نظر المرأه هى كل شيء . ولكنه لن يكون أبدا كل شيء فى نظر الرجل . والمثل الأعلى للمرأه هو كمال العاطفة . والرجل الذى يتغالى فى العاطفة . ويسعى لاكتمالها تحتقره المرأه من أعماق نفسها وتكرهه لانه ينافسها . أما الذى يحبها وهو لا ينفك يؤكد سلطانه بالبحث عن قيم عليا أغلى وأثمن منها ، فهو الرجل الذى تعجب به وتحبه وتشجعه لانها ترى فيه رمز الرجولة التى لا تناقص طبيعتها .. »

وهو يصل إلى جوهر النفس الانسانية ولبابها فى تصوير هذه التجربة « كثيراً ما نشعر أننا فى حاجة إلى الحب . ثم نتلفت حولنا فلا نجد المرأه المثالية المنشودة التى نبحث عنها فنهرع إلى أية امراه تلقى بها الظروف فى طريقنا ثم نحاول أن نصطنع الحب بها . ولكن الايام تمر واصطناع العاطفة يغدر بنا وينقلب شيئاً فشيئاً إلى استهواء ذاتى يجذبنا اليها ويربطنا بها ويدفعنا

بالرغم منا إلى حبها حبا قويا عنيدا لم نكن نتوقعه أو نحلم به . ثم نستفيق فاذا المرأة التى تورطنا فى حبها تبدو أمامنا على حقيقتها مخلوقا شائعاً تافهاً سخيفاً لا يمت بأى صلة إلى الصورة المثالية التى كنا ننشدها ، فنحاول أن نقاوم ولكن العادة المستبدة تتمكن منا .. ونصل إلى المرحلة : أننا نحب امراه ونشعر فى الوقت انها غير خليقة بنا . وأننا فى صميم نفوسنا لا نستطيع ونحن نحبها إلا أن نحتقرها ونكرهها

وابراهيم المصرى أديب أشتغل بالصحافة واحترفها ولكنه ضن بأسلوبه عن الابتذال وصانه عن السرعة التى تذهب بقوته ونقاءه . وقد تناول حياة المحبين من الأعلام والعظماء والكتاب والفنانين وصور حياة كل عاشق وكل عاشقة وقد نشر فى سنواته الأخيرة مجموعة من القصص العالمية الرائعة كانت عاطفته واضحة من وراء قصص أصحابها وله قبل ذلك مجموعة من المؤلفات التى هى مجموعة مقالات نشرها فى البلاغ وغيره من الصحف عن الحضارة والفنون والآداب فى عصر الاله . وله فصول قوية عن بيرون وبروست وبودلير وهو من المدرسة التى بدأت تبرز بوضوح فى عام ١٩٣٠ وما بعده وزملائه الصاوى وابراهيم ناجى . هذه المجموعة التى انشأت الصفحة الأدبية لاول مرة فى الصحافه اليومية وغذتها بفنون عن المقالات والقصص

وأكاد أعتقد من وفرة ما كتب ابراهيم المصرى من قصص الحب أنه لم يغادر قصة رائعة من هذه القصص العالمية إلا وكتبها بأسلوبه الرائع وطريقته الشاعرية التى تجد فيها عاطفته وروحه وأشواقه الروحيه .

وأبراهيم المصرى من ذلك النوع الذى يعكف على نفسه ويحب العزلة ولا يختلط كثيراً بالمجتمع . ولا يعرف عنه انه سافر كثيراً أو أحب الأسفار . وربما عوض ذلك بالسفر فى بطون الكتب وإن كان قد عرف عنه انصرافه فى الأيام الأخيرة إلى كتب العاطفة والحب وقصصها ودراستها . وهو من

المشغوفين بالأدب الأوربى والفرنسى بوجه خاص . وله أسلوب متميز فى الترجمة ينقل به أفكار المؤلف فى أسلوب عربى ناصع رصين .

ولذلك فانت لا تجد عند « ابراهيم المصرى » هـذا اللون من الرغبة فى الصراع أو السجال وهو لم يشترك فى مثل هذه الألوان . بل حرص دائماً على أن يكتب فى « موضوعية الأدب » وإن يمارس دراسة التراجم للابطال والأدباء والأعلام .

ولما أرتفع السن به بدأ يرسم صورة للحب والـكهولة .

« قد يشعر فرد من الأفراد أنه إنسان ممتاز وإن مواهبه قد أعدته لعظائم الأمور فتراه يقضى أيام صباه فى تثقيف عقله . وترقية وجدانه . وتهذيب روحه . وتطهيرها من شوائب النقص بغية الوصول إلى هدف عظيم يمثل فى نظره مثلا أعلى .

فاذا ما أقبل هذا الرجل على الـكهوله أحس فراغا عميقا يكتنفه .وعزت عليه حياته التى أمضاها فى شرف الـكفاح والعمل . وطافت به أشباح المفاتن والمباهج الدينوية التى حرم نفسه عامداً منها ليستطيع أن يجاهد ويصل فاستيقظت فيه بغته رزيله الطمع واحتواه حب المال وسحره إغراء المراه وجرفه بتار العبث والتمتع . ويشعر الرجل أول الأمر بالقلق والحيرة والتخبط فيتألم . ولـكنه يظل يتأرجح بين سموه النفسانى القديم وبين شتى عوامل الاغراء المتالبة عليه قيود أن يفتقد نفسه . ويثوب إلى رشده . وينتقض على ضعفه . ويذكر ماضيه ويرتد لا تذا بطيف مثله الأعلى . واذا حبه المراه والمال وهى تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبصرها من قبل تلوح له بالموت القريب فتشده اليها وهى تهمس فى أذنه انه لا حياة بعد هـذه

الحياة وأن كل شيء باطل ما خلا المتعة المادية الأصلية فى وجوده . وهذا الشيطان يحوم حولنا جميعا . ويتربص بنا جميعاً . ولا ينفك يوسوس لنا فى مهبط العمران لنتنكر لماضينا ونخون مبادئنا . فلنحذر فى مغرب حياتنا قرب ذلك الشيطان .. »

وانى لاذكر ان « إبراهيم المصرى » كان على رأس فريق المجددين من الشباب عام ١٩٣٠ . كان استجابة صادقة للروح الجديدة التى بعثها رواد الأدب فى الأدب العربى المعاصر فاتجه بالأدب وجهة الترجمة والابتداع معا . وحرص على أن لا تأكله الصحافة أو تدفعه إلى محيطها الجارف فظل صامدا فى ميدان الأدب الرفيع لايريم وفى البلاغ وفن التراجم ودراسة الشخصيات والحب ودراسة العاطفة وقدم للادب العربى باقة رائعة من هذة الألوان التى تجد صداها فى النفس الإنسانية الشرقية لأنها تصور العاطفة فى سموها وانحدارها على السواء

واست انسى لابراهيم المصرى انه رحب بانتاجى فى مطلع العمر ورغب الى ان ارسل اليه بما اريد نشره وقد كنت يوميا فى الريف لا اجد من يأخذ بيدى الى مجال الادب الرفيع

ميخائيل نعيمه

« ثلاثة » أشياء فى حياة ميخائيل نعيمة تبهر من يدرس نفسيته و يبحث وراء معالمها الظاهرة : الصداقة الخالدة ، والوحدة الصوفية ، والتعمق فى فهم الحب أما الصداقة الخالدة فهى صداقته لجبران خليل جبران ، وإن من يقرأ كتابه الضخم الذى كتبه عن صديق شبابه وصنو روحه « جبران » يدهش لهذه العاطفة العميقة الضخمه التى تظهر فى كل سطرمن سطوره وتشع . حتى لقد عد هذا الكتاب من التراجم الرائعة ، التى ترسم صورة للصداقات الأدبية الرفيعة التى قلما عرفها الشرق من قبل ، ولكن هى الغربة والألم والأدب والنوحات الروحيه المزدوجة بين نفسين تطلعا إلى الحياة والمجد والحب ، ولعل وحدة « ناسك الشخروب » مرتبطة إلى حد ما بوفاة صديقه جبران فانه قد هجر نيويورك سنة ١٩٣٢ واعتزل الناس فى صومعته فى الشخروب حيث اطلق عليه لقب الناسك .

ولكن ميخائيل لا يريد أن يقال عنه أو يقول عن نفسه أنه ناسك ، «ما أنا بالناسك ولا هجرت الناس . ولا هجرنى الناس ، إننى أحيا للناس إذ

أحيا لنفسي ، وأن أتحدث إلى إنسان عينا لعين ووجها لوجه لخير من أن أتحدث إليه بالحبر والقرطاس ، وأن أكسب معرفة إنسان لأفضل من أن أكسب اعجابه ، فالوقت ليس من ذهب .

وهو يرى أن العزلة بالنسبة له كالماء والخبز والهواء فهو حريص كل الحرص على عزلته ، ولعل بين عزلته وبين حبه العميق للطبيعة رابطة ، أنه يحب الطبيعة على صورة لم تعرف عن الشعراء والفنانين يقول « خليق بي أن أشهد بما للطبيعة العجماء في عزلتي من أثر بعيد ، وأياد سخية ، فانا منذ حداثتي قد ألفت هذه الطبيعة الجبلية وشغفت بصخرها وترابها وأشجارها وأعشابها وطيرها وهوامها ومائها وهوائها وسمائها وكواكبها وأنوارها وظلالها وألوانها المتبدلة في كل طرفة عين تبدلا يسحر اللب والعين ، والبحر الحالم بدا عند أقدامها ، ألفتها وشغفت بها في كل فصل من فصول السنة وفي كل ساعة من الليل والنهار فانا أحسها فورات من النور ، وآونة السنة تخاطبني بلغة أولئك ما حوتها قط بطون المعجمات ، وحينا يغمرني الشعور بامومتها فاراني كالرضيع على صدرها ، ولكنما ترضعني من ألف ثدي وثدي . وتمس اجفاني بالف كف وكف ، وتعزف لي على آلاف آلاف الاوتار ، وهي في كل ذلك رفيقة إلى أقصى درجات الرفق ، وجواده حتى آخر حدود الجود »

أما الحب فان ميخائيل نعيمة يصل في تصوير هذه العاطفة إلى مدى بعيد من العمق ، هذا العمق الذي يعطيك إيمانا بصدق تجربته وتعددها وتنوعها .

« ما انفك الحب منذ أن كان الناس ، يجعل من الصعاليك ملوكا ومن الشياطين ملائكة ، ومن الأنذال أبطالا ، ومن سلالة آدم وحواء آلهة ، خليقة بالتسبيح والعبادة ، ومن ذا غير الحب يستطيع أن يسمو بالانسان إلى حد أن يجعله يخاطب إنساناً نظيره بمثل هذه الكلمات ، « معبودي » .

إنما الحب وحده يملك السر في تحويل الانسان إلى ما فوق الانسان ،

والحب وحده تبارك سحره ـ يملك المفتاح إلى قدس اقداس السعادة التى ينشدها الكل فلا يلمحون وجهها الالهى إلا فى لحظات نادرات هى من العمر زبدته ولبابه وناره ونوره وما تبقى فرغوه وقشور ، وحطب ورماد .

نعم : هو الحب يجلو بصائرنا وأبصارنا ، وإذا بنا مرآة صافية تعكس المحبوب صافيا ، وإذا المحبوب أكثر من عظم ولحم ودم ، وأكثر من يشعر بعقل ، وينطق ويأكل ويشرب ويشتهى أشياء ، ويهرب من أشياء « وإذا به فتنة وروعة وجلال وطعام وشراب لا تستقيم لنا بدونها حياة ، فهو الكيان المتمم لكياننا وهو الحيـــاة فى حياتنا ، والرجاء فى رجائنا ، والإيمان فى إيماننا ، به نكتمل ونخلص ، وبدونه نبقى ناقصين ونهلك ، به نحيا وبدونه نموت ، به الوجود حلاوة وهناءه ، وبدونه حسك وحنظل » .

هذه هى ابرز معالم حياته ، وأن الكثيرين ايربطون بين موت جبران وعودته إلى لبنان ، ترى هل كانت وفاة صاحبه وصفيه نهايه مرحلة فى نفسه دفعته إلى أن يتحول إلى التأمل ، ترى هل فشل فى الحب فانتقل إلى الطبيعة يمزج بها وجوده .

لقد عاد بعد عشرين سنة قضاها فى العالم الجديد فلماذا ؟ إنه يصور فلسفة العوده ويرسم لنفسه سر التحول : ويضع أيدينا على نقطة الانقلاب النفسى الذى اعتراه ودفعه إلى أن يترك نيويورك الصاخبة إلى صومعه معزوله فى الجبل الاشم « إننى بعد عشرين سنة قضيتها فى الولايات المتحدة شعرت بحاجة إلى الاستحمام فى نور البساطة العارية من زخرف المدينة وغشها وتشويشها ، فقد ابصرت الحياة حقيقة بسيطة عارية ، ورأيت الناس فى كل ما يعملون ويقولون ويؤمنون ، إنما يسبرون عرى الحياة باقيسه لا تحصى من أوهام تقاليدهم ومعتقداتهم ، فيخسرونها من حيث لا يعلمون . ولذلك يتألمون ويشقون، وقد وجدت أن الله يبدو سافرا فى هذه البلاد السافرة ، حيث أنه فى مدينة

كنيويورك تحجبه طقبات كثيفة من ضباب الأوهام والتقاليد الكثيفة فلا تلمحه البصيرة حتى يخفيه البصر ولا تقترب منه الروح ، حتى تعصية أهواء الجسد ونزعات النفس .

هذه الحضارة الغربية الصاخبة القائمة على مقاييس المادة لا يمكن أن ترضى هـذه الروح الهائمة الطائرة ، الشاعرة التى تؤمن بالمثل العليا وبالعاطفة وبالروحية وبالنسك والجمال المجرد . لذلك كان لا بد أن تقع هذه الوحشة بعد موت جبران فيراد ميخائيل من الاعماق إلى أن يعود .

« عدت وفى أذنى ضجيج مدنيات لا تحصى ، وفى رأسى براكين من الافكار وفى قلبى حنين إلى عزلة أستطيع أن أغرق فى صمتها وسكونها وجمالها فاطهر إذنى من الضجيج وأفرج عن رأسى ما فيه من البراكين ، وأبرد بعض ما فى قلبى من الشوق والحنين »

تراه الآن بعد ربع قرن من عودته أحس بالهناء ، وهل يمكن أن تهنأ النفوس الطامحة الدقيقة الحس العميقه الغور ، أو تقر ؟ لعله فى شوق إلى تجربة أخرى . لقد شارك ميخائيل نعيمة فى صناعة هـذا الفن الجديد الذى عرف فى الأدب العربى الحديث باسم « الأدب المهجرى » وكان له إلى جوار أخوانه وزملائه نصيب كبير ، إنه تتلمذ على الاجنحة المتكسرة . وله « الاباء والبنون ، وزاد الميعاد وهمس الجفون . والبيادر ، والنور الديجور وغيرها من الآثار التى أصدرتها الرابطة الأدبية ، وله « الغربال » الذى يعد ركيزه من ركائز الاتجاه الجـديد فى الأدب العربى المعاصر إلى الابتداع ومحاربة التقليد .

ومنذ ١٩٢٢(١) وميخائيل نعيمة يعلن رأيه فى إيمان « أن الشرق لنى غنى

---

(١) الهلال

عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية . أنا عارف أن المدنية الغربية وأن تداعى دنيانها لا تزال براقة غرارة وإنها لن تهوى إلى الحضيض قبل ان تشمل المعمور بأسره ، ايرشقنى من يشاء بانى رجعى يريد أن يعود بنا إلى مجاهل الدين وخرافاته وهو فى هذا الاتجاه يختلف عن صديقه وصفية جبران الذى كان كلفا بالحضارة مؤمنا بها .

ولعل أبلغ صورة لفلسفة ميخائيل نعيمة تتجلى فى ايمانه بخلود الفن والأدب . «غدا ستغمرنا لجة العدم باحزاننا وأوصابنا . يفقيرنا وموسرنا بوجهينا وفقيرنا وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية فلا تبقى إلا الخالد الجميل والحق فينا .

ومن ذا الذى يتقى ليخبر عن الخالد والجميل فينا . إن لم يكن الأدب والفن .

انطون الجميل



ليس يفتنني في شخصية « انطون الجميل » الانسان إلا عبارته الخالدة :

« اعز ما يجول بقلبي من الاماني العيشة بسلام . سلام مع نفسي وسلام مع الغير » وانطون الجميل كاتب وأديب . قد طوته الصحافة فعاش لها . بل لقد غمرته حتى قطعته عن الانتاج الأدبي . ولكنها لم تستطع أن تصرف نفسه عن ايمانه بالسلام النفسي بالرغم مما تدفع الصحافة إليه من صراع . .

وفي « انطون الجميل » ذلك الطابع الحلو ، في دماثه الخلق والسماحة التي نعرفها في جرجي زيدان وخليل مطران ، وقد دفعه استعداده النفسي هذا أن لا يتعصب ولا يتميز . فكانت عنده من سعة الأفق والرغبة في السلام ، ما حال ذلك بينه وبين الانزلاق إلى العنف والخصومة .

بدأ حياته معلما . ثم اتجه إلى الأدب وأعانه على ذلك ثقافته الفرنسية

والعربية القويتين . وقد هاجر من بيروت إلى القاهره سنة ١٩٠٩ ، فى تلك الفترة التى هاجر فيها الذين ضاقوا بالاضطهاد فى الشام . وفى القاهرة أصدر الزهور وحرر فى الاهرام الفرنسية واشتغل بالترجمة . وتنقل فى وظائف الحكومة . ثم اعتزلها حيث تولى رئاسة تحرير الأهرام .

وأثار كتابة عن شوقى ضجة ضخمة . وفتح باب سجال أدبى عنيف بين طه حسين والعقاد حول الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية فقد تناول شوقى بأسلوب فيه رقة ويسر . ووصف العقاد هذا الأسلوب بأنه طريقة الصالونات الفرنسية التى لاتصرح ولا تهاجم ولا تنقد فى قوة ولا تكشف عن العيوب الأدبية فى وضوح .

ونسى الناقدون أن هذه هى طبيعة انطون الجميل وانه كان فى أسلوب كتابه عن شوقى انما يصدر عن طبيعته الخالصة التى لا يستطيع أن يعقها . .

وأسلوب انطون الجميل شعرى فى صوره واخيليه والفاظه وتضمينه للشعر وروايتاه « أبطال الحرية » عن الانقلاب العثمانى و « السموأل » عن وفاء العرب تعطى اتجاه انطون الجميل والرابطة بين ماضيه وحاضره . فهو عربى تتمثل له العروبة فى وفاء السموأل . وهو مؤمن بالحرية تتمثل عنده فى صورة تحطيم الطغيان العثمانى

ولقد كان لانطون الجميل حبا عميقا عفيفا : ذلك هو حبه « لمى » . كان يحب « مى » حبا صامتا . إذ جمع بين روحيهما التقارب فى الاتجاه الأدبى وقرابة الموطن وغربه الدار .

وفى رسائله الى «مى» صورة نفسه .

« يلذ لى يا مى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب . لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفاتك . وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك فاسم «مى» يكفاك به وصف ولقب قد اصبح فى هذا الجيل يرادف حسن

البيان وفصاحة اللسان ونبوغ العقل وكبر القلب.

وبعد فقد طلع على كتابك فى ليلة العيد مع هلال الشهر محوطا بهالة من نور هو نور نفسك الفياض. لا عجب اذ تقبلت مافيه من عواطف سامية وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتنا. فانه ما دون ذلك يستوجب الشكر والامتنان. فكيف بذلك كله محلى بما شرفتنى به من صداقة عالية.

على انى ما أتيت إلى آخر كتابك حتى مازج شعورى هـذا شى من الاحتجاج، الاحتجاج الشديد، على ما نسبته إلى من النقمة على خطك والضحك على حروفك ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع وطريف ولا عبرت حروفك عن كل سام وشريف..

« بلغت إلى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ذات الفضل العميم على من مثل هذه الساعة. فاقف طويلا عن الكتابة ضائعاً فى بحار الذكريات. بل أن الكلمات تعصانى فابحث عنها ولا أجدها.»

ولكن الأمر بين انطون الجميل و «مى» انتهى إلى شيء من القطيعة بعد عودتها من المستشفى فقد كان شغل عنها أثناء مرضها»

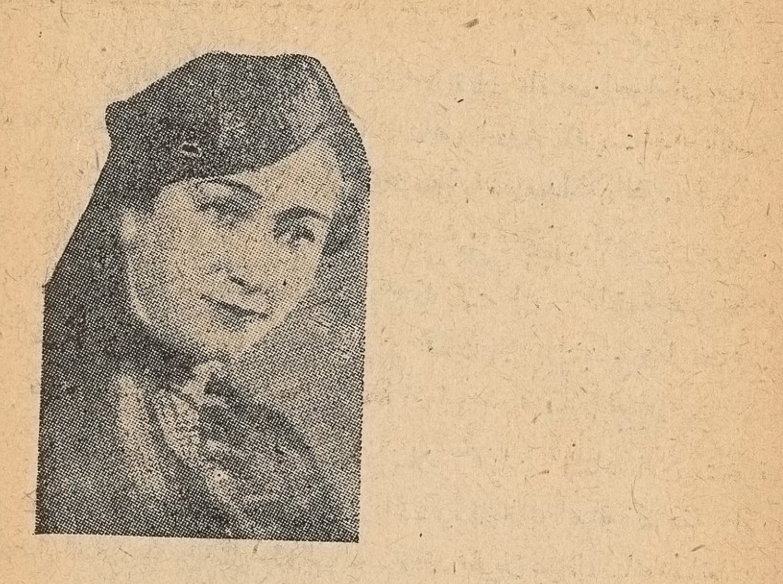
وقد لخص انطون الجميل حياته فى هذه العبارات الموجزة الواضحة:

« يقولون أن فى حياة كل انسان ملحوظة رجلا وامرأة وكتابا. كان لهم الأثر الأول فى تكوينه أدبيا وخلقيا..

والرجل الذى أثر فى تكوينى الأدبى هو الأستاذ الذى كان يدرس لنا البيان والبلاغة. والمرأة التى كان لها الأثر البالغ فى تكوينى الخلقى فهى «امى» التى علمتنى الجلد والتسامح ومعاملة الناس بالحسنى.

أما الكتاب فان المثل اللاتينى يقول « احشى رجل الكتاب الواحد» ولعل خير كتاب يفيد منه الانسان هو «كتاب الناس»

جميلة العلايلي



« على (١) وجهها وجوه كثيرة تحمل من الكآبة مسحة باديه . ويروعك هذا الجرى المتواصل وراء ألفاظها التى تحتبس وراء شفتيها كلما همت بأن تتكلم هامت بدنيا مجهولة غير محدودة . تتبرم بدنياها وتنشد فى أحلامها ما عجزت عن تحقيقه فى يقظة العيش .

وهى ليست شاعرة أو فنانة فحسب — بل هى — راهبة لا تقنع بنشدان الطمأنينة والصفاء فى هيكل واحد . ولكنها تنتقل من دير إلى دير تجر وراءها أثقالا من الشجن وكأنها تخشى أن تهوى ثانية إلى عالم الماديات والحب الضائع والحسنه التى تجتزىء بالشر .

---

(١) هندية : كتبتها فى مجلة الحديقة والمنزل (سبتمبر ١٩٣٨)

وإذا خالدتها تدرك وراء ذلك كله ظمأ لا تنقع له غلة ، يحدوها إلى ارتياد المجهول تلمس فيه قبض الريح فتتألم لها وتحوطك رغبة من الاشفاق عليها .

تعذب نفسها وتشقيها وفى يدها خلاصها . لذا كان من العسير أن يفهمها أى رجل وكذلك من العسير أن تحب أى رجل لأنها لا يمكن أن تخدع بالحب فعاشت العشرين من عمرها ويزيد مجنحة حالمة تنتقل بين الأرض والسماء . عذاب لا ينتهى . وظمأ لا تنفع غلته وهى مستوية القلب — تحلق — ولكن سرعان ما تجذبها الأرض متبرمة ، ثم تدوى فى أذنها أناشيـــد الرجاء ويختلجها الحنين إلى المجهول النائى . إلى الغامض الذى لا يفسر . ولا يسقط منه قناع وقد أبت الطبيعة عليها ذلك بعد أن لقحت انسانيتها السامية بغرائز ترابية . فى حمأتها تتوالد جراثيم اللذة : لذة الجسد ولذة القلب .

امراه بما يصطخب فى قلبها من تيارات فائرة وينابيع صافية ساجية جمة المحاسن وافرة الرواء . وقديما تلبس هذا المرض فئة من الشعراء فأحالهم شكاه متبرمين . ولطالما حاولت أن تكون فتاة حياة وتعيش على الأرض التى جبلت منها طينتها . وحاولت أن تلقم ذهب روحها بشىء من النحاس ليصلب عوده على أنها لم توفق فى محاولاتها مع أنها فى مقتبل الشباب ولها من هـــذا الشباب وسامته وعبقه .

ولو شاءت للعبث بالحياة والرجال بين أناملها فهى محبوبة مرغوب فيها ولكنها تريد أن تشاهد دخان نفسها وهى تحترق فى بطء لتسجل شجوها فى سطور وترسمها فى خطوط وظلال وتصورها فى نغم والحان شاعرة »

هذه لوحة فنية رسمتها جميلة العلايلى لبطلة اطلقت عليها اسم « هندية » ولا نعدو الواقع إذا اعتقدنا أنها إنما كانت ترسم صورة نفسها فى هذه الفترة من الزمان .

أحبت الأدب منذ صباها الباكر . وأعانها على ذلك طبيعة شاعرة وبيئة علم وثقافة . وجو رائع . فقد فتحت عينيها على ضفاف المنصورة حيث النيل هناك يرسم صورة ساحرة .

وقد التهمت منذ صباها كل ما وقع فى يديها من الانتاج الأدبى وبدأت تكتب مبكره ففى عام ١٩٢٦ أصدرت أول رسالة لها . وعندما أتيحت لها فرصة الانتقال إلى القاهرة أندمجت فى البيئات الأدبية وأرتادت المحافل الفكرية وربطت أواصر صداقات أدبية متينة مع كبار الأدباء . وكانت من رواد أبولو ومن الشاعرات اللواتى اعتز بهن الدكتور أحمد زكى أبو شادى . وفى أبولو والرسالة نشرت طائفة كبيرة من قصائدها . ولمع اسمها وهى فتاة لم تبلغ العشرين وكانت من صديقات مى والمعجبات بهدى . ثم اتصلت بالصحافة . وأنشأت مجلة « الأهداف » وبدأت تكتب القصة وتعبر عن آرائها بالنثر والترسل أكثر مما كانت تفعل قبلا . وبقى الشعر روحا طايقا يهفو إليها وتهفو إليه بين حين وحين . واستهواها التأليف أكثر مما استهوتها الكتابة فى الصحف الكبرى .

وهى تؤمن بأن لها رسالة : « . أن لى رسالة خاصة أستطيع أن أقوم بها من وراء السماء أن اجتفيت هناك . ومن عبر البحار أن عشت خلفها . أن رسالتى أن الهم وأوجه . أن رسالتى كالكهرباء . تنتج فى سكون وصمت . بعيدا على الضجة الكاشفة .

وهى إلى هذا كاتبة فنانة . صادقة الحس . دقيقة الشعور . تعيش كل لحظة فى حياتها وتسجل كل لمحة فى وجودها . بالنثر أو بالشعر .

وقد رسمت عاطفتها فى الشعر والنثر صريحة واضحة . وكانت جريئة فى اتجاهها هذا الذى بدأته مبكرة .

وقد أحبت الرحلة والسياحة وسافرت إلى سوريا و لبنان وفلسطين وكان لها من هذه الرحلات زاد نفسى عظيم .

وقد أحبت من أعلام الإنسانية غاندى وطاغور « أحبت فيهما الروحانية العظيمة والإنسانية الصادقة » .

وترى أن «مى» هى الرائدة الأولى للادب النسوى . وتؤمن بانها صادقة الحس عميقة العاطفة .

ولم يعجبها فى الأدباء المحدثين غير الرافعى .

وهى تؤمن برسالة المرأة كاتبة وملهمة وموحية وداعية للخير وترى أن مكانها البيت وترى أن الهيئات النسائية ليست إلا أدوات للظهور والدعاية الكاذبة تقول « على أننى أرجو ألا تستهين المرأة بمواهبها الأصلية وأن تثبت للرجل انها لا تضحى بالأسرة ابتغاء مركز اجتماعى تفاخر به . فان مفخرتها الأكيدة إنما تكون بتكوين الأسرة لتنشىء جيلا جديدا لا يعرف غير المعنى الإنسانى السامى .

سهير القلماوى



لا تعطيك آثارها شخصيتها . فاذا أردت تستجلى ملامح طبيعتها أو أو شمائل نفسيتها أجهدك هذا .. فهى لا تتحدث عن نفسها كثيراً . ولا تصور معالم حياتها . وتتلخص حياتها فى انها من الجامعيات الأول . وأنها تلميذة الدكتور طه حسين ..

وإنها بدأت دراستها فى الجامعة الأمريكية ثم اتجهت إلى كلية الآداب . ثم سافرت إلى فرنسا حيث قدمت رسالتها عن « الف ليلة » ثم عادت الى مصر فعملت فى الصحافة مع طه حسين فى كوكب الشرق ..

وآثرت البيئة الجامعية وتفرغت لها إلا من بضع قصص أو مقالات وفصول تنشرها بين آن وآخر . أو تذيعها . واتصلت إلى ذلك بالحركة النسوية وعملت فى ميدانها

ولعل الذين سمعوا صوتها وطريقة القائها يدهشون لهذا الطابع العلمى الذى تحاول دائماً أن تلبس ثوبه . وهى كالسيدة أمينه السعيد فى أسلوبها

رجوله . وفى معالم كتاباتها ذلك الطابع الذى لا تكاد تحس معه انك تقرأ لأنثى . ولعل مرجع هذا إلى أنها عاشت فى بيئة الجامعة والعلم والبحث طويلا

وهى تحب الرحلة . وقد اتيح لها أن تسافر إلى امريكا وإلى بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط كلبنان وقبرص وتؤمن بأن السفر يفتح افاقا جديدة .

وهى تؤمن بأن الأدب للحياة وتقول « الأدب فى الواقع لا يمكن الا أن تكون له غاية . والحياة كلمة متسعة كما ترى تتضمن الفن . وقد تتضمن كل شىء . لذلك أرى أن الأدب لمجرد اللذة الفنية أو ليؤدى خدمة اجتماعية أو سياسية أو اليق بأن يكون موضوع المناقشة . والمشاهد أن الأدباء منهم من ينصب نفسه هاديا ومنهم من لا يعنيه إلا أن يقول ما يحسه . وكلاهما أديب بل أحيانا أديب ممتاز .. »

وقد كتبت سهير فى الثقافة عام ١٩٣٩ فصولا عنوانها « فى سبيل جيل جديد عرضت فيها لبعض أراء علماء التربية . كما ترجمت كثيرا من القصص عن كتاب الغرب .

ولكن سهير القلماوى بالرغم من هذا الطابع العلمى الذى تسبغه اليوم على شخصيتها — كانت لتقول شعراً فى عام ١٩٣٣ وهذا نموذج من شعرها :

فى سكون الليل يحلو لى البكاء　　فأروى القبر من روحى الوفاء

اترى روحك تسرى فى المساء　　فى سلام وسكون وصفاء

أم ترى حيرى تهيم فى الفضاء

يا حياة عشتها كانت ممات　　أنت فى القبر ومن قبل رفات

أنت سرت من سباب لسبات　　ضمك الموت ومن قبل العناء

فمضيت من عفاء لعفاء

كم رددنا الطرف والطرف حسير وسكبنا الدمع والقلب كسير
وسئمنا العيش فالسعى عسير آه ياربا حتام الشقاء
أن حمى العيش فى جسمى كداء
أترى قدر للنفس الخلود كل من يدرى يولى أن يعود
قد عرفت اليوم ما سر الوجود فارحمينى . خبرينى . ما الفناء
ان نفسى فى عذاب وعناء

ويعطى هذا الشعر صورة العاطفة العميقة . والروح المشرقة الطليقة . فهى تذكر إنسانا عزيزاً فقدته فسئمت العيش وسكبت الدمع . وهى تتعمق الاحساس فتسأل عن الموت والخلود والفناء . . .

وسهير القلماوى تعطى فى اثارها وإنتاجها المقل طابع العلماء أكثر مما تعطى صورة الادباء والصحفيين وهى فى هذا تختلف كثيراً عن بنت الشاطىء وأمينه السعيد .

فهى لا تمارس الكتابة بصفة دائمة وهى لم تمارسها كذلك إلا فى سنوات ٣٩ — ٤٢ وبالرغم من أنها بدأت عملها فى الصحافة بعد تخرجها من الجامعة وكتبت فى كوكب الشرق باب المرأة ، فانها تحولت فيما بعد إلى الكتابة ذات الطابع العلمى فأصدرت كتابها الاندلس .

وهى فى هذا الاتجاه تتمشى مع طابعها النفسى . طابع الاعتدال والتريث والبعد عن محيط الصراع . والرغبة فى اسباغ جو من الهدوء والسلام . فهى ليست مقتحمة أو مصارعه ولا تحب الدخول فى وفيها مساجلات . ذلك الطابع الانطوائى الذى يكعف على القراءة والمطالعة . وعلى رعاية الأولاد وتنشئة الاطفال .

فاذا ذهبنا نتقصى أسلوبها فى الكتابة وطريقتها فى البحث

الفيناها قريبة فى النهج من استاذها الدكتور طه حسين مع استقلال واضح فى شخصيتها .

وهى كالجامعيين لا تعطى الادب طابع الحرية ، وانما تؤمن به فى حدود من النظريات وقيود من الاوضاع والقواعد . وإن لم يكن الادب فى يوم من الايام مقيدا أو مستعبداً .

لقد قالت سهير الشعر فى أول الشباب . وكانت بعض فصول انتاجها تعطى الطابع النفسى هذا الطابع الهادىء الذى يرسم صوره السلام والانطواء والصفاء الروحى . ولكنها تحولت بعد ذلك حيث أوغلت فى الطابع العلمى وأوفت للروح الجامعى كل وفاء . وإن كان ذلك فى الاغلب على حساب الادب المتحرر من كل قيد .

أمينة السعيد



كاتبة ثائرة . لا يؤمن من يقرأها بأنها « انثوية الأدب » وإن كان لقاؤها يعطى صورة عكسية لهذا الاحساس فاننى كثيرا ما أراجع ما تكتب على أنه من كتابات الرجال لا أجدنى أجد فارقا كبيراً . أن فى طبعها وأسلوبها ذلك الطابع الرجل الذى يصدر عن طبيعه جريئة شديدة الجراة . معتدة شديدة الاعتداد

ولعل هذا يرجع إلى أن « أمينة السعيد » كانت من أولى فتياتنا اللواتى اقتحمن حرم الجامعة فصادفتهن تلك المتاعب التى تعترض أى طريق جديد خاصة فى بيئاتنا منذ ربع قرن عند ما بدأ الاختلاط فى محيط الدراسة

ولعل مصدر هذا أيضاً . أنها وثقت بالناس فى صدر شبابها ثم تبين لها عكس ما كانت تعتقد . « كنت فى فجر شبابى شديدة الثقة بالناس آخذ بمظاهرهم وأحكم على اخلاقهم بما يتبدى أمامى من أقوالهم وافعالهم على اعتبار أن الوجوه مرآه صادقة لما فى القلوب . وبدافع من هذه الثقة العمياء أخذت من بين معارفى أصدقاء . ظننتهم نبلاء . فاخلصت لهم الوفاء . وكانت

حياتهم موحشة فآنستها بعطفى . و نفوسهم كسيره فقومتها بحنانى . ثم كشفت القلوب عن سترها .

فرأيت القبح فى صور لها أعجبت بجمالها . فأوجعنى قلبى لصدمتى . وضاق صدرى بمحنتى . وشفيت بعد زمن قصير ولكنه المحنة أنهكت قدرتى على الوفاء واستنفذت ذخيرتى من العطف وعلمتنى أن أكون بخيله بقلبى لا أعطى منه إلا قليلا . ولا اتطلب من الناس كثيرا .

وهى تعتز بجرأتها مهما رأى الناس فيها « من طبائعى التى كنت أعتز بها كل الاعتزاز : تلك الجرأة الشديدة التى لازمتنى منذ صغرى . ونمت مع الأيام ونضجت . حتى أصبحت صفة متصلة فى أخلاقى . فكنت أفعل ما أشاء وأقول ما أريد . وألبس ما يحلو لى ولا يهمنى أن رضى الناس أم كرهوا ما دمت مطمئنة الضمير إلى عفة مقصدى . نقية القلب أمام الله الذى هو الحكم الأول والأخير فى نفوس عباده وأعمالهم وكثيراً ما كانت هذه الجرأة تثير العواصف فى وجهى فازداد تشبثا بأساليبى حتى نزول الغمة وينتصر الحق فيقتنع الناقدون من تلقاء أنفسهم بخير ما فعلت .

ولكنها ترى أنها عنيفة الطبع أكثر مما يجب « إنى ذات طبع عنيف أثور لاتفه الأسباب . و أقول الحق أننى كنت أخرج فى غضبى عن حدود الاعتدال والوقار فاخطىء فى حقى وفى حق الناس ثم لا ألبث أن أهدأ وآسف على ما بدر منى ولكن بعد فوات الأوان .

وقد صورت أمينة السعيد بيئتها الأولى فقالت أنها نشأت صريحة فى القول تبدى الرأى فى أمانة إذا ما طلب منها ولا تتطفل به على أحدا ولا تعرف المجاملة فى الحق . « كنت أمينة بضميرى . إذا أحببت اقبلت وإذا كرهت اعرضت . ابتسم لما يسرنى . وأقطب لما يغضبنى . امتدح الخير جهارا وأذم الشر علانية » .

وقالت أن هذا السلوك قد أدى بها إلى أن غضب الناس عليها . وتحاشاها الأصدقاء . وتفرق جمعهم من حولها « ثم وجدتنى أقف وحيدة فى طريق ملىء بالعقبات وتحت سيل منهمر من اللوم والنقد والشك »

وقد أحبت الكاتبة الأدب منذ شبابها وكرهت وظائف الحكومة . واشتغلت بالصحافة . وترى أنها أدبية أكثر منها صحفية وقد قرأت كثيراً ولكنها لا ترى أن شخصيتها تتأثر بالقراءة فى كثير ولا قليل أو تخرج عن طريقها المرسوم . « ذلك لاننى لست ممن يتغيرون بما يقرأون . وأعتقد أن التغير دليل الضعف . وعنوان الحرمان من الصفات الرئيسية التى تجعل من كل انسان شخصا قائماً بذاته له شخصيته المميزة واتجاهاته الفكريه الخاصة .

ونحن لا نوافق الكاتبة على هذا الرأى . وإن كنا نراه يستطرد مع طبيعتها الحادة التى تبدو من خلال هذه الملامح التى جمعناها عنها من كتاباتها ..

وإن كانت هى تسجل على نفسها أنها اضطرت أخيراً إلى أن تتخلى عن جرأتها المعهوده وتنحو نحو التحفظ فى كل نواحى حياتها . ثم تزن الأمور بألف ميزان قبل أن تتقدم خطوة إلى الامام .

كانت أمينه السعيد أول فتاة لعبت « التنس » فى ساحة الجامعة وناقشت رواية مجنون ليلى فى قاعات الجامعة . وأول من خلعت غطاء الرأس فى كلية الآداب .

ولعلها أول سيدة تكتب كتابا جريئا عن « بيرون » .. وتختار شخصية بيرون بالذات . وهى تحب شخصية « رابعة العدوية » حبا روحيا . لم أر صاحبته إذ سبقتنى حياتها بمئات السنين ولكنى عرفت سيرتها من التاريخ فقربها الكتاب إلى نفسى . وأودعها الاطلاع بين طيات قلبى حتى لأحس بوجودها أحيانا أكثر من الأحياء .. »

فاذا أردنا أن تعرف أثر الزواج فى اتجاهها الصحفى والادبى . وفى اتجاهها فى الحياة عامة تقول « . . لو لم اتزوج جامعيا يقدر العلم والثقافة . ويحمل الجهاد فى سبيل المثل والمبادىء ما استطعت أن أشق طريقى فى عالم الكتابة . ولا أمكننى أن أخدم بلادى فى أكثر من ناحية . فالرجل يكره بطبعه أن يوسع ميدان العمل أمام زوجته . ويبغض أن توزع حياتها بين البيت والمكتب . ولكن العقلية الجامعية السامية أرتفعت بزوجى فوق هذه السقطات الفكرية . فاخذ بيدى نحوراً نحو تنمية مواهبى .

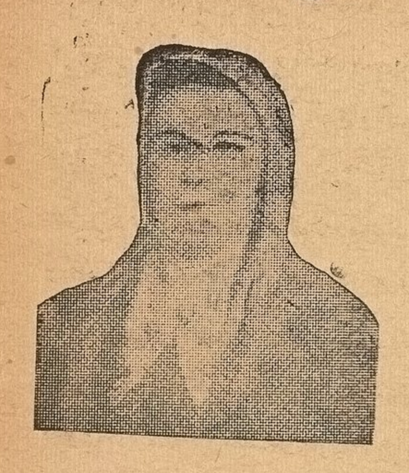
وبدلك امكننى أن أجوب وحدى انحاء الشرق وأزور أقطاره البعيدة ولا رفيق لى فى سفراتى الكثيرة غير ضمير فى خفرته الثقة به إلى المبالغه فى تلافى الاخطاء والتمسك بدواعى الكمال

وإنى اعترف فى صراحة اننى مدينة لزوجى بكل ما وصلت اليه من قدرة كتابية ومكانة اجتماعية »

وتقول أمينه عن نفسها انها ليست ربة بيت ناجحة فحسب . بل أنها ممتازة فى هذه الناحية . وانها تجمع النواحى الثلاث فزوجها سعيد كل السعادة وأولادها مثال التفوق والاجتهاد والادب . وبيتها جميل نظيف انيق .

ولكن أمينه السعيد تغلب العمل الصحفى على التأليف ولذلك فليس لها فى أيدى المثقفين إلا كتابين أو ثلاثة لاتعطى فى مجموعها صورتها الادبية الكاملة

وداد سكاكيني



كاتبه من دمشق تعيش فى القاهرة . وتغمر الصحف فى القاهرة ودمشق ولبنان بانتاجها الداخر أحبت القاهرة قبل أن تراها . فلما عاشت فيها ازدادت بها اعجابا . وهى تعطيك منذ أن تراها طابع الجرأة والاقتحام . فهى من ذلك النوع الذى يحب الهجوم . وهى تبدو لك عندما تقلب صفحات المجلات والكتب لتحاول أن ترسم لها صورة نفسيه تبدو فى ملامح الكاتبة الناقدة الجريئة التى لاتنى تهاجم ولا تدع فرصة دون أن ترد الصاع صاعين . فهى تهاجم الادباء الذين يدافعون عن العامية وتهاجم الذين يقولون فتش عن المرأة وتقول لهم . بل فتشوا عن الرجل وهى تصف المرأة فى هذه الصورة الشعرية الرائعة «هى نبع فاشربوا منه سائغا طهوراً . ولا تعكروه بالقذى أو ترموه بالحجارة «هى قيثاره فوقعوا على أوتارها الانغام العذاب التى تهدهد الآلام وتنشر الوئام والسلام .(١)

---

(١) الثقافة — ٢٣ مارس ١٩٤٣ .

« فتشوا عن المرأة فى تضميد الجروح . ومواساة المرضى واسعاف المساكين
« فتشوا عنها فى أطوار الأمومة الرحيمة . فهناك اقصى غاية الجود والتفدية
« تسهر لينام أولادكم وتجهد ليستريحوا وتفديهم بالروح مهما اساءوا
« فتشوا عنها وهى منجبة العظماء الذين كتبوا لامتهم سجل الخلود والامجاد مدى الاباد ».

وهى تضم قصصها مجموعة من الرؤى والذكريات فيها اشواقها إلى دمشق وحنانها إلى أشجار الخريف فى بيروت . والنيل والمساجد فى القاهرة . .

ووداد عربية أصيله فهى تعالج الامور وتنظر اليها من هذه النافذة . وهى بذلك تختلف كثيراً عن أدبائنا . وهى بليغة اللغه لا ترضى أن تدعها للبساطة واليسر الذى درجت عليه كاتباتنا اللواتى اتصلن بالصحافة . وهى لاتنسى طابعها العربى الاصيل عندما تصف القاهرة فى هذه اللوحة الرائعة : كنت فى دمشق أتوق إلى القاهرة لارى فى مجالها طوابع الشرق والاسلام فاتم طواف النظر وحج النفس إلى شرقتنا العريقة وقد سحرتنى القاهرة على نحو ما سحرتنى دمشق .

فعلى ضفاف النيل . وفى ظلال النخيل . حططت رحلى واستروحت بأرض مصر ، وطافت بى الخواطر مطاف المجد . فرأيت النيل وكأنه نهر من ذهب . عاشت على جانبيه أمم لم تمت ظمأى . وكررت فى الذكرى أيامه الغر الحجلة ».

و « وداد » فيها طابع الانثى الواضح الذى لايفتقده طويلا . وتلقاه دائما . تلقاه فى هذه الفصول التى كتبتها عن المرأة تصور فيها ملامح روحها « أما دموع المرأة إذا صدقت كالزهرات العاطرات أو كقطرات الندى فى البكور على الورد والريحان . . على أن دموع المرأة فرجة من همها وألمها .

وراحة لروحها المرهفة . إلا أن البكاء والنساء ضنوان . ولقد بكين من يوم حواء . وما أقرب بكاء المرأة اليها وما أحناه عليها . فليس بينها وبينه حجاب ولا حساب . إنها تبكى طفله وعجوزا . وتبكى غنيه وفقيره . تبكى إذا تألمت أو اثمت . وتبكى إذا زلت ثم ندمت . وتدمع من فرط السرور واهتياج الشعور . وتستجيب لها المدامع . إذا تم عنداها فراق أو خاب لها رجاء . وتجد فى نفسها من سرعة البكاء وسهولته ما تجده من افترار البسمات على شفتيها وتسلل الضحكات إلى فمها . وذلك لرقة قلبها . ورفاهة حسها ومزاجها »

هذه لوحة أنثوية خالصة تدل على عمق فى تصور حياة المرأة . ولعلى لا أجد مثل هذه الصور إلا عند أمثال « وداد سكاكينى » من كاتباتنا اللواتى تفرغن للحياة الزوجية وبعدن عن مجال العمل والاتصال بالمحيط العام اتصالا مباشراً . فان الحياة فى المحيط الزوجى تعطى هذا الطابع الانثوى الخالص ...

ولعل هذه الصورة أيضا التى نأخذها من كلمتها «سحر المرأة» تعطى تأكيداً لهذا المعنى الذى ذهبنا اليه .

« رب راء لامرأة يعرفها أو يصادفها . وكأنها قد صبت فى القالب أو نحتت مثل دمية أو تمثال . لكن تنقصها الروح والحياة . ولو جالت من عروقها الدماء لما سكبت عليها من السحر قطره . ولقد يكون السحر ساكنا كما نراه فى الصورة الفاتنة . وكأى من صورة يخيل اليك أن السحر يترقرق فى خطوطها وملامحها . فلما نطقت وتحركت . عريت من الصناعة ، فاذا هى بموهة مزوره كالدينار الزائف . ولقد يكمن هذا السحر فى المراه كمونة بين الزنه والحجر ، فلا يتراءى حتى يقدحه قادح .. »

ولست أدرى هل تكون المرأة حين تتكلم عن سحر المرأة أكثر

صدقا من الرجل . أم أن الرجل هو وحده الذى يستطع أن يتحدث فى هـذا الموضوع الخطير .

الحق أن وداد سكاكينى : كاتبة انثى . وهى بالرغم من أنها تعيش فى فى محيط البيت إلا أنها من ذلك النوع المقتحم الذى ينزل إلى المعارك بقوة ويحرص على لغةالضاد وإمجاد العرب ويعطى صورة عاطفته فى أثاره بوضوح

الحب والمجد

فى حياة الشعراء المعاصرين

